أحمد عبد الغفور عطار

٥٧

كلام في الأدب

الناشر
المؤسسة العربية للطباعة
جـدة

الطبعة الأولى

١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــــداء

الى أخــــوى العــزيزين
الأستاذين الجليــلين السيدين
عــلي وعثمان حــافظ آهــدى
هذا الكتاب تحية لهما واكباراً
لخلقهما وقدراً جميلا لأدبهما .

غرة ربيع الثاني ١٣٨٤ هـ — أحمد عبد الغفور عطار
٩ اغسطس (آب) ١٩٦٤ م — مكة المكرمة

مقدمــــة

في هذا الوقت شغلت المادة الناس وملأت أقطار حياتهم ظهرت في العالم العربى دعوات أقرب الى الجهل بالواقع والحقائق وأدنى الى الهدم ، وانتهت الى بلادنا فنهض دعاة زعموا أن عصر الادب ولى لان عصر العلم قضي عليــه ، وعلى العلم وحــده تقوم حياة الانســـان الحـــديث ٠

وفي كتابنا هذا رد على هذه الدعوة الجريئة التى سيطرت على أقلام عديد من الكتاب نشروا في صحفنا ما يزعمون ، حتى أن جريدة « المدينة المنورة » الغراء أشارت في العدد ١٠٥ الصادر في ١٣ ربيع الأول ١٣٨٤ (٢٢ يوليو ١٩٦٤ م) الى هذه البدعة في رسم ضاحك « كاريكاتير » ظهر فيه اثنان يقول أحدهما للآخر : « خلاص يابويا ، كفاية موظفين وأدباء ٠ البلد تبغا صنايعية » ٠

ويظهر أن الرسام أراد رفع شأن الصناعة في بلادنا وتشجيعها فكتب تلك الجملة وقد خانه التوفيق فيها ، فنحن لا نشكو الكثرة في الأدب حتى نعلن طلب الكفاية في الأدباء ٠

وهذه الصحف عندنا ، ويبلغ مجموع صفحات ما يصدر منها أسبوعيا حوالى مئتى صفحة بمقاس الجرائد ، فاذا بحثت عن الأدب الخالص لم تجد الا بضع صفحات ٠

وأعتقد أن هذا ليس بالكثرة التى نطلب معها الاكتفاء ٠

واذا كنا حقــا في حاجة الى الصناعة فلا تقتضى هذه الحــاجة الشكوى من كثرة الأدب وطلب الاكتفاء بما لدينا من الأدباء ٠

وانتهى زمن المناظرات الـكلامية التى كانت من موضوعاتها : أيهما ألزم للمجتمع : السيف أم العصا ؟ وأيهـــما أفضل : الماء أم الهواء ؟ وأيهما يحتاج اليه الوطن أكثر : الطبيب أم المعلم ؟

فـكل مجتمع يحتاج الى السيف والعصا ، والطبيب والمعلم ، والماء والهواء ، وكل من ذلك ضرورة لا غنى عنها .

فاذا سأل سائل : أيهما أفيد ؟ العلم أم الأدب ، وأيهما أحوج ما نكون اليه منهما ؟ قلت : كلاهما ضرورة ولا بد من الأدب والعلم معـا لـكل مجتمع .

وهؤلاء الذين يدعون هـــذه الدعوة يجهلون حقيقـة الواقـع وحقائق المجتمع وضروراته .

فنحن لا نســأل : أى عضو ألزم للانسان ؟ اليد أم العين أم اللسان أم الفم أم الرأس أم القدم ؟ كل هذه الاعضاء ضرورة له ، ولا يستغنى الانسان عن عضو منها ، فاذا نقص اصبع من أصابعه عد نقصا وتشويها وعيبـا ، كذلك المجتمع الذى يضم آلاف البشر أو مـلايين .

لا يضير الفرد أن يكون طبيبا وألا يكون مزارعا أو مهندسا ، ولكن المجتمع المتكامل يجب أن يكون فيه الطبيب والمزارع والمهندس وكل ذى اختصاص في الآداب والفنون والعلوم والصناعات وفي كـل ما تقتضيه الحيـاة الانســانية ، فاذا نقص أحد منهم اعتبر المجتمع ناقصا ، كالانسان اذا نقص منه عضو .

وما عندنا كثرة حتى نطلب الاكتفـاء ، بل الحق اننا نشـكو الفاقة في الأدب كما نشكوها في العلم ، ولا يجب أن يحيا أحدهما أو يمتدعلى حساب الآخر ، بل يجب أن يكون لكل منهما المكان المفضل ، فكما لا تغنى الانسان العين عن اليد كذلك المجتمع لا يغنيه العلم عن الأدب ، لأن الانســان مزيج من الروح والمادة ، وخليط من العاطفة والعقل ، وما ثم فاصل بينهما .

الأدب ضرورة ، والعلم ضرورة ، ولا يشكو مجتمع انسانى ذو حضارة ومدنية من التخمة أو الكثرة في الأدب والعلم بل يطلب المزيد منهما ، وكلما قطع فيهما شوطا وجد أمامه الطريق طويلا لا ينتهى ،

وكلما بلغ فيه مبلغا عظيما وجد أنه ما يزال في حاجة الى المزيد ٠

والحكمة العربية تقول : « اثنان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال » يدل على أن النهم في طلب العلم والأدب لا يحد ولا يزول ، بل يزيد كلما شعر بالشبع ٠

ولعل الحكمة العربية تكنى بالعلم والمال عن المادة والروح ٠

واذا عرف أولئك القدامى قيمة العلم والأدب أو قيمة المادة والروح فان من العيب أن يجهله ابناء هذا العصر ٠

واذا كانت الشيوعية التى تزعم ألا اله غير المادة لم تكتف بالعلم والمعامل والمختبرات والمصانع فان من الجهل أن نجد دعوة الاكتفاء بالعلم ونبذ الأدب ٠

ان الشيوعية المادية تعنى بالأدب عنايتها بالعلم بل تعنى به أكثر من العلم ، فوراء كل مصنع شعور يدفع الى العمل والانتاج ٠

وما ينفق في روسيا الشيوعية على الفنون جميعها كالأدب والمسرح والموسيقى لا يقل كثيرا عما تنفقه على العلوم بأنواعها ٠

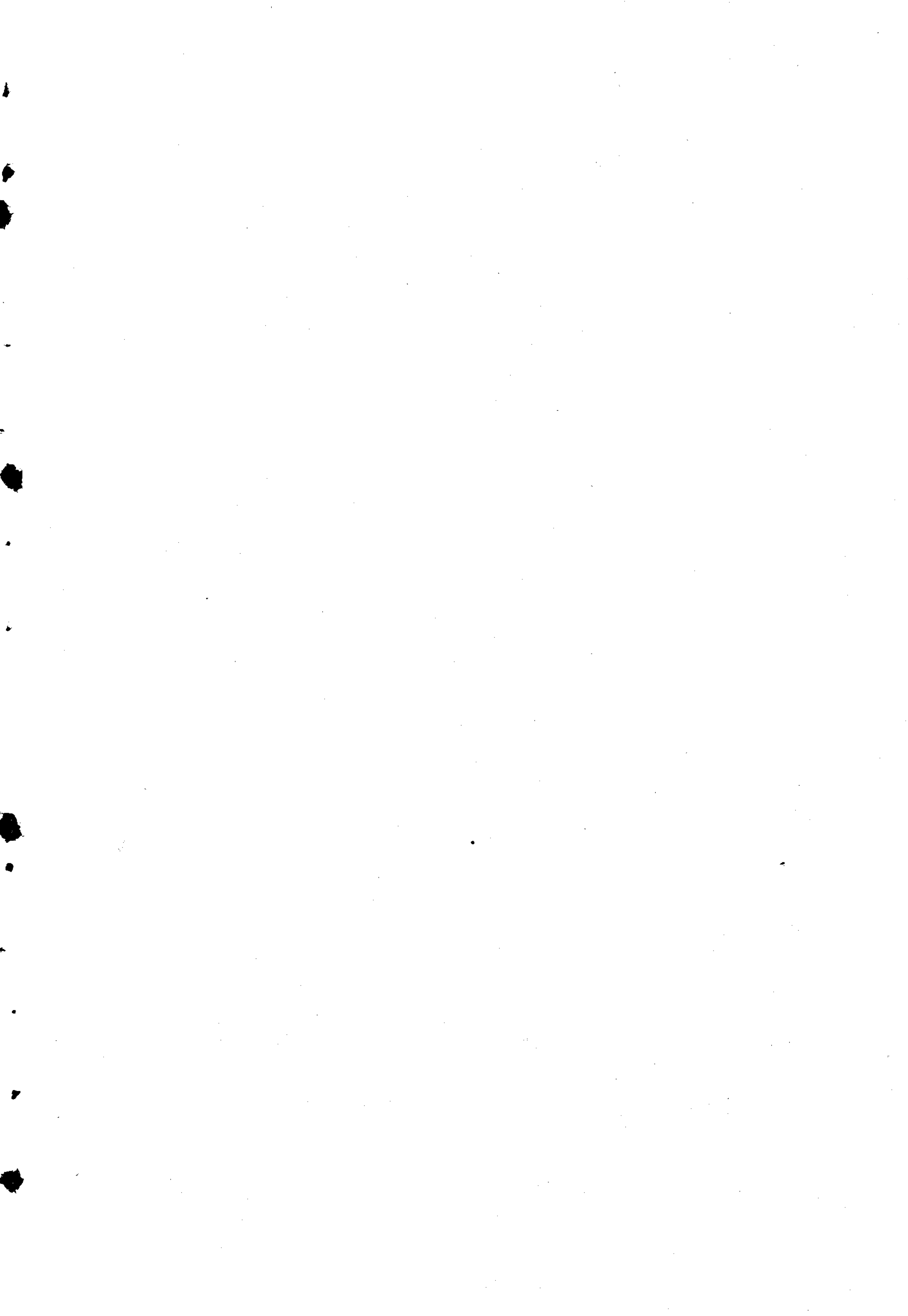
هذا في الدولة المادية ، فكيف ينهض دعاة في عالمنا العربى يزعمون أننا في غنى عن الأدب وأن لدينا منه الكفاية ؟ أى كفاية ونحن جد فقراء في الروح ؟

وكتابنا هذا «كلام في الأدب» أريد من نشره مقاومة هذه الدعوة وأمثالها ، وبيان حقيقة الأدب وحاجة الفرد والمجتمع اليه ، بل هو منه بمثابة النفس (بفتح الفاء) ولا يكن الاستغناء عنه ٠

وما في هذا الكتاب مجموعة من المقالات نشرت ، ثم جمعت بين دفتيه ، وبعضها يتصل ببعض بنسب أو بسبب ، وما في اجتماعها في صعيد كتاب ما يدعو الى الغرابة لأنها للأدب وفي الأدب ولخدمة الأدب ، وكلها حبات من نوع واحد يجمعها سمط واحد ٠

غرة ربيع الثانى ١٣٨٤ هـ
٩ اغسطس (آب) ١٩٦٤ م

احمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة



الأدب فن جميل

يخلط بعض الناس بين مفهوم الادب ومدلول الكلام ، ويظنون ان كل كلام تقذفه الافواه الآدمية يعد أدبا ، وبقــدر تأثير هــذا الكلام فيهم تكون قيمة هذا الادب ورفعته واصالته ..

وأكثر من هذا أن من الكاتبين من يظنون أن الادب مايقرأونه في الصحف والكتب وما يسمعونه في الاندية والمجتمــعات من أحاديث وخطب ويحسبون الادب هذا الحشد من الالفــاظ يأخــذ بعضــه بأذيال بعض .

وبهذا الميزان أصبح كثير من الناس أدباء ، وعلى حساب هذا الفن الرفيع أخذوا يكتبون ويذيعون ما يعد الهذر بجانب الكثير منه كلاما معقولا ، لان الهذر معروف أمره وواضح اسمه وبين معناه ، ولا يجوز على النفس ولا تنخدع به المشاعر والاحاسيس ، أمــا ما يصاغ باسم الادب من الكلام الرخيص فانه كالدرهم الزائف يجوز على غير الصيرفي الحاذق ويدخره ويعده رصيدا ، ولا يتبين لــه الا عندما ينقده صيرفي يريه أن ما ظنه صحيحا كــان زائفا وما خاله رصيدا مذخورا ليس الا خسارة وبوارا .

واذا كان كل ما ينشر في الصحف والكتب والدواوين أدبــا فما أرخص الادب وأوضعه ، وما ثم ما هو مبذول لا قيمة له مثــل الفن ، وفي وسع كل انسان أن يكون أديبا ولو كــان فاقد الشعور الادبى والفنى مجردا من الملكات والمواهب جاهلا بالفن اذا استطاع أن يثرثر على الورق وينشر ثرثرته في الصحف والكتب .

ولقد اختلط على الناس حتى المتعلمين منهم أمر الادب ، ولم يستطيعوا التمييز بين ما يمكن أن يسمى أدبا وما يمكن أن يسمى كلاما ، وظنوا أن كل كلام منثور أو منظوم أدب ..

والذى أوقعهم في هذا أنهم ليسوا نقــادا وليسوا من ذواقى

الفنون ذلك التذوق الرفيع ، بل قراء غير موهوبين ، ولهذا يحسبون ما يقرأونه أدبا ، وهؤلاء القوم أخذوا بالتعريف المحدود للادب ولم ينفذوا الى ما يتبطنه كل لفظ من المعاني ، ولم يدركوا ما وراء كل لفظ من المعنى الواسع الذى لا يدرك الا بملكات واعية وشعور فنى راق ، ولم يفهموا أن اللفظ عنوان محدود ضيق لاحاسيس ومشاعر كثيرة وصور ذهنية وشعورية عجيبة ، ولم يفهموا حقيقة هذا التعريف الموضوع للادب وجهلوا أن التعريف ليس تحديدا دقيقا لما وضع له لان هناك ألفاظا ذات معان لا تخضع للتعاريف كل الخضوع ، بل تعتبر التعاريف رمزا يدل عليها مثل الجمال والفن والشعر والادب والعبقرية والحق والعدل وغيرها من أمثال هذه الالفاظ .

ان هذه الكلمات الرمز عالم عظيم وان كان يرى لفظا صغيرا مكونا من أحرف لا نقيم له وزنا ولا نعده رمزا على ما يضيق عنه التعبير والوصف مهما بلغا من القدرة والاعجاز .

ان أقرب مثال يدنى الى الذهن ما ذكرناه حول اللفظ هو « عفريت سليمان » هذا العفريت الذى يضخم ويضخم حتى ليسد الافق ويطول حتى لا تبلغ الجبال طول قدمه ويبسط في الفضاء يده فيحجب السماء كأنه سحاب ، هذا العفريت الطويل العريض الضخم ذو الحيل العجيبة والسحر يدخل بعضه في بعض حتى ليصبح مضغوطا آلاف المرات ، وبذلك يصغر ليأخذ طريقه الى القمقم الصغير يحبس فيه .

التعريفات قمقم هذه الالفاظ ولكن الفاهمين الشاعرين يدركون ان ما في القمقم لو كان على طبيعته لضاق عن اصبعه ويعرفون حقيقة هذا الجرم المضغوط !

ان كل لفظ ينتقل من قبور المعاجم الى مغانى الفن يبعث بعثا جديدا لانه عندما ينتفض ليأخذ مكانه في سمط الفنان يصبح لفظا نابضا بالحياة متفجرا بالقوة والنماء مرموزا به الى حشد حاشد من

المعاني والانفعالات والصور لا يسمح التعبير أن يحيط به مهما أوتي من قوة في البيـــان ٠

ان هؤلاء الذين لا يعرفون معنى الادب حق الفـــهم هم الذين يفهمون من تعريف الادب ما يبعد بهم عن حقيقة الفن ويدني اليهم كل كلام لا يعتد به في عالم الفنون ٠

ان تعريف الادب في أقرب حـالاته هو التعبـير الجميل عـن تجارب الشـعوب بوساطة الكلمات وهؤلاء الذين لا يميزون بـين الادب وغيره يحاجون بأن الادب تعبير بوساطة الكلمات وما يقرأونه كلمات معبر بها عن شعور ٠

هذا مبلغهم من العلم والفهم والشعور ، ولكنهم يجادلون عـلى جهل ، وأكثرهم لا استعداد عنده للمعرفة والفهم ٠

والواقع ان الادب غير ما يفهمون ، فليس ما يقرأونه بأدب لان الجمال في التعبير والتجربة الشعورية والعناصر الاخرى التي يجـب أن تكون في الاثر البياني الذي يعد أدبا لا دخل لهؤلاء في حسابهم ٠

ان الادب ليس كلاما رقيقا ولا ألفاظا ذات رنين بل غير هــذا ، هو فن قبل كل شيء ، ونريد بالفن الفن الرفيع ، لان في الدنيا فنونا غير رفيعة لا حساب لها في ميزان الحقائق الانسانية والشعور ٠

ونحن اذ نقول الفن فانما نريد الفن الرفيع الجميل ، لا ذلك الفن يخرج على عالم الجمال والاحساس ، والفن الذي نريده هــو الفن الذي يكشف عن الجمـال ويعبر عنه تعبـيرا جميـلا يلـذ من يتذوقـــه ويعيـــه ٠

الفن يقصد لنفسه والغاية منه غير الغاية من فن الاعلان مثلا ، لان فن الاعلان تراد به المنفعة أما الفن الاصيل فيراد به الكشف عن الجمال والتعبير عنه وتوسيع نطاق الحياة لا الفائدة المادية ٠

والفن الاصيل يطلق على كل ما عبربه عن تجربة شـــعورية بوساطة من وساطات التعبير الجميل ، فالادب الحق فن لانه تعبـير عن تجربة شعورية ، والرقص فن لانه تعبير بالحركات ، وكذلـك الموسيقى والنحت والرسم ، ولكن لكل من هذه الفنون طريقا للتعبير

والاداء غـــير طريق الآخر ، والجــامعة بينـــها جميـعا التعبـير والجمال والغـــاية .

واذاكان العبقرى من بلغ أرقى مراتب الذهن البشرى وأصبح من المتفردين المرموقين في بنى جنسهم وامتاز بتضخم في العقل وطفح في الاحساس وسمو في المدارك فان الفنان لا يعدو أن يكون عبقريا ، والفنان بعد هذا من بلغ أرقى مراتب الروح الانسانية التى لا يصل اليها الا آحاد من الناس يعبرون عن تجاربهم الشعورية بوساطة من وساطات التعبير الجميل ويكشفون عن الجمال ويقدمون له صورا تحمل سماتهم الخاصة الدالة عليهم ، وما يقدمونه باسم الفن هو الفن حقـــــا ؟

حديث اذيع من راديو مكة المكرمة في ٢٣-٧-١٣٨٣ هـ .

* * *

الادب وبناء الدولة

كل نهضة في الوجود في كل أمة مدينة للادب والادباء ، لان النهضة لا تأتى الا اذا شعر الناس بالحاجة اليها وعملوا من أجلها ، وما يذكى الشعور غير الادباء ، فهم الجنود المجهولون الذين يكسبون النصر ، وهم الذين يصنعون التاريخ والامجاد وينزلون عن حقهم لمن يسمون قادة ، ويلبثون في محاريبهم ويعيشون للادب .

ان الادباء كرماء يهبون حياتهم للناس ولا يجدون في حياتهم ما هم في حاجة اليه ، بل لا يجدون الكلمة الطيبة ومع هذا يبالغون في الكرم لان نفوسهم مطبوعة على الخير والسخاء والبذل وانهم لكالنحلة لا تأكل الا طيبا ولا تنتج الا طيبا ، تأكل الزهر وتنتج العسل .

وان الاديب كالديمة الماطرة تصيب الخصب من الارض والجديب، وانه لكالوردة العطرة يستمتع بشذاها البر والفاجر .

الاديب هو الانسان لانه يعيش بقلب طفل برىء لا يعرف الحقد ولا يضمر البغضاء وتنسيه قطعة صغيرة من الحلوى كل أذى الناس ، وتسعده الكلمة الطيبة ، ويقنع من الحياة بسعادة غيره ، بل يعمل لاسعاد الناس ولو كان في ذلك شقاؤه الاليم .

ومع هذه الخلائق الانسانية الفاضلة تجد الاديب باعث النهضة ـ كل نهضة حتى لا ترى تقدما في أى ميدان الا كان الاديب صاحبه الاصيل أو الدافع اليه دفعا ـ منسيا وغير مقدور .

ان غزو الفضاء ليس مدينا للعلماء ، فقد سبقهم اليه الادباء ، فقصة « ديدالوس » و « ايكاروس » أدب ، وكانت القصة قبل عصر الميلاد ، فالادباء قد ارتادوا « العوالم » بأدبهم ، ومهدوا الطريق لمن بعدهم من العلماء .

وفي هذه الايام انطلقت الكواكب الصناعية من الارض تجوب الفضاء ، وقدر لبعضها ـ وهو أحد الكواكب الامريكية ـ أن يسبح

في الفضاء مائتى سنة ، وقيل : ان بعض الكواكب السماوية نفسها صناعية .

ويسأل سائل : أترى أن انطلاق هذه الكواكب مدين للادب والادباء ؟ ونحن لا نملك من الجواب الا أن نقول : نعم ، انه مدين للادب والادباء ولولاهم ما انطلق كوكب ، وما تحضرت الارض وتمدن الانسان .

ان الضرورات هى الحصة التى يشترك فيها الانسان والحيوان على السواء ، وعندما يسمو عليها يتفرد الانسان ، وكل الضرورات التى نحتاج اليها ولا غنى لنا عنها أصبحت بفضل الشعور الادبى والفنى جميلة ، فالرغيف ضرورة ولكنه أصبح قطعة من الجمال ، فهو في شكل سوار تارة ، وعلى شكل نجمة أو هلال تارة اخرى وهكذا لم يصبح غذاء المعدة وحدها ، بل صار متعة للنظر وبهجة للعين .

فاذا ابتعدت الضرورات بفضل الذوق الادبى والشعور الفنى عن صورتها الحقيقية وأصبحت صورة جمالية فقد عرفنا قيمة الفن في تجميل الحياة .

واذا كان الخبز ملتقى الضرورة والفن فان الكوكب الصناعى مدين للادب والادباء .

لماذا اخترعوا الكواكب الصناعية ؟

ليظهروا بالتفوق ويرودوا المجهول ، ويفيدوا منها في ارباء الاحساس .

وكل هؤلاء وغير هؤلاء مما يقوم على الشعور الادبى ، ولولاه لما انطلق كوكب ، والرغبة في التفوق وارتياد المجهول وارباء الاحساس شعور أدبى لا حيوانى .

وما الادب الا هذا الشعور .

ان كل مصنع من مصانع الذخيرة والسلاح ما قام الا بدفقة من دفقات الشعور ودفعاته ، ومع هذا لا يخلو كل مصنع من هذه المصانع من منبر للخطابة يحث المنتجين على الانتاج ، والعمال على

العمل حتى تشعر الامة بالسيادة •

والجيش في ميدان الحرب ما كان ليخوض غمارها لولا النخوة الدينية أو الوطنية أو أى عاطفة متأججة ، ثم النشيد الحربى وموسيقى الحرب ، وهما أدب وفن •

واقرب ما يقرب الى الذهن أن النهضات مدينة للادب والادباء ، ان النهضة في حد ذاتها تعبير من تعبيرات الشعب ، والادب تعبير ، والادباء هم الذين يعبرون ويهيئون النفوس والاذهان والعقول •

وكل هذا بديهى ، ولكننا نعالج في بلادنا البديهيات لاننا في اول الطريق •

فما نصيب الادب في بناء الدولة •• انه النصيب الاوفى •

وما أدرى ما يسمى هذا العمل ؟ عندما تصبح التفاحة التى زرعناها وتعهدناها ناضجة نلقى بها بعيدا ولا نفيد منها !

مسكين هذا الاديب ، انه كالوردة ـ كما قلت ـ يبهج الناس منظرها ويلذهم عطرها ، ويمتعهم جمالها ، ومع هذا تجد من الناس من يندفع اليها ويقطعها ثم يلقى بها على الارض •

والاديب هذه الوردة •

نشرت في « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ ـ

الأدب كلام
والكلام عبث لا نفع فيه

ابني الاصغر في الشهر الثامن من عمره ، لا تكاد يده تصل الى شيء الا وضعه في فمه : الحلوى والفاكهة والحجر والكتاب سواء عنده ٠

كذلك الذين يدعون الى الاخذ بالمادة واهمال الروح ، لان الامم التى تتحكم في مصائر الامم والشعوب في العالم هى الامم التى تملك من المادة ما لا يحصيه عد ويحتويه ميزان ٠

فهم ينصحون أمتهم أن يأخذوا بالعلم ويتركوا الادب والشعر فالادب كلام والكلام عبث ٠ ويرحم الله زمانه ، أما العلم فهو الذى يسخر المادة ويعين الامة على التبريز والحكم والسلطان، ويمنحها القوة والمجد ، والمادة قوام الحياة والاستقلال ، وكيان الشموخ والكبرياء ٠ أما الفن فملهاة الفارغ ومسلاة الخاوى وألهية الضعيف ، وما سادت الامم العظيمة القوية الا بالسلاح والمادة ٠

وهؤلاء الناس يشبهون طفلى الاصغر الذى لا يميز بين الكمال والضرورة ، وبين الاكل والمتعة والزينة ، بل كل ذلك عنده سواء والحياة لديه معدة ، والدنيا طعام ٠

ولو أدرك هؤلاء الطبيعة الانسانية أو كان لديهم العلم لادركوا أن الحياة ليست من نسيج العلم والمادة وحدهما ، بل هى نسيج الجسم والروح ، والعاطفة العقلية أو العلمية ليست مقطوعة الصلة بالعاطفة الادبية بل تنتمى اليها وتصدر منها ، والفارق بين الحيوان والانسان ليس قائما على الخبز والضرورة ، بل على الاشواق العليا والشعور الانسانى ٠

فاذا وقف انسان جهده كله على الخبز يملأ به بطنه لا شيء غيره فانما يتخلى عن الصفات الانسانية ويحمل لقبا غير لقب الحيوان ، لان الحيوان نفسه لا يجعل قوام الحياة خبزا ، بل لا يطلب الخبز

الا لضرورة تدفعه اليه ، فاذا زالت عاد الى سجيته وفطرته ومرح مع الصباح ، وغازل وقبل وعانق وبذل ما يسعه البذل ليغرى الانثى ويقبل الموت في سبيل الدفاع ويبلغ الوفاء مبلغا لا يدركه الانسان .

أترى كل هذه المعانى والمظاهر خبزا يؤكل أم هى شعور نبيل واحساس طيب يدفع الحيوان الى أبعـــد مـن مراقى الماديين الذين يدعون الى نكران الروح وترك الادب .

أتباع الماديين يدعون هذه الدعوة ، أما الماديون أنفسهم الذين هم أسوة الاتباع فهم يفهمون الحقائق فلا يدعون الى ترك الادب لانهم يعرفون أن الادب أداة السيطرة والاقناع ، وباعث النهضة ، وقوام الحياة ، ولكنهم يطلقون الدعوات الباطلة في عالمنا العربى فيجدون المقلدين الذين لا يعون ، ويلقون الاتباع المتسرعين الجهلاء فيطلبون أن نهـجر الادب الى العـلم ، كـأن بينهـما حجـــازا أو عـداء فلا يلتقيـــان ، وان أحدهمـــا نقيض الآخر فـلا يعيشـــان يومـــا على صعيـد ، وكأنه اذا كان الانســـان أديبا امتنع عليه أن يكون عالما ، أو عالما استحال عليه الادب .

ان الذين يزعمون أن الادب كلام ، والكلام عبث في وقت أصبح فيه قياد القوة والمجد بيد العلم وحده لانه قوام الحياة كلها ولا قوام سواه ، لا يفهمون « أبسط » الحقائق الانسانية والكونية .

انهم يفاضلون بين الادب والعـــلم فيؤثرون العـلم على الادب ويغفلون عن قيمة الكلام وطبيعة النفس البشرية ومزايا الانســـانية لان الحاجة لا تقف على العلم وحده بل عـــلى الادب قبـــل العلم ، فالشعور مخلوق قبل العقل .

وحاجة الامة اليهما معا ، ولعـــل حاجتها الى الادب أكبر من حاجتها الى العلم ، لان البواعث النفسية هى التى تدفعنا الى الاخذ بأســـباب القوة التى لا يتم بناؤها الا عـلى أساس الروح والجسم والحرية والخبز .

والامم التى تبهرنا بقواها الجبارة لم تتخلف في ميدان الادب ، وما من أمة ذات تبريز في العلم ومجـــال القوة الا كان تبريزها في

الادب أقوى وأظهر ، وكان أدبها أقوى الآداب •

والعرب عندما كانوا أقوى الامم طرا كان أدبهم أعظم الآداب الانسانية قاطبة فلما تخلفوا عن ركب الحيـــاة المجد انحدر أدبهم واشتغل أدباؤهم وفنانوهم بالألاعيب التى أجبرت الادب الرفيع على أن ينزوى في الكهوف المظلمة •

انني أستطيع أن أتصور عالما بلا علم الاسلحة والمتفجرات وكل العلوم التطبيقية والتجريبية وغيرها ولكنى لا أستطيع أن أتصــور عالما بلا فن ، لانه حينئذ يستحيل عالما خاويا جامدا لا روح فيه •

والذين يدعون الى نبذ الادب يجهلون أن البواعث النفسية هي طبيعة الكائن الحى وقوام حياته ودعائم نهضاته ، ولسنا بهذا ننفى قيمة العلم أو ندعو الى الاستغناء عنه ، ولكننا لا ندعو الى الاكتفـاء بالفن وقصر حاجتنا عليه واغفال العلم كما يطلب أتباع الماديين الى الاكتفاء بالعلم وقصر الحاجة عليه واغفال الادب لانه كلام ، والكلام عبث لا نفع فيـــه •

ان الامة في حاجة اليهما معا والامة العظيمة هى التى تعـــنى بالادب والعــلم • وهــؤلاء الذين يزعمــون : ان الادب أو الفن بكل فروعه انتهى لان العصر عصر العلم ، عصر الذرة • لا عصر الشـــعر والفنون جهلوا كل شيء • وهم عنـــدما يهزأون من شاعر ينظم في الغزل ويناجى البدر والبلبل ويهوى مطارف الحسن ومطالع الجمال، ويتهمونه بأنه في منعزل عن الحياة الممزوجة بالقوة والسلاح والمادة انما يقدمون الدليل على أنهم جهلوا المـادية نفســـها ، لان المادية في بلادها التى اتخذتها مذهبـــا لم تترك الفنون بل كانت قبل اختراق الفضاء مدينة للبواعث النفسية والاشـــواق التى دفعت بهـــا الى استخدام العقول والعلوم والنظريات الادبية والعلمية حتى تحقـق للامة ما يراد لها من الســيادة والسلطان ، ومـــا زالت الاشواق والمشــاعر والبواعث النفســية تدفـع بهــا دفعــا الى الانتــاج في جميع الحقول والميادين •

ان الشعور بحاجة الامة الى المجد والقوة والسلطان يدفع بكل

جماعاتها الى العـــمل دون أن ينهض فيهــا من يقول : حطموا المنبر وابنوا على أنقاضه المعمل وشيدوا المصنع ، بل جعلوا المنابر أكثر من المصانع والمعامل ، بـل جعــلوا في كـــل مصــنع أو معـــمل عشرات المنـــابر .

وحاجة الناس الى الهواء أكثر من حاجتهم الى رصف الطريق .

والذين يطلبون الى الفنان أن يترك فنه ويتجه الى العمل المادى يجهلون أثر الفنون في المجتمع ، وينسون حقائق غيرت مجرى الحياة وتاريخ الشـعوب ، فرب قصـيدة كـانت أفعـل في الامـــة من مصنع ذخيرة ، ورب خطبة بعثت روح الفداء والتضحية والاستكبار على القوى المادية واجتذبت النصر أكثر من ملايين القنابل .

ويريد هؤلاء السادة من اتباع الماديـــة اذا سمحوا للادب أن يكون أدبا ماديا يخدم العلم والآلات ، وبوقا للدعاية ، وينسون في حماسة الدعوة أن الادب ليس خـادم الزمن وأجير العلم والمجتمع ، ويجهلون أن الادب ليس خادم الزمن وأجير العلم والمجتمع ، ويجهلون أن الادب ليس مما يملى عليه ما يجب أن يقول أو يعمل ، بل الادب حر ، فاذا شاء أن يخدم أو يكون بوقا يدعو للامة أو المجتمع فما ثم ما يمنعه ، ولكن الاملاء مردود ، والا كان صناعة تقوم على الآلة .

وليس مطلوبـــا من الاديب أن يكون صحفيا يدون الاحداث والوقائع ، أو مخترعا يبتكر نوعا من الاسلحة أو كيمياويا أو جنديا فاذا كان أحدهم فليس بملوم .

ومن الذى ينـمى في الامـــة روح العزة ويذكى فيهــا شـعلة الحماسة ويطهر القلوب ويلهب الاحساس ويحرك المشاعر اذا لـــم يكن الادب أو الاديب ؟.

والعربى الذى قال : « والسيف لا يعمل الا في يد بطل » أدرك بفطرته أن القوة المادية مهما بلــغت من الضخـــامة لا تكفى لاحراز النصر ، بل لا بد أن يكون الروح وراء القوة يوجهها ويرسلها ابتغاء النصر ورجاء التمكين ، وليس معنى هذا أن الروح يكتب النصر بدون وسائله التى يملكها أو تملكه .

فالذين يدعون الى الاكتفاء بالمادة والعـلم وترك الادب والفن والروح غفلوا عن ضرورات الحياة ، وضاقت نظرتهم فلم يدركـــوا الحقائق الانسانية التى هى أكبر من العلم والمادة تلك الحقائق التى يتكون نسيجها من الروح والجسم معا ، من المعـنى والمـــادة ، من الكرامة الانسانية والحرية والخبز .

ولا تكون الحياة كلها معدة أو خبزا الا عند طفل كطفل الاصغر الذى لا يفرق بين الحلوى والفاكهة والمتعة والزينة والحجر والجمر ، وطريق كل ذلك الفم ، أما عند غير الطفل الرضيع فلكل سبيل ، والى كـل حـاجة ، ولا تسـتقيم الحيـاة الا اذا اشـــتملت عـلى الروح والمـادة وعـلى الادب والعـلم ، والا لاصبـــح العـلم جثة كالجســد بلا روح ، وما قيمة جسد بلا روح ؟ ؟

نشرت بجريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) .

* * *

أدبنا الحديث

ألدينا أدب حديث ؟

سؤال جدير بان يطيف بى وانا افكر في مقومات أدبنا الحديث ، وجوابه ليس عسيرا على مثلى بعد أن امضيت أكثر من ثلاثين سنة وانا انظم الشعر واكتب وأؤلف واعاشر ما يسمى ادبا في بلادنا وفي العالم العربى ٠

وما أظن جوابى الا أن لدينا أدبا حديثا ، ولكن ما قيمة هذا الادب ؟ وما كيانه ؟ وما حقيقته ؟

كل هذا يجب أن يشغل تفكيرنا عندما نريد أن نبين مقومات هذا الادب ٠

ان وجود أدب حديث لدينا حقيقة لا شك فيها ، وأما أنه اجتمعت له أسباب القوة والنماء فذلك ما لا نستطيع أن نوافق عليه لاننا ما نزال في أول الطريق ٠

ان لدينا أدبا حديثا نشهده في الشعر والنثر ، ولكنه ليس بالكثرة فهو ندرة ، وكل ما تزخر به الصحف والمجلات والكتب ليس من النوع الصحيح اذا استثنينا بعضه اليسير الذى لا يذكر بجانب الكثرة الكاثرة ٠

نحن نقرأ في صحفنا قصصا موضوعة ومقالات وقصائد ومقطوعات ، ولكنى لا اعد أكثرها من الادب بل هو أشبه بالموضوعات الانشائية التي يراد منها التمرين وتغذية الملكات ٠

وقد تسنت لى قراءة عشرات القصص وبعض الروايات ، غير انى لا أستطيع أن أطلق على واحدة منها قصة بالمدلول الادبى والفنى٠

اما الشعر فمثله مثل القصة الا ان لدينا طائفة صالحة لان يعطى قيمة الشعر من ناحية التجربة والشعور والتعبير ٠

وليس معنى هذا ان مكتبتنا خالية من القصة ففيها منه ما يستحق أن يحسب في عداد القصص الفنى الا أنه لا يذكر بالنسبة

الى هذا الانتاج الغزير مما يسميه أصحابه قصة أو رواية .

أمـا النقد الادبى فقد انتهى أمره بعد أن بدأ بداية كان مظنونا منها أنه آخذ طريقه الى الامام .

وكان الامل قويا في بلوغ أدبنا الحديث مبلغا حسنا ، لكن ضآلة المحصول الثقافي وفقدان الاطلاع على الادب العربى القـديم والعكوف على تقليد الضعفاء والانصراف عن « الادب الرفيع » وقلة قراءة الآداب العالمية في مصادرها أو فيما ينقل الى لغتنا العربية أدت الى ضعف مستوانا الادبى ، وزاد في هذا الضعف هبوط الاساليب الكتابية الى العامية المبتذلة الرخيصة من جراء اقتناع أكثر الكتاب بأيسر ما يستطيع ، واقتطاف الثمرة قبـل النضج والاوان جعل أساليب أكثر هؤلاء الكتاب فجـة غير صـالحة للتذوق وتمـلى الروح الجمالية فيهـا .

وأنا لا أشك أن صنـاعة البنـاء قد تأخرت كثيرا ، وأصبحت الكتابة صناعة أكثر منها فنا ومزاجا .

هذا في أيامنا الحاضرة ، أما منذ عشرين سنة فقد كان أدباؤنا يعنون بالجمال والفن في البناء الكتابى ، وكانوا ذوى صبوة صادقة الى الادب ، وكانوا في شغل شاغل بالثقافة العالية ويجهدون أنفسهم من أجل الادب كما يجهـد عمـال المنـاجم أنفسـهم من أجـل الحصول على الذهب .

أولئك كانوا يعشـقون الادب للادب ، لم يتخـذوه سلما الى الرفعة أو طريقا الى الوصول لانهم صبوا الى الادب في وقت كان فيه منكور المقام فاقد القيمة في مجتمعنا الناشىء الصغير .

والفارق بين هؤلاء وغيرهم هو فارق الرغبة في الفن والصبوة الى الادب دون طمع في الفائدة الماديـة التى لـم تكن في حسابهم ، كمؤلف المسرحية البارع الذى لا يتـوخى من تأليـفه اياهـا بذل النصائح والمواعظ والحكم ، فان جاءت في عرض القصة فنعما هى .

ولكنى أعتقد أن أدبنا ليس أدبا هزيلا بالقياس على الآداب العربية في البلدان الشقيقة ، فالادب المصرى في خلال عشر السنوات

الاخيرة هبط مستواه فاذا معاشر من كتابنا يقلدونه فجاء ما ينتجو ركيكا في أسلوبه ضعيفا في محتواه ، آخذا في السعة والانبساط دو_ أن يكون فيه عمق يتفق معهما أو يناسبهما فكان ضحلا فاقد العمق.

وهذا طبيعي ، فتقليد من غزا السوق من الكتاب في مصر ممن لا شخصية لانتاجهم الادبى أدى الى هبوط المستوى عندنا ، ولهـذا نجد الدعوة الصارخة الى « شعبية » الادب ، والادعاء بأنهم انما يكتبون للشعب الذى لا يفهم الاساليب العالية .

هذا ما يدعو اليه كتاب كثيرون في مصر باستثناء القليل ، وهم يقومون بهذه الدعوة لانهم لا يملكون الا هذا النوع من البضاعة الرخيصة المزجاة .

وهؤلاء ليسوا مخيرين في انتهاج هذا الاسلوب الركيك الذى لا يخلو من البريق الزائف لانهم لا يطيقون سواه .

أما اذا كانوا يملكون الاسلوب العالى ويملكون بجانبه الاسلوب الركيك لقام لهم بعض العذر الذى يشفع للانحدار ، أما وهم لا يستطيعون فتلك دعوى مردودة وعذر غير مقبول .

والادب المصرى في هذه الايام ـ باستثناء اليسير منه ـ ليس أدبا رفيعا ، لانه خلو من التجارب الشعورية الصادقة الموحية ، وعاطل من الجمال والفن ، وشرط الادب أن يكون الجمال والصدق أهم أسسه وعناصره .

وكل كتاب العالم العظماء المبرزين يمتازون بجمال الاسلوب ورفعته الى جانب قوة الفكرة وجمال المضمون ، وان جمال الفكرة يجب أن يتكافأ معه جمال الاسلوب .

وأدبنا العربى في البلاد السعودية أوذى أشد الاذى بتقليد كتاب مصر الصغار الضعفاء المبتذلين المحرومين من الذوق الرفيع ، هؤلاء الكتاب الذين أتيحت لهم فرصة البروز لانهم تمكنوا من السيطرة على وسائل النشر المختلفة وتلبية رغبات من يدفع بهم الى الهتاف باسمه والتصفيق له .

ولو سلم كتابنا من اقتفاء آثار الضعفاء في الاسلوب وفي الافكار

لتخلصوا مما يؤخذ عليهم ٠

ومقومات أدبنا الحديث هى مقومات كل أدب ، لان الفنون جميعها وفي فصولها الاولى تنبعث من ينابيع واحدة ومتشابهة ، ثم تختلف بعد أن تفارق المنبع الى المجرى ، وتصاغ بحسب هوى الكتاب وبيئاتهم ونصيب مجتمعهم من الضعف أو القوة ٠

الا أن المقومات التى نشهدها في أدبنا الحديث ليست بالمقومات التى تبنى عليها الآداب الصحيحة ، فمقوماته الحاضرة ليست بذات قيمة أصيلة تجعل للادب شأنا في مجال الحياة والوجود ، وما كان من هذا الادب أدبا حقا لم يستوعب المقومات الا بقدر ضئيل ، بل ليس استيعابا ولكنه المام أدى الى أن نتعثر في الطريق ، وفقدنا في الميدان الادبى جنودا مخلصين كان يرجى منهم الخير ٠

وفي نظرى ان أولى المقومات : الحرية : حرية الفكر ، وحرية الشعور ، فاذا كانت الحرية لونا من الجمال لانه انطلاق من القيود كالجمال الذى هو انطلاق من قيود المادة والضرورة اذ تطلق لمن يتملاه عقال شعوره وتأمله واحساسه فيلذ بالمتعة الفنية التى يتيحها له الجمال ٠

فحرية الفكر أن ينطلق الفكر نفسه حتى يكون قادرا على التصرف والتصريف ، وحرية الشعور أن يكون قادرا على التلقى والانفعال ، وعندما تلتقى حرية الفكر وحرية الشعر نجد الادب قادرا على التعبير الجميل الصادق عن تجاربه الشعورية وخواطره التى تتأثر بما في خارج النفس وداخلها ٠

وبقدر نصيب الامة والادب أو الانسان من الحرية يكون نصيبه من الرفعة ٠

ونحن لا نكذب على أنفسنا وعلى التاريخ فنزعم أننا نتمتع بهذا الحق الطبيعى ، وليس اللوم على الجهة الحاكمة ، لان حرية الفكر والشعور مما لا سيطرة لها عليه ، ولا يستطيع أحد أن يسلبه من صاحبه ، أما حرية النشر فشىء آخر ٠

أستطيع أن أفكر كما أشاء وأشعر كما أريد ، وأكتب دون أن

أخشى رقيبا ، وأدون خواطرى وتجاربى الشعورية بأسلوبى وكما يحلو لى ، ولــكن النشر مسألة اخرى ، يخضع للقوانـين والعرف والتقوى في بعض الاحيان ٠

فالدين لم يكن يمنع شعر الغزل من أن يقوله الشعراء ، ولم يمنع المتدينين الصالحين من الاصغاء الى قصائدهم الجنسيةالمكشوفة، بل كان المعروفون بالغيرة عـلى الدين يروون شــعر المجون ، وابن عباس رضى الله عنه ـ حبر الامة الاسلامية وأحد الاصفياء الاتقياء ـ كان يلذ من سماع شعر ابن ابى ربيعة ، ويروى شعر المجون الذى يتورع في هذه الايام اشد الناس خلاعة ومجونا عن روايته في مجالس العبادة والعلم وفي المشاعر المقدسة والمسجد الحرام ٠

بل ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم انه اصغى الى شعر الغزل وأجاز عليه ، فقصيدة كعب بن زهير التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

هى في مدح الرسول عليه صلوات الله وســلامه ، ولكن في مقدمة القصيدة أبيات غزلية ، حتى أن الشاعر يشبب بحبيبته ويصفهـا بكبر العجز وثقل الردف دون أن يثير سخط اشــد بنى الانسانية غيرة على الاخلاق والفضيلة ، وذلك هو محمد عليه الصلاة والسلام٠

وهل نستطيع ـ الآن ـ ان نروى شعر الخلاعة والمجون الذى كان يرويه ابن عباس ؟

كلا ، لا نستطيع ، لان الحرية التى تبعث على التسامح والرضا مفقودة ٠ والحرية اول عامل من عوامل نهضة الادب ، وهــو أول مقوماته ، والادب لا يبلغ شأوه ولا يستطاع تقديمه بغير الحرية ولا أقصد بالحرية ان يكون في مستطاع الاديب ان يكتب ادب الجنس المكشوف القائم على الغريزة واشـعالها ، فهـذه ليست من الحرية ، لان للحرية حدودا وقيودا انسانية واجتماعيـة ، وأقرب ما يــلازم الحرية هو الشعور بالتبعة وما كان قط من الحرية الانسانية في شىء تملق الغرائز واشعال نـيرانها حتى لا تنطفىء الا بوساطة اللـــذة الحيوانيـــــة ٠

ان هــذه الحرية نقيض الحرية الانسانية لانها لا تضـــع في حسابها المسئولية فهى انطلاقة حيوانية ، وانها لأشبه بحرية امرأة تعرى جسدها لاثارة الشهوات التى تهبط بالمشاعر الى دنيا الحيوان وتسرح فيها معه .

ان أى امرأة جميلة تستطيع أن تصنع ذلك ، وتجد آلافا وآلافا من النظـار يلتهمونهـا التهاما ، ويتمـنون أن لو أتيـح لهم منـها لحظات المتعة الحيوانية .

اما هذه المرأة التى تثير الناس أو تثير فيهم غرائزهم وتشعل شهواتهم حتى ليتنزون رغبة في جسدها فليست بفنانة وماهم بفنانين، لان الفن في أدنى منازله ـ وفي أعلى مراتبه ـ تنمية الذوق الجميل وامتاعه وتربية الحس النظيف وامداده بما يغذيه ، اما ايقاد الغرائز ـ لاغير الغرائز ـ فهو ليس من عمل الفنان الذى يمتاز عن سائر أصحاب المواهب والعبقريات ، لان كل امرأة صاحبة جسم جميل تسـتطيع ان تصنع ذلك ، وما ادب السرير بالادب لانه ليس بالامتياز الـذى يقف عـلى عبقرى موهوب ، بل شـائع عند الحيوان والانسان على السواء ، والادب امتياز في المواهب وطفح في الشعور وجمال فيالتعبير لا يتاح الا للموهوبين الاعلياء .

ولست بهذا ادخل قواعد الاخلاق في الفن لاننى أعـــرف ان هناك شعراء هجوا وصـــوروا الادب المكشوف ، ونظموا قصائد في وصف ما استتر من الاعضاء كالنابغة في وصفه المتجردة وابن الرومى في هجائه المقذع ، ومع هذا أسلكها في سمط الادب ، اذ لا يمنعنى علم الاخـــلاق وقواعده وأصـوله من وضع ذلك الانتـاج الفنى في محاريب الادب .

والسبب أن هجاء ابن الرومى وأدب النابغة المكشوف في وصف المتجردة وأدب بشار وابن ابى ربيعة انمـا كل ذلك وثيـق الصلة بالفن لان له قيمته الشعورية وقيمته التعبيرية ولم يريدوا أن يقوموا بدور المرأة التى تعرى جسدها الخالب لاثارة الشهوة ، ولم يقم ابن الرومى بدور المرأة التى تتقن « الردح » البـلدى ، بل كانوا جميعا

فنانين يصورون الحياة ويعبرون عما تجيش به نفوسهم ولا دخل للاخلاق في الفنون ، فهجاء ابن الرومي المقذع يناقض الاخلاق ولكنه من العمل الادبي والفني لانه تعبير جميل عن احساس صادق وتجربة من تجارب الشعور ٠

ولعل سائلا يسأل : اين القيم في هذا الهجاء المقذع ؟ وقبل ان نجيب نقول : ان هجاء ابن الرومي ادب لانقوامه الحرية والجمال والتجربة والشعور والتعبير ، وأما الجواب ، فهو أن هذا الهجاء يحوى قيمة تعبيرية وقيمة شعورية ، ويجوز ان نزعم ان فيه قيما أخلاقية تكمن أو تتجلى في تصوير النقائص والعيوب فيمن يهجوه وابرازها حتى ينفر منها ٠

ان ابن الرومي في هجائه يصور النقائص ويزرى بها حتى يظهر نقيضها وهو الكمال المشيد له نصب الاعجاب ٠

والقيمة التعبيرية هي الشيء المطلوب من الادب أو الاديب ، وكل أثر أدبي يوزن بقيمته التعبيرية وقيمته الشعورية معا ، ولا تكون هذه القيمة ذات وزن وثقل الا اذا كانت الحرية قوام ذلك الاثر الادبي ٠

واذا قلت : الحرية ، فقد ذكرت المقومات الأخر اللائى يجئن بعدها أو مقرونات بها ، فاذا وجدت الحرية وجدت سائر المقومات فاذا قلت : جمال الاسلوب من المقومات قلنا : هذا حق ، ولكن الحرية يجب ان تسبقه ، لان جمال الاسلوب غير متاح للاديب الا بعد الحرية ٠

ويجب ان نفهم الحرية على انها التبعة ، وعلى انها في الفنون انطلاق المواهب الفنية في الانسان حتى يستطيع ان يضمن الحرية والجمال في تعبيره ٠

ومقياس الادب الصحيح أن يكون صادقا في الاحساس صادقا في التعبير ، دون النظر الى الاخلاق ومتى وجدنا احساسا وتعبيرا جميلين فذلكما الادب ٠

الحرية من حق الادباء ، أما الذين يثيرون الشهوات ويتملقونها فهم بعيدون عن الادب ، وأعيذ حرم الادب ان يدنس بأدب السرير وفعلات الرمازات اللاتى كل غايتهن التكسب ٠

فالحرية قوام الادب ، ومتى كان الادباء ذوى امتياز في المواهب والاحساس كان ما ينتجون ادبا صحيحا ، ثم ان الادب الصحيح يقوم على القيم الانسانية التى لا تخضع لقيود الزمان والمكان ، بل يسمو عليها ويتجدد على مر الايام •

والتقليد يعطل الحرية ، والتقليد طابع ادبنا ، حتى أصبح الادب العربى الحديث في العالم العربى كله ادبا مفقود الشخصية لانه لا اثر للبيئة فيه ، ولان ادب مكة يصلح ان يكون ادب بيروت أو دمشق •

وادباؤنا وادباء العالم العربى يقبلون على مذهب من المذاهب قد لا يفهمونه ويجهلون اصوله وجوهره ، يقبلون على المذهب ويتخذونه دينا ، ويستعيرون مصطلحاته وتراكيبه المترجمة التى لا تتفق مع اسلوب العربية ، ويحسبون انهم جاءوا بجديد وما هو في الواقع الا تقليد التجديد ، وهو ـ بعد ـ تقليد مسف أعمى •

ان أدبنا الحديث ـ الا النادر ـ أدب مفقود الشخصية والسمات بسبب فقدانه الحرية والصدق الفنى والتجربة الناضجة والابداع وبسبب التقليد •

وهذا النادر المستثنى يتجلى في أدب المقالة أكثر منه في الشعر والقصة ، وأنا مطمئن الى أن أدبنا لن يتخلف عن آداب الامم العربية كثيرا في أدب المقالة والشعر ، وان كان تخلفه عنها في القصة واضحا مشهودا ، وأكاد أجزم بأن ألوانا من أدبنا تفوق أمثالها في آداب الامم العربية في هذه الايام ، لان هذه الآداب لا تمثل الروح العربية الصحيحة •

وأدبنا أكثر حرية في بعض جوانبه من تلك الآداب المستعبدة التى يعبر أصحابها عما يملى عليهم من خدمة بعض المذاهب الاجتماعية املاء ، فيظنون الهجوم على الدين والقيم الاخلاقية وتمجيد القوة العضلية والهتاف باسم الخبز والارض حرية وأدبا ، وهم ـ بعد ـ ما كانوا يزاولون الادب الرخيص لولا أنه وسيلة من وسائل كسب العيش ، فهو « حرفة » لا مزاج ، وآلة لا موهبة ، وعبودية لا حرية •

ولو وجد أدبنا الحرية الحق لكان له أن ينهض ويسير قدما ،

واذا استطاع أدباؤنا أن يعمقوا ثقافتهم ويوسعوا نطاق اطلاعهم على الآداب والفنون لا رغبة في كسب مادى يحصلون عليه ، بل اشباعا لرغبة فنية وارواء لظمأ المزاج الفنى ، واذا تضلعوا من لغتهم وزودوا أنفسهم بثقافات انسانية متعددة الجوانب لوسعهم أن ينهضوا بأدبنا الحديث .

وخلاصة القول بعد ما قدمنا ان مقومات أدبنا الحديث يجب أن تكون الحرية قبل كل شيء ، الحرية التى لا تخرج عن حد الانسانية القوام ، ثم الصدق الفنى الذى يتجلى في صدق الشعور وصدق التجربة وصدق التعبير ، وألا نسخر الادب لخدمة مذهب من المذاهب بحيث يكون له عبدا ، لان في هذا التسخير قضاء على الحرية التى نطلبها للادب وللاديب ، ومتى قضى على الحرية انقلب الاديب عبدا وصار أدبه مما لا يضيف الى الانسانية غير الخزى .

ويجب علينا ألا نرضى لادبنا الا أن يكون أدبا حرا ، أدبا انسانيا ، أدبا يعبر عن مجتمعنا وواقعنا بكل ما فيهما من خير وشر ، وجمال وقبح ، فاذا وسعه ذلك توافرت له المقومات التى تحفظ كيانه .

وأنا مطمئن الى أننا في « دور » التصفية والغربلة ، وفي حالة المشرد الضائع الذى يبحث عن مأوى يستقر فيه ، ومتى انتهت التصفية والغربلة ، ووسع المشرد الضائع العثور على مأوى ، يبدأ أدبنا الحديث في اثبات وجوده ، ومد ظلاله الى مسافات بعيدة ؟

نشرت في « عكاظ » سنة ١٣٨٣ (١٩٦٤ م)

البرج العاجى

أيوجد حقيقة برج عاجى في عالم الادب وفي عالم الفنون ؟

يجيب كثير من الكتاب أن البرج العاجى موجود ، فهم يذكرونه ويشيرون اليه ويهزأون بمن فيه •

والفنون جميعها أداة تعبير وجمال ، ولا قيمة للتعبير اذا لم يكن القصد منه أن ينتقل الاحساس الى غير صاحبه ، والجمال يفقد أثره اذا لم يجد من يلذ به ويستمتع •

والادب احساس فردى يعبر عنه لغيره ، وأداته اللغة ، وما وجدت اللغة الانسانية ليتحدث بها الفرد مع نفسه ، ولهذا كانت ظاهرة اجتماعية ، بل هى ابرز الظاهرات الاجتماعية بدون استثناء•

وما دامت وسيلة التعبير اللغة فليس هناك ما يلام عليهالاديب اذا عاش في برج عاجى •

وكل الذين كتبوا في بلادنا لم يحددوا مفهوم البرج العاجى في أذهانهم ، وان كان من غير كتابنا من زعموا أنه الفن للفن ، وأصحابه الذين انفصلوا عن المجتمع لانهم يعيشون مع الزهور والقمر وخدور النجوم ، ولا ينفعلون مع البيئة التى تكدح في سبيل لقمة العيش ، ولا يعاشرون الكادحين ، ولا يكتبون في الخبز وما يلقى الشعب في سبيل الحصول عليه من جهد وارهاق ، وكثير لا يحصلون على ضروراتهم منه ، ويحيون مترفعين الخ •

والفن يجب ألا يكون الا للفن قبل كل شيء ، والا فقد الفن رسالته ، وتسخير الفن لخدمة المذاهب الاجتماعية يفقده أصالته ولهذا لم نجد في الدول الشيوعية التى تسخر الفنون جميعها لخدمة المذهب ، أديبا ارتفع الى قمة الانسانية في فنه باستثناء « باسترناك » الكاتب الشيوعى القصاص •

وباسترناك لم يرتفع في قصته « الدكتور زيفاجو » الا لانه

استطاع أن يتخلص من ربقة استعباد المذهب اياه ، ولهذا تنكرت له الشيوعية وحاربت قصته المشهورة .

والفن للفن ليس مجردا عن الخدمة ، ولكنها ليست هى التى توجد الفن أو توجهه أو تأسره ليخدمها وهو مسخر لا حرية له ، فاذا قرأنا قصة مثل « الزنابق الحمر » لطاغور أو « تاجر البندقية » لشكسبير أو « المفتش » لجوجول وجدنا فنا رائعا ، ولكنه يخدم الانسان والمجتمع لانه صور ما يجب أن يبتعد الانسان عنه وما يجب أن يتمسك به من مثل وأخلاق وقيم انسانية .

والذى يرفع هذه القصص الى قمة الفن للفن ان مؤلفيها لم يسخروا أدبهم لخدمة مذهب بل أرادوا تصوير الحياة في واقعها وفيما يجب أن تكون عليه ، ولم تجيء خدمة المجتمع المادية أساسا بل عرضا ، فخلا فنهم من مذمة السخرة والتوجيه لخدمة مذهب من المذاهب .

وليس في الارض أديب أو فنان حق يقال عنه أنه يعيش في برج عاجى في مقام الذم والانتقاص لان البرج العاجى نفسه من المجتمع الانسانى ، وليس الحياة كلها خبزا ولا سفوحا وأكواخا .

ثم اذا كان كل فنان على وجه الارض عبدا للخبز يشيد به فانه ممالا شك فيه أننا نفقد الفنان في حياتنا .

ونحن نقرأ صحفنا فاذا هى كلها للخبز والمادة ، ونصيب الفن نادر ، واذا جئنا نحسب وجدنا نصيب الفن لا تزيد نسبته عن واحد الى عشرة أو عشرين .

ثم اذا نظم الشاعر في الزهر أو البدر فما هو بعائش في البرج العاجى لان الزهر والقمر من المجتمع والحياة .

وعلى أى حال لا يجب على الفنان الذى يكتب قصة عن المجتمع أو عن العمال ـ مثلا ـ أن يعيش مع العمال وفي بيئتهم ليحس احساسهم والا لوجب ألا يكتب عن المرأة رجل لانه لا يستطيع أن يحيا حياتها ، والا لوجب من يريد أن يكتب قصة في « اللصوص » أن يكون لصا ، وعلى القاضى الذى يحكم على المجرمين أن يعيش معيشتهم ويعمل عملهم !

ان كتابنا الذين يشيرون الى البرج العاجى والى الادباء الذين يعيشون فيه لم يستطيعوا أن يظهروا لنا مفهومهم عن هذا البرج ولا معنـــاه لديهم .

وتجد من هؤلاء الكتاب سخطا عارما يصبونه على أدباء البرج العاجى ويعيرونهم بأن الناس غزوا الفضاء وقهروا الجو وذهبوا في السماء صعدا وعربدوا بين الكواكب تحديا واستطلاعا ، ويطلبون اليهم أن يتأسوا بهؤلاء الغزاة .

وهؤلاء الكتاب مصابون بأمراض خطيرة ، منها الوهم ، وجهل الحقائق ، و « طرطشة » العاطفة والهوس ، والا ما عيروا سواهم بما هم فيه شركاء ، فهم لم يغزوا الفضاء ولم يصعدوا الى السماء ، وما يزالون أقل من سواهم ممن يعيرونهم قدرة وكفاية وصلاحا .

ثم كم رجلا وامرأة غزوا الفضاء ؟ وكم دولة صنعت ذلك ؟

ان أرقى أمم الارض التى تفوق روسيا - مثلا - في الحضارة والمدنية لم تغز الفضاء فلم يكن ذلك سبة لها وشنارا عليها فلماذا يقوم هؤلاء الكتاب بشتم أممهم وشعوبهم لانهم لم يكونوا كروسيا وأمريكا في غزو الفضاء ؟

وان هؤلاء الكاتبين يجهلون « حتمية » قيام المجتمع وأسسه وتكوينه وحقيقته لانهم يطلبون الى كل صاحب قلم أن يكتب فيما يشغل الناس من أمر الخبز وما يشبهه ، ولو أجابوهم لفقد المجتمع مزيته وبعض أسباب قيامه عندما يفقد التنويع والاختلاف ومطالب الروح وأشواق الحياة العليا .

ماذا يكون حال البـلد لو أن كـل النجـارين اتجهوا لصنع الكراسى وحدهـــا ؟

ان أحدا لا يطلب اليهم ذلك ولا يطلب الى الاطباء جميعـا أن يتعلموا من الطب فنا واحدا ويخدموا في حقل واحد ، فلماذا يطلب الى الادباء جميعا أن يعيشوا للخبز وحده .

ليس بالخبز - وحده - يحيا الانسان كما يروى عن المسيح صلوت الله وسلامه عليه .

ان اختلاف أصابع العازف العليم على قيثارته يعطيك لحنا ، وكذلك اختلاف ابناء المجتمع الواحـد في اعمـالهم واقوالهـم يؤلف وحدة المجتمع الذى يعاب اذا لم يكن فيه هذا الاختلاف .

وان الرغبة في الرخاء المادى يجب ألا يشغلنا عن العمل مــن اجل الرخاء الروحى ، فالبرج العاجى ضرورة في المجتمع الانسانى ، لانه جزء منه ، ومتى يفقد المجتمع هذا البرج فانه يعود الى حيـاة شبيهة بحياة الحيوان ، ونعوذ بالله من العودة الى الوراء بعد ان تقدمت الانســانية وعرفت قيمـة الجــمال والفن ، وعرفت قيمة الاحساس بالحياة التى تتسع للخبز ولغير الخبز من مطالب الجسد واشــواق الروح ؟

نشرت في « الندوة » سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م)

* * *

كلام في الأدب

كان الادب العربى في الجاهلية مرعيا من الحكام والمحكومين على السواء ، لانهم كانوا جميعا ذوى ذوق سليم يتفاوت بين الاعلياء والسوقة تفاوتا ليس ذا خطر ، ومع هذا التفاوت كانوا يقدرون الادب حق قـــدره .

وكان الامر كذلك في صدر الاسلام ثم انتقلت رعاية الادب الى الاعلياء (الارستقراطيين) .

ولئن كان هذا الادب مؤخذا في أيامنا هذه أنه كان مديحـــا لافراد وأسر فاننا نجد أن أدب المديح الذى يكاد يكون أكثر الشعر العربى كان أدبا رائعا جميلا ، اجتمعت له أسباب الروعة والحسن والجمال ، ولان الممدوحين كانوا من أعلى الناس ثقافة وأحسنهم ذوقا وفهما ، فكانوا لا يطربون الا لما كان موصوفا بالامتياز والرفعة ولا يرضون الا عن الشعر الرفيع .

وكتب الادب تقص القصص التى تثبت سمو ذوق الخلفـــاء والوزراء وأعلياء الامة ، وتذكر لنا لطف احساسهم وسلامة ذوقهم ، اذ كـانوا ينقدون الشعر نقدا يدل عـلى أنهم كانوا ذوى بصر ثاقب بوجود الكمال ومواضـع النقص ممـا اضطر الشـــعراء الى تجديد الاساليب وأحكامهـا ، ودقـــة التصـوير ، وتعمـــيق المعـنى ، وتوثيق التركيب .

كان شعراء الجاهلية مداحين،وكان يصغى الىشعرهمممدوحون ذوو ذوق وفهم ، وذواقون يمتازون بما امتاز به المدوحون ، فكان الشعراء مجبرين على التجديد أسلوبا ومعنى ، وكذلك في العصـور التى رعى الادب فيها أصحاب الامتياز الفنى والعقلى والمادى ، فكان هؤلاء الشـــعراء الفحـــول .

وشعرنا الحديث فقد جلال المعنى واللفظ لان أصحابه فقراء في الاحساس فقرهم في الالفاظ ، وأقصد بشعرنا الحديث هذا الشعر

الذى ينظمـــه شـــعراء مبتدئون يتشـــدقون بأنهم ترفعوا عـــن المديح وســـموا فوقـــه ٠

وهؤلاء يزعمون أنهم « يتفاعلون » مع الشعب فيمدحونه ٠

وأمر هؤلاء وأولئك سيان ، كلهم مداح ، والفرق أن القدامى كانوا يمدحون أصحاب امتياز في الذوق والثقافة والشعور الفنى ، فهم مجبرون على أن يكون شعرهم رفيعـــا ساميا ، أما الجدد فهم يمدحون عامة لا يمتازون بذوق جميل سليم ، ولا شعور راق مهذب ولا لغة عالية ، فهم يثرثرون بكلام قد يكون منظوما وقد ينطلق من قيود النظم لعجز فيهم يسترونه بالدعاوى العريضة ٠

ثم ان الجـــدد لم يستطيعوا أن يتركوا مديح « الاشخاص » ولو جمع كل ما نظم وقيل في باب المديح في هذه الايام لاربى عـلى كل عصور الادب العربى القديم مجتمعات ٠

والشعر الجديد الذى تدفق في بضع السنوات الاخيرة مفقود الشخصية ، فقصيدة شاعر في مكة أو صحراء نجد من هذا النمط الجديد هى نفسها تصلح لان تنسب لشاعر بدمشق أو القـــاهرة أو عمـــان أو بغـــداد ٠

الشعر الجديد كالعمـــلة الورقية التى لا رصيد لها ، ثم هو كهذه العملة ، كل ورقة ككل ورقة في السمات وفي الشكل والزخرف والخطوط والقيـــمة ٠

وكل هؤلاء الشعراء الذين يصفون أنفسهم بأنهم جدد ليسوا من ذوى الكفايات في الثقافة واللغة والشعور والذوق ، وهم بعـد ليسوا من الاعلياء فيزعمون أنهم من الشعب وللشعب ، كأن غيرهم من المجودين الاعلياء ليسوا من الشعب ٠

فأكثر الحماقات ترتكب باسم الشعب ، وشرها ما يشبه اطلاق الثور في مستودع الخزف ، وما في الانسانية شر أفظع من افســاد الشعور وهوان الذوق وتملق العامة الرعـــاع ورفع شـــأن الردىء والهتاف باسم السقيم المرذول ٠

لقد اختلت الموازين واضطربت المقـــاييس في بضع السنوات الاخيرة من جراء المذاهب الهدامة التى تريد هدم الفصحى باستبدال

العامية بها ، وتريد القضاء على الامتياز الخلقي والمعنوي والمـــادي حتى تستطيع أن تهدم القيم الانســـانية والدين والفضيلة ليسمها الحكم « الجماهيري » الذي يحيل بني الانسان قطيعا لا ارادة له ؟

نشرت في « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣ م)

* * *

أسئلة أدبية

تلقيت من الاديب الفاضل عبد العزيز بن محمـــد بن خليفة بالرياض رسالة جاء فيها :

« لشد ما سرني وأعجبني أن يتحقق ذلك الحـــلم ، ألا وهو صدور « عكاظ » الجريدة الادبية الممتازة التي يفخر بها كل سعودي لانهـــا تضـــارع أكبر صحـــف الشرق الاوســـط اخراجـــا وتبويبا وطبـــاعة ومـــادة .

« وان ما تحتويه عكاظ من مقالات تمثل الادب الرفيع يجعل القراء شديدي الحرص على أعدادها التي لا ترمى عقب قراءتها ، بل تحفظ وتصان كما تصان الذخائر والكنوز لأن بها زادا أدبيا وثقافيا يصلح لان يكون مرجعا دائما .

« وان لدى بضعة أسئلة ارجو الجواب عليها وهي :

١ ـ ما الكتب التي تنصحون شبابنا بقراءتها والافادة منها ؟

٢ ـ ما أحب الكتب الادبية الى نفسك ؟

٣ ـ من الاديب الذي تأثرت بأدبه وأسلوبه ؟

٤ ـ من كاتب العربية في نظرك ؟ العقاد أم غيره ؟

٥ ـ ما مؤلفاتك المطبوعة ؟ » .

هذا ما جاء في رسالة الاديب الفاضل ، وأنا أشكر له ما وجه الى « عكاظ » من عبارات التكريم وما سخا به علي من التقدير ، وأرجو ان اكون أنا وعكاظ عند حسن ظنه .

أما الجواب على أسئلته الخمسة فالخصة في الكلمة الآتية :

عند ما بدأت محاولاتي في الادب ما كنت اتخير ما اقرأ ، بـــل كنت نهما أقرأ ما تصل اليه يدي ، ولعل من قراءاتي الاولى : كتب المنفلوطي (النظرات ، والعبرات، وماجدولين، والشاعر، والفضيلة، وفي سبيل التاج) وكتب الرافعي (حـــديث القمر ، وأوراق الورد

وتحت راية القرآن ، والسحاب الاحمر) وبعض كتب العقاد وطه والمازنى والزيات وهيكل وغيرهم •

وكنت أقرأ مجلات تلك الايام كالهلال والمقتطف والرسالة والجرائد اليومية التى كانت تحرص على الادب حرص صحف اليوم على أخبار الجرائم وقصص الممثلات •

وما أستطيع أن انصح شباب هذه الايام بلون خاص من الكتب ، لأن الزام الشباب بلون خاص حرمان لطاقته من الانطلاق ، ولعل تجاربى في القراءة تلقى ضوءا على الجواب الذى أريده •

اننى قلت في جواب لى على سؤال كسؤال الاديب الفاضل نشرته جريدة المدينة المنورة منذ سنة : ان كيانى المادى لا يدين في صحته وحيويته وبقائه ونمائه للون واحد من الطعام أو الشراب ، بل كل انواع الطعام والشراب أقامت كيانى المادى ، ولا فرق في بناء الجسم بين ماغلا ثمنا أو رخص ، فكما يدين للحم يدين للجرجير وكما يدين في الشراب لعصير « الانبة » يدين للماء القراح ، وهكذا•

ووجودى الادبى يدين لقراءة الكلمة المكتوبة فيأى موضوع من الموضوعات ، ولكن ليس معنى هذا ان الانسان محدود العلموالتفكير يستطيع أن يتنقل في القمم العليا بجناحين لم يقويا على التحليق البعيد •

ان المبتدىء يختار الموضوعات التى تعجبه والتى لا يعصى عليه فهمها ، فهو يقرأ ما يسهل عليه وعبه وفهمه ، فاذا انتهى الى ما كان أكبر من عقله وعلمه ينصرف عنه بطبيعته •

غير ان نصحى للشباب أن يقرأوا مثل كتب المنفلوطى ، فهى سهلة الفهم ، وتمتاز بأنها تعين الملكة الفنية في الشباب ، وتجعله يستطيب معاشرة الاساليب العالية والبيان الرفيع •

كما أن القصص والروايات تنمى خياله وتعوده الابتكار •

وكل ما أستطيع أن أقوله للشباب : اقرأ ما تفهم وتستطيب واستبعد كتب المجون التى يراد منها قذف الشباب الى الانحلاف مثل كتب « احسان روز اليوسف » وأمثاله ، وكتب الشيوعيين التى تحرص على الزيف والباطل والكفر والفساد •

اقرأ كل شيء تستطيعه الا ما كان باعثا على الحرام •

أما « أحب الكتب الى نفسي » فهي الكتب التي يتوفر لها الامتياز العقلي والفني والجمالي ، وأنا ـ الآن ـ لا أستطيع أن أقرأ كل كتاب كما كنت أقرأ قبل خمس عشرة سنة بل أنتقي ما أقرأ لأن ما أملكه من الزمن يسير ، فلو أردت أن اقرأ كل شيء لفاتني الاطلاع على الكتب الثمينة الممتازة •

كنت ـ قبل عكاظ ـ اقرأ أربع عشرة ساعة ، ومع ذلك أشكو الفاقة في الزمن ، ولهذا لا استطيع أن أقرأ الا الكتاب الرفيع ، كما أن هناك اسبابا منها : أن المطبعة العربية تقذف كل يوم بعشرات الكتب في موضوعات مختلفة ، واكثر الكتب ـ سواء أكانوا مؤلفين أم مترجمين أم مقتبسين ـ لا يفهمون الموضوع ولا يحسنون الكتابة ولا يملكون البيان الحر ، وهم ضعفاء في العربية كل الضعف ، ومن كان ضعيفا في لغته التي درج عليها ونشأ كان خليقا بالضعف في غيرها •

ان المعود لا يستطيع هضم الغذاء الدسم ، فهو يطلب ماكان سهلا ، وكذلك قراء هذه الايام الا القليل ، وفي هؤلاء القراء من يؤثرون أحمد بهاء الدين على العقاد ، مع أن بهاء الدين وأمثاله من الكتاب المنحرفين الماركسيين لا يساوون في ميزان الفكر شيئا •

أما « الاديب الذى تاثرت به » فليس واحدا ، فكما أن كياني المادي لا يستطيع أن يدين لنوع معين من الغذاء فكذلك كياني الادبي الذي يدين لغير واحد من الادباء ، غير ان الحق يدفعني الى أن أذكر ان العقاد هو الكاتب العربي الفاذ الذى تأثرت به كثيرا •

والعقاد ـ في نظري ـ هو كاتب العربية في هذا العصر ، لأن كتبه التي تجاوزت السبعين خلاصة الثقافة الانسانية ، وهو نفسه موسوعة ضخمة تتضاءل بجانبها الموسوعات الآدمية الكبيرة •

أما مؤلفاتي المطبوعة فهي :

١ ـ كتابي ، وقد طبع سنة ١٣٥٤ هـ وهو يضم مقالات في الادب والفلسفة واللغة والاجتماع •

٢ ـ محمد بن عبد الوهاب ، وقد أعيد طبعه منذ أربع سنين .
٣ ـ أريد ان أرى الله ، مجموعة قصص .
٤ ـ الهوى والشباب ، ديوان شعر .
٥ ـ صقر الجزيرة ، ثلاثة اجزاء .
٦ ـ سعود
٧ ـ المنصور
٨ ـ الخرج والشرائع ، عن المدن الزراعية في المملكة العربية السعودية .
٩ ـ البيان ، مقالات في النقد .
١٠ ـ المقالات .
١١ ـ الشيوعية والاسلام .
١٢ ـ قطرة من يراع .
١٣ ـ مقصورة ابن دريد ، بحث أدبي تاريخي مقارن .
١٤ ـ الفصحى والعامية .
١٥ ـ الصحاح ومدارس المجمعات العربية .
١٦ ـ المقدمة ، بحث لغوى كتب مقدمة معجم « تهذيب الصحاح » للزنجاني .
١٧ ـ حرب الاكاذيب .

أما الكتب التى حققتها فهى :

١ ـ تهذيب الصحاح للزنجاني ، وهو ثلاثة اجزاء ، والتحقيق بالاشتراك مع الاستاذ محمد عبد السلام هارون ، وعنى بنشره الشيخ محمد سرور الصبان .
٢ ـ ليس في كلام العرب لابن خالويه .
٣ ـ مقدمة تهذيب اللغة للازهرى .
٤ ـ الصحاح للجوهرى ، ست مجلدات ، والمقدمة في مجلد خاص غير ست المجلدات ، وبه يصبح الصحاح سبعة أجزاء في سبع مجلدات .

وعندى كتب أخرى بعضها من تأليفى وبعضها من تحقيقى ، تكاد تبلغ عشرة وأكثر ، تنتظر الطبع ، وأرجو ان يوفق الله لطبعها ؟

جناية الصحافة

على الادب

اتجنى الصحافة على الادب ؟

أستطيع أن أجيب فأقول : نعم ، وعندى الادلة ، ومع هذا لا أغفل عن الخدمة التى تؤديها له ، فهى أداة نشره وذيوعه .

وكل مصاب يتبعه نفع ، وكل نفع يقترن به مصاب ، فنبات أسنان الطفل يتبعه مصابه بالاسهال والحمى ، وكلما تقدم بالانسان سنه زاد فهمه للحياة وتعمقه فيها ، وهذا نفع ، ولـكن ضريبته ان يدفع سنى العمر . وهذا مصاب .

وكلما زادت « حصيلة » تجارب الانسان نقصت أيام حياته !

ما من مصاب الا وفيه نفع وكذلك النفع يقترن به المصاب .

فالصحـــافة عـلى هـذا نفـع للادب ولكن يتبعـه أذى يكثر تـارة ويقـــل أخرى .

يقل الاذى اذا كان العمل الصحفى الذى يقـوم به الاديب لا يتجاوز كتابة المقالات والدراسات وتزويدها بها حتى تنشرها ، اما ان يشتغل الاديب بالصحافة ويكون ملزما بالكتابة اليها كل يـوم فريضة مكتوبة ، وأن يكون « عاملا » بها يشرف على التحرير او على باب دائم في الصحيفة مكمن الخطر ومبعث الاذى .

ان العمل الصحفى سيأكل وقته أكلا لـما وستلتهمه الصحافة وتجبره المطبعة التى لا تشبع بل تطلب المزيد على أن يبتعد عن الادب الحق والدراسات ، لان كل جوهر نفيس لا يأتى في سهولة بل لا بد لـه من التفرغ والدءوب والدراسة والاطلاع ، والصحافة لا تنتظر ، بل تريد كل يوم غذاء جديدا ، والسرعة ديدنها .

ومـا أكثر مـن فقـدهم الادب عندمـا اشـتغلوا بالصحافـة وتفرغـوا لهـــا .

أما عندنا فأنا مطمئن الى أن الصحافة لم تجن ـ بعد ـ عـــلى

كثير ، فليس بين أدبائنا من استطاع أن يقدم أدبا حقا أو دراسات ممتازة الا اذا استثنينا بضعة أدباء يتفاوتون كثرة وقلة وسموقا وهبوطا •

ولكنى أعتقد أن هؤلاء الادباء كانوا بسبيل انتاج ادب ممتاز لولا أن الصحافة شغلتهم •

وما شغلت الصحافة عندنا الادباء جميعا ، بل شغلت بأخرة بعضهم ، أما سائرهم فقد شغلهم السعى للمعيشة •

وهذا ما حملنى على أن أطلب الى الادباء أن يتفرغوا ، والى الدولة أن ترعى الادباء وتمنحهم « بدل تفرغ » يمكنهم من العكوف على الدراسة والانتاج الادبى الرفيع •

ولعلى كنت أسبق من رأى ودعا •

وأنا أشعر أن الصحافة جنت على أفظع جناية ، فشغلتنى عن الدراسات الادبية والعلمية بكتابات صحفية لست راضيا عنها ، ولكن الضرورة أكبر من أن أسيطر عليها ، والرياح تجرى بما لا تشتهى السفن •

نعم ، جنت الصحافة على أنا نفسى أفظع جناية ، حيث أجبرتنى أن أترك الادب الحق ، فلا أنظم الشعر الذى كنت أنظمه ، ولا القصة التى زاولت ، ولا الدراسات التى اتجهت اليها ، ولا التحقيق العلمى الذى أخذت به ، ولا البحوث الدقيقة فى الادب والتاريخ •

تركت كل ذلك لاننى اشتغلت بالصحافة ، وما اشتغلت بها الا مجبرا لاعيش ، ولو كنت ذا ثروة ــ أو مكفيا فى المعيشة ــ لما رضيت أن تلتهمنى الصحافة وتتحكم بى وتستبد وتظلم •

وكان بين يدى بضعة أعمال أدبية ضخمة بدأت بها ، ولكنى تركتها مضطرا ، تركتها لاننى اشتغلت بالصحافة •

منها : تحقيق كتب مطبوعة طباعة غير موثوق بها ، وبعضها مطبوع طباعة لم تسلم من الخلل والخطل مع ما بذل فيه من جهود المحققين العلماء ، وبعضها مخطوطات

أدبية وعلمية ولغوية وتاريخيـة ٠
ومنها : دراسة الاتجاهات الحديثة للفكر العربى ، ودراسة مقارنة للمجتمعات ، ودراسة الطبقات ، والاقتصاد في الاسلام ٠
ولقد كتبت وحققت ، وعندى بضعة كتـب حققتـها ، وكنت بدأت في القاء النظرة الاخيرة اليها حتى أقدمها الى المطبعة ٠
ولكن جاءت الصحـافة فشغـلتنى وصرفتنى عن طريقى الى طريقها وأشعر وأنا في عملى الصحفى بشىء كثـير من عدم الرضا ، فقد كنت قبله « أديبا كبيرا » و « أستاذا كبيرا » عند الناس حتى عند الحكام الكبار ، ولما اشتغلت بالصحافة وصرت صاحب جريدة أصبحت « صحفيا » مثل أى صحـفى لا يدانينى مكانة ولا أدبـا ولا خلقـا ولا علمـا ٠
أصبح أى مشتغل بالصحافة أو مالك لصحيفة « صحفيا » وما كان ليقف بجانبى لولا اشـتغالى بالصحـافة ، وقـد يكون هـذا الصحفى عاميا أميا ، لا يقيم قراءة بضع كلمات ، ولا يستطيع أن يكتب سطرا سـليما من خـلل التعـبير وعيـوب الكتابـة ولكنه صـحفى مثـلى !!
كنت « أديبا كبيرا » عند الناس ، وكانت الصحف في بلادنا تكتب عنى ذلك ، وان بعض الكتب العلمية تصفنى بصفات علمية ٠
وحسبى أن أشـير الى مسـألة تجبرنى المناسبة على ذكرها ، ولولاهـا لما ذكرت ، فقـد طويت الحـديث عنها شهورا حيـاء ، ولكن ذكرى ايـاها ـ الآن ـ لا ينـاقض الحياء ، لان العدل ليس مجردا منه ٠ وقد يتكافآن ٠
كنت بمجلس حضرة صاحب السمو الملكى الامير العظيم فيصل ولى العهد المعظم ـ وكان حينئذ رئيس مجلس الوزراء ـ وكنت آخذ لقراء « عكاظ » حديثا منه وكـان يزاملنى مندوب للزميلة الغراء جريدة « البلاد » وكـان بعض الامراء وبعض الوزراء وعلية القوم في مجلس الامـير ٠
قال فيصـل (١) جزاه الله خـيرا ـ : « انى والله اعـزك

(١) كان ذلك في شهر ذى القعدة سنة ١٣٧٩ ونشر في عكاظ سنة ١٣٨٠ هـ ٠

لانك أديبنا الكبير ، الخ ... » .

ان سموه وجه الى هذه العبارة الكريمة فشكرته ، واني اقدر هذه الكلمة التى قال لى عنها سمو الامير سلمان بن عبد العزيز ـ وكان أحد حضور ذلك المجلس ـ : تالله ، لقد ظفرت بشهادة عظيمة ، لم يظفر به غيرك من فيصل ، وأنت تعرف من فيصل ، انه الرجل الكبير في عقله وخلقه وقوله وعمله الخ .

وأنا أشكر الامير فيصلا فهذا ليس أول فضل له ، فقد أفضل على سنة ١٣٥٤ هـ وطبع لى « كتابى » وأنا طالب بالمعهد العلمى السعودى على نفقته الخاصة .

أما اليوم فأنا صحفى ، وأشعر أننى لست ذلك « الاديب الكبير » لا سنا ولا مقاما الا باعتبار ما كان .

ولو كانت الخيرة لى ما رضيت أن أكون صحفيا ، ومن يستبدل الادنى بالذى هو أعلى وهو مالك أمره ؟!

عندما كنت عند الناس « أديبا كبيرا » ما كان يقف بجانبى الا قوم كبار في العلم والادب ، أما اليوم فيقف في صفى من هو أقل بكثير من بعض تلاميذى ، ومن لا يحسن القول والكتابة !

أوليست الصحافة بجانية على الادب ؟ بلى ، انها جانية !!

★ ★ ★

العلم لا الأدب

يا أخي ، دعنا من الادب ، فهو خيال لا نفع فيه ، العلم ! العلم ! انه كل شيء ! وهو وحده الذى أخضع للانسان ما كان عاصيا ، وقرب اليه ما كان نائيا . انظر ، هؤلاء الروس سيطروا على أمم وشعوب ، وكادوا يسيطرون على قارات بالعلم وحده ، ولولا العلم ما وصلوا الى ما وصلوا اليه من القوة والتفوق والسيادة .

هذا هو هتاف الكتاب وكثير من الناس هذه الايام ، وهو نفسه شعار الماديين الذين يظنون أنهم بلغوا في الارض أسباب السماء !

ويزعمون : ان الادب كلام فارغ !

واذا سألتهم : ما العلم الذى تقصدون ؟ أجابوا : العلم الذى أنشأ الطائرات والقذائف والكواكب الصناعية وطوى المسافات وزوى الابعاد .

ونسى هؤلاء ان القذيفة التى انطلقت من الارض الى الكوكب ما كانت لتنطلق لولا الشعور بالرغبة في السيادة والتفوق .

والشعور مادة الادب أكثر منه مادة للعلم ، وهذا الشعور هو الذى دفع العقل الى الابتكار ، والانسان الى التفوق وطلب المزيد منه .

ولكن هؤلاء لم يقدروا – جهلا منهم – غير المادة ، ولم يفكروا في غير المعدة .. وما طلبوا غير الخبز وجهلوا قيمة الروح فازروا بالغذاء الروحى الذى هو مثل الغذاء المادى ان لم يكن آثر منه وأكرم .

وجهلوا أن « الخيرات » الروحية أو الرخاء الروحى الزم للانسان من الخيرات المادية لان عليه قوام الامن والحياة الكريمة .

ما الذى يدفعنا الى الحياة وعمرانها ؟!

ما دوافعنا الى مقاومة الاعداء ؟

ما أسباب الثقة بالنفس ، والاعتصام بالمثل وحسن الجوار وترك الاذى ؟!

ما الذى يحملنا على طلب السيادة ؟

لماذا تمتلىء قلوبنا بالايمان : الايمان بالله والرسل ؟ والايمان بالمستقبل ؟ والايمان بالقيم الانسانية ؟

أكل ذلك من أجل الخبز والمعدة ؟

ان كان الخبز ، فالحيوان أسعد منا حالا وأهدأ بالا وأرغد عيشا فهو لا يصارع ولا يقاتل ما دام شبعان ، وما دامت قوته بين يديه .

ان كان الخبز ، فما أسعد الحيوان وما أكثر شقاء الانسان !

ان الحيوان يمتاز بأنه لا يقلق كالانسان ، ولا يفكر في مستقبله ولا تجتمع فصيلة واحدة لتحارب جماعة منشقة عنها .

انه يطلب الخبز ولا شىء غير الخبز ، لانه فاقد الادراك والتمييز والامل .

أما الانسان فهو قد تحرر من الحيوانية بالكمال الانسانى ، والكمال الانسانى هو هذا الشعور الادبى ، أما الانسان الذى يعيش في داخله « الوحش » فهو الانسان الحيوان الذى جهل قيمة الحياة والوجود .

ان كلمة الحياد والوجود تدل على أن هناك مطلبا غير الخبز ، وسبيلا غير المعدة ، ذلك هو الحرية والروح .

ان كان الخبز هو كل هجيرانا من الحياة فما الذى يدعونا الى التفكير في الغد ، وتربية الخلف حتى يعيش فيه السلف ؟

حسبه خبزه ، وحسب ولده خبزه ! فلماذا الامل في البقاء والجمال ونشدان الفضيلة والكمال .

ان الادب لا يمنع من العلم والمعرفة ، بل هو الذى يدفع اليهما دفعا ، لانه يشعرنا بحاجتنا الى الكمال الانسانى الذى يعرف بغير الضرورة التى يستوى فيها الحيوان والانسان .

كلنا في عالم المعدة سواء : الانسان والحيوان ، نحن نطلب ما يملأ المعدة والحيوان كذلك ، وميزتنا على الحيوان الشعور الانسانى ، والتفكير في الغد .

ولكن ذلك الهتاف هو هتاف الشيوعية المضللة حتى تبعد الانسان عن عالمه الانسانى ليسهل قياده .

ولماذا يضرب الكتاب في العالم العربى المثل بروسيا ؟

لا جواب الا أن هؤلاء شيوعيون لانهم حاقدون على المجتمع ، ولان فيهم جهلة خدعهم بريق الدعوات الهدامة التى تدعى أنها تريد تحقيق الرغد للانسان مع أنها حرمت الانسان من الحرية الانسانية .

ولو لم يكونوا كذلك لوسعهم ضرب المثل بغير الشيوعية ، ولكن تخصيصها وحدها يدل على التعلق بها واكبار خطواتها وأعمالها .

وليست الشيوعية أقوى دولة وان كانت هى الدولة الوحيدة التى تبث الرعب والقلق في العالم كله .

ولن تكون الدولة صالحة اذا كان عملها بث المخافة وسلب الطمأنينة والقضاء على الرخاء الروحى .

وهذا يدل على أن هتاف هؤلاء الكتاب باسم الشيوعية انما هو خداع وتضليل للشعوب العربية واعتناق لنزوة الماركسية اللعينة .

وهذا هو الدافع لهم الى الهتاف باسم العلم وازدراء الادب ، لينتهوا الى تحطيم القوى الروحية كما حطمت في الدول التى تدور في فلك الشيوعيين !

ان الشيوعية مخيفة حقا ، وليس ذلك بمجد بطولى يحسب في مفاخرها ، لان سفاحا واحدا في القطر المصرى استطاع أن يشغل الدولة أسابيع ، ويبث القلق والخوف في نفوس أربعة وعشرين مليونا .

أنعد هذا السفاح بطلا ؟

ان روسيا مثل هذا السفاح ! والفارق بينهما أن روسيا

تملك وسائل تدميرية تستعملها مع الشعوب الصغيرة كلما دعت الحاجة ، وما حوادث بوزان ببولونيا وحوادث المجر بخافية على الناس جميعا •

وهؤلاء المضللون عندما يهتفون باسم العلم ويطلبون الى العالم العربى تجاهل القيم الانسانية بترك الادب يجهلون أن الشيوعية التي يمجدونها تتخذ الادب وسيلة لالهاب الشعور ودفع القوى ، ولكن الاتباع المسخرين ينسون ذلك حتى يستطيعوا خداع العرب والمسلمين ، فاذا جمد احساسهم الانساني وتبلد شعورهم الادبى استطاعوا أن يحيلوا الانسان حيوانا طيعا يقاد في سهولة ويسر •

ثم ان الازراء بالادب خطوة الى انكار جميع المثل والقيم الانسانية وقضاء على الحرية والكرامة ، وخنق لصوت الدين وقد رأينا ذلك واضحا مكشوفا في مجلة « روز اليوسف » و « صباح الخير » اللتين تناديان بانكار وجود الله وتجعلان الشعور الدينى مثل شعور الكلب الخائف من ورقة طائرة في الهواء يحسبها قوة وما هى بشيء !

وبجانب انكارهما لوجود الله تهاجمان الفضائل والمزايا الانسانية علانية ، وتضربان الانسان في كل عدد من أعدادهما وترفعان الحيوان فوق القمة !

ولكن دعوة الشيوعيين وأتباعهم المسخرين لن تجد أذنا صاغية الا عند حقود على المجتمع والقيم وفقيد الخلق والفضائل ، ولهذا عرف الفاهمون قيمة دعوة الاستغناء عن الادب وايثار العلم وحده بالاخذ والاهتمام فحاربوها وحاربوا دعاتها الادعياء •

والرأى الصواب أن نجمع الى الرخاء الروحى الرخاء المادى ، أن نأخذ الادب والعلم ، فهما كجناحين للانسان يحلق بهما بين خدور النجوم ، ولا غنى للانسان عن الخبز والحرية لانهما قوام حياته •

نشرت بعكاظ سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)

ادب جديد

لا أوجه كلمتي هذه الى من يسمون أنفسهم من أبناء وطننا أدباء جددا ، ويزعمون أن ما ينتجونه « أدب جديد » و « شعر جديد » ولا أريد أن أناقشهم الحساب وأساجلهم القول ، لانهم ليسوا مبتدعين بل تأسوا غيرهم ممن زخرفوا هذه البدعة من أبناء الاقطار العربية وعلى الاخص مصر التي نهض بها دعاة قصر بهم خطاهم عن السير الحثيث فوقفوا حيث هم وأخذوا يدورون كخذروف الوليد في غير وعي ليوهموا الناظرين أنهم ليسوا جامدين ولكنهم يتحركون أكثر مما يتحرك الاحياء .

وهؤلاء لم يقدموا شبرا واحدا في الطريق الطويل ، بل حركوا جسومهم وداروا كأوراق المروحة الكهربية ، وانهم لمسلمو أنفسهم بعد أن يصيبهم الدوار الى السقوط والغيبوبة .

وهم مقلدون ، فقد وصلتهم الدعوات الهدامة بأنواع الشعار المختلفة ،كالديمقراطية الشعبية ، والادب الشعبي ، والثقافة الشعبية ، والتفاعل مع الشعب الى ما أشبه من هذه العناوين التي تجتذب وراءها هدم كل امتياز في الآداب والفنون حتى تكون لهم السيطرة على الثقافة وعلى العقل والشعور ، ومن ثم يحققون مأملهم في القضاء على القيم الانسانية العليا باسم الشعب المسكين .

ونشر هؤلاء « المجددون » انتاجهم الادبي شعرا ونثرا ، وزعموا أنه الانتاج الفني التقدمي الذي يناسب هذا العصر الصاروخي .

وانني أعرف كل هؤلاء المجددين بما انتجوا ، وأعرف كثيرا منهم بشخوصهم ، وكلهم تنقصه الموهبة كما تنقصه الادوات الفنية التي لا يصبح الاديب أديبا الا بها ، فاذا فقدها فقد خصائص الفنان.

ويحسب هؤلاء الناس ان الفن سهل يسير ، ما على من يريده الا أن يكتب كلاما يقطعه على التفعيلات فيكون ما أنتجه أدبا أو شعرا .

ويدخل هؤلاء المجددون حرم الادب وهم يتأبطون مذهبا من المذاهب الاجتماعية يعتنقونه عن جهالة أو فهم ناقص دون أن تكون لديهم الملكات الفنية والمواهب الادبية ويقدمون قصصا تافهة وشعرا سخيفا ويصفق بعضهم لبعض ويهتفون : هذا هو الشعر ٠

ان من الجائز أن نلحق القصص والقصائد التى ينتجونهـــا بالمقالات الصحفية التى تحتوى بعض أفكار جديدة تدعو الى التقدم مما يتصل بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والصناعة والحرب ، أما ان نحسبها فنا أو أدبا فلا ، لان الادب الحق يقوم عـلى الصدق في الشعور والصدق في التعبير ، عـــلى أن يكون الجمال عنصر التعبير وقوامه ، وأن يكون الاســـلوب رائعـا جميلا ، والا أصبح الادب الرفيـــع كلامـــا ٠

واذا خلا الاثر الادبى من جمال الصياغة وحسن السبك وأثر الجـهد المثـمر فقـد روح الفن مهـما امتـلأ بالانفعـالات واتسـع للافكار التقدميـــة ٠

وكل شعر ـ في العالم ـ لا يسمى شعرا الا اذا اتفقت له هذه الخصائص التى تميز الفن عن غيره ، وما من شعر رفيع خلا مـن الجمال في الاسلوب والفكرة ٠

وأقطاب الشعر العالمى المجددون في مختلف اللغات هم أئمـة البلاغة والبيان ، ثم نلمس في هؤلاء المجددين من الشعراء الجدد في عالمنا العربى ضعفا في الفكر وسـقما في الخيـال وفهـاهة في التعبير ووهنا في الاسلوب وعجزا في الثقافة واللغة ، ودفع بهم هذا الشتيت من النقائص الى محاربة الكمال واقترفوا باســـم الشـــعب كـل هذه المناكر في عالم الفكر والفن ٠

ونقول في وصفهم : انهم مجددون لنسير معهـم حتى نفرقهم بهذه السمة عن غيرهم ، وهم في الحقيقة لا يعرفون التجديد الحق ، لان النقائص البادية من انتـاجهم المسمى أدبـــا تناقض التجديد ، وتدمغهم بطابع التقليد والرجعية ، لان البدائيين من أهل كل لغـة يحاولون الفنون فيأتون بما يأتى به هؤلاء المجـــددون ، وعذرهـم أنهم يحاولون وأنهم مبتدئون ٠

ان التحرر من قيود الفن لا يعد تحررا صحيحا بل هو فوضى ، فكل انسان يستطيع أن يتحدث هذا الحديث العامى العادى ، ولكن الذى يستطيع أن يأتينا بالرائع الجميل من التعبير أفراد معدودون يتقيدون بقيود الفن التى تبرز قيمة القادر القوى المتقدم .

اننا عندما نريد اختبار الجواد الجيد واختياره من بين الخيول القوية الممتازة ندفع بها الى حلبة السباق ، ونضع في طريقها الحواجز الصعبة ، فما يجتازها منها بسلام وأدرك الغاية قبل غيره وصف بالسبق والامتياز والاصالة .

فالقيود الفنية ضرورة لازمة لبيان قدرة القادر وضعف العاجز، وانى لأشبه هؤلاء الذين يزعمون أنهم مجددون باثنين يتسابقان أحدهما قوى قادر ، وثانيهما ضعيف هالك ، فلما اذن لهما بالعدو تخلف الضعيف وسبق القوى ، فلما رأى الضعيف أن زميله سبقه حتى ما يلحق غباره أدار ظهره اليه وجرى حيث بدأ السباق وزعم أنه السابق لان زميله خلفه .

أنحن نصدق هذا الضعيف في زعمه ؟ كلا ، ولو كان معه مليون من أمثاله يزعمون أنهم السابقون ويتهمون السابق بالتخلف والعجز .

ونعود الى صفة التجديد التى يخلعونها على أنفسهم لنوفى القول فيها :

ان الخروج على قيود اللغة كان شأن المتكلمين بها قبل أن تنضج وقبل أن يتقدموا ، فهو ـ اذن ـ صفة البدائيين لا سمة المتقدمين ، فاذا لقينا من يخرج على قواعد اللغة وقيودها عجزا منه وزعم التجديد فما هو في مجال الحق الا رجعى يلقى به عجزه الى حيث كانت اللغة بدائية .

فهؤلاء المجددون ليسوا مجددين بل رجعيون وهم ليسوا متقدمين بل متخلفون ، وهم ليسوا مبتكرين بل مقلدون يتأثرون خطى من لم يستقم لهم التعبير ، ومن لم تتقدم بهم الحياة .

وأنا اذ أنفى عنهم الاصالة والموهبة والملكة الفنية فانى أجدنى

مضطرا أن أسلبهم خصيصة الانسانية ، لان الانسان لا يفقد ملكة الادراك والتمييز بين الوضيع والرفيع والهزيل والسمين ، فاذا فقد هذه الملكة فقد صفة الانسانية التى تناقض الحيوانية ، فاذا دفعه الاجتراء الى تسمية الوضيع رفيعا والهزيل سـمينا فقد ابتعد عن الانسانية التى نفهمها على أنها مثالية الشعور الانسانى الرفيـع والخـلائق الانسانية الفاضلة .

ولعل المثال يوضح الحقيقة أو يقرب الى الذهن ما اختلف فيه فيعرف الصحيح من السقيم .

قلت في المقدمة التى كتبتها للعبقريات الاسلامية التى ألفهـا الاديب العظيم الاسـتاذ عبـاس محمود العقـاد مـا أنقلـه ليكون المثـال الـذى أردت .

قلت : « سمعت أديبا من هؤلاء الادباء الجدد يلقى قصيـدة طرب لها السامعون ورقصوا لها وقالوا : هذه عصا موسى التى تلقف ما يأفك الشعراء أمثال العقاد وعلى محمود طه وشوقى وحـافظ ومطران وأبى ماضي ونعيمة وغيرهم من الشعراء .

« والشىء الـذى مـلاهم طربـا وسرورا وحملهم على الرقص قـول الشـاعر :

« لقد خرجت من بيتى صبـاحا
« ومشـيت في الطريق وحيـدا
« واذا الطريق مـلء بالوحـل
« ومشـيت في الطريـق
« فتلـطخ ثـوبى بالوحـل
« ورجعـت الى بيـتى مكتئبـا
« فـرأت أمـى الوحـل
« فنهضـت مـن مقعدهـا
« وأخـذت تغسـل لى الوحـل
انهـا أمـى الحنـون »

« هذا شعر جديد يسمعه النـاس ويرقص له الراقصون ،

ويهتفون باسم الشاعر ، ويستزيدونه هذ النوع المعجب المرقص ، ويصفونه بأنه الشعر الجديد الحي • ويزعمون أنه يصور الحنان : حنان الام ، تصويرا رائعا •

« وسألني المعجبون رأيي بعد أن كالوا المديح للشاعر وأقاموا تماثيل الخلود للقصيدة • فزاد سؤالهم حنقي وأجبتهم : لا أريد أن أتحدث عن تعريف الشعر والشاعر ، ولا عن قيود الشعر ، فقد يحتدم الجدل بيننا ، ولكني أتناول مسألة تصوير حنان الام •

« ثم قلت : ان خادمي عندما يرى ثوبي ملطخا بالوحل يغسله ، فأى حنان في صنعه ؟ وبهت هؤلاء المعجبون ، فقلت لهم : انكم تجهلون الاسطورة اليونانية التي صورت حنان الام صورة لعلها أروع الصور •

« ان فارسا من يونان قتل أمه وانتزع قلبها ووضعه في جرابه وحمله على كتفه ومضى الى العراف يسلمه اياه حتى يربط بين الفارس وحبيبه التي دبرت هذه المكيدة رجاء أن تتخلص من أمه ، فبينما الفارس يعدو كبا جواده فصاح قلب أمه من الجراب : سلامتك يا بني !

هذا حنان الام لا غاسلة الوحل » •

وأقرأ شعرا كثيرا كهذا الوحل ينظمه أناس في مصر وغير مصر ، وفي بلادنا ، ويزعمون أنه الشعر الجديد ، فاذا هو كلام بعيد عن الفن ولا يخضع لقواعد اللغة ، ومع هذا يطلبون الينا أن نرضى عنه •

كلهم قصير النفس ، منحل الثقافة الفنية والعلمية ، وضيع في أسلوبه ، ضعيف في اللغة ، يرفع المفعول وينصب الفاعل ، في حين أن العامة يلتزمون قواعد لغتهم ، فيدركون بالبداهة والغريزة الفاعل والمفعول ولا يخطئون فيهما •

وما أدرى كيف يبيح هؤلاء الناس الخروج على قواعد اللغة في حين أنهم لا يخرجون عن قواعد العامية ، ويضعون الفاعل موضعه الاصيل الذى وضعته فيه قواعدها •

ولست بهذا أتنكر لكل هؤلاء الادباء وما ينتجون ، بل أعرف آحادا من بينهم يستحقون منى القدر الجدير بهم لانهم يملكون وسائل التعبير الجميل مع مراعاة القواعد اللغوية ، كما يملكون الثقافة التى توسع نطاق معارفهم الانسانية •

والاديب الذى يملك الثقافة التى توسع نطاق المعارف الانسانية كمايملك أسباب توسيع نطاق الحياة والوجود هو الاديب الحق الذى يوصف بأنه مجدد ، أما غيره من هؤلاء الذين يدعون أنهم مجددون ففقاعات لا تخلو من بريق ، ولكنها فقاعات تنفجر سريعا فلا يبقى لها أثر في الحياة •

نشرت بجريدة عكاظ سنة ١٣٨٢ هـ

* * *

هل انتهى
عصر الادب والشعر

قال بعض شبابنا المتعلم الصابى الى الادب : ان زحمة المشاكل التى تجبهنا والمطالب التى كلفتنا بها الحياة الحاضرة من اعداد أنفسنا للعمل ، والاكثار من الاستعداد المادى لم تجعل لنا وقتا للشعر نقرؤه وننظمه .

وتكملة ما قالوا: ان دولة الشعر لم يصبح لها الشأن الذى كان لها قبل ، لان الناس ـ في البلاد العربية ـ شغلهم الاستعداد المادى واعداد أنفسهم لخوض غمار الحياة بالسلاح المادى سواء أكان هذا السلاح قنبلة تفتك أو مصنعا ينتج ، أو آلة تتحرك ، أو عقلا يفكر ، ولم نعد في حاجة الآن الى الشعر والشعراء ، بل حاجتنا الاولى والاخيرة الى المادة وحدها .

وأنا ادهش من اصغاء شبابنا ـ أو كثير منهم ـ الى صيحات المادية التى يسمعونها من بعض البلدان ويقلدونها ، ويحسبون أن الحياة قفرت من المعانى والفنون والشعر .

ان الحرية مطلب من المطالب أو ضرورة من الضرورات مثل الخبز للانسان ، كلاهما قوامه : الحرية للكرامة الانسانية ولانسانيته والخبز لكيانه المادى ، والحرية في صميمها ليست مادة ، بل شعور تحركه دوافع النفس وبواعث الروح والشوق الى الحياة التى يؤودها الاستعباد والاكراه .

فاذا كانت الحرية معنى من المعانى فان الباعث اليه ليس باعثا ماديا ، بل يدفع اليه الشعور الانسانى ، والشعور الانسانى نسيج الادب وقوامه وكيانه ، بل الباعث الى الحياة نفسها ليس الا باعثا غير مادى .

وما كانت زحمة المادة بشاغلة الانسان عن المطالب الفنية وضرورات الشعور ، والا فقد الانسان خير معانيه ، وتجرد عن ارفع

مزاياه ، لان شعور الانسان بالاستغناء عن الشعر والفنون ليس دليلا على الغنى والامتلاء ، واشتغاله بالمادة وحدها انما هو رعاية للجسد وحده واغفال جانب الروح اغفالا تاما .

ان العلم خادم ليس أمينا دائما ، ولكن الادب سيد ، العلم وسيلة ترفيه الانسان ماديا ، ووسيط الى غاياته التى يراد منها اشباع الروح وايجاد الاشواق العليا ، والوسيلة أو الوسيط غير المقصود لذاته ، أما الادب فهو محرك النفوس ، ومصدر البواعث النفسية ، وينبوع الاشواق العليا ومرآة الروح ، وهو الذى يوسع لنا نطاق الحياة ، ويجعل الكون أكوانا بعدد الناس وأكثر من عدد الناس .

بل أن الشعور بالحاجة الى المادة شعور يتصل بالعاطفة الادبية لا العاطفة العقلية .

ان العلم أوجد لنا كل وسائل الحياة المادية ، فنجد بوساطته الثلج والجو البارد في حمارة القيظ ، ونقطع المسافة الطويلة في سويعات ودقائق ، ومنحتنا المطبعة والطائرة والسيارة والراديو والثلاجة وما اليها ، فهو خادمنا الذى وجد ليأتمر بأمرنا .

أما الادب فشأنه شأن السيد ، يدفع الانسان الى طلب الكمال والمتعة واللذة والتأمل .

وهؤلاء الشباب الذين يتجهون الى المادية ويظنونها هى التى أعطت المعسكر الشرقى أو الغربى كل هذه السلطة الخارقة يغفلون عن ادراك الاسباب الطبيعية ويجهلون تفسيرها ، فيقفون عند الجانب القريب منهم فيقولون ما يقولون ويحسبون ما يحسبون .

ان هذا السلاح الفتاك الجبار المدمر وهذه الجيوش المعدودة بالملايين ، والغارقة في الحديد ، والاعداد لحرب شاملة مبيدة ، والقوى التى تمحو معالم الحضارة والانسانية في دقائق ليست دليلا على أن العلم قوام الحياة وصاحب السيادة ،لان العقول التى أنجبت ما كانت لتنتج لولا أطماع الطامعين وبواعث النفس الصابية الى السيادة المطلقة وتحقيق الآمال الطافرة .

ان نتائج العلم الذى يدعون اليه خطيرة مؤذية ، وانه لاشبه بالانسان الذى استحال وحشا فقطع الطريق على الآمنين وأخاف السالكين ونشر الذعر والهلع والقلق ، فهو ليس سيدا لانه أخاف من هو أعظم منه في مجال القوة والجبروت ، وأكرم منه في حقل الانسانية ، وأفضل منه في المزايا والسجايا •

ويكفى أن يكون وراء تلك القوى والعقول بواعث نفسية لندرك أن الشعور الذى هو سر الفن وقوامه هو نفسه الباعث على التماس التفوق والسيادة والبروز •

ان هذه العقول الكبيرة التى أرسلت الصاروخ في الفضاء فمضى صعدا ملايين الاميال ما كانت لتقوم بهذه الخارقة العظيمة في تاريخ البشرية الطويل لولا البواعث النفسية التى دفعتها الى الاختراع ، فهى أحست أن هناك خصما عنيدا ينافسها ولا يرضى بالخيبة والقصور وهما شعور واحساس ، فهى مجبرة على أن تعصر نفسها حتى تضمن التفوق في كل ميدان ، وتكون في أمن من القوة المعادية التى ظهر أنها تسابقه في سباق اختراع القذائف الصاروخية •

والامم ليست سواء في طلب العلم وان يوافيها بما يضمن لها التفوق ، فمنها الامم التى تستخدم العلم لتجعله أداة تهديد وتقتيل ، ومنها التى ما كانت لترغب فيه لولا نشدانها الامن والسلامة والتحصن مع نشدانها السيادة المطلقة •

والرغبة في الامن أو السيادة عن أى طريق شعور منفصل عن العلم ، ولكنه من صميم الفن •

وأولئك الجنود الذين يساقون الى الميدان فيطيعون وهم مدركون أنهم انما يساقون الى الموت ما كانوا ليقذفوا أنفسهم في لظاه لولا الشعور الادبى بالعزة والكرامة أو بالحاجة الى السيادة أو دفع الخطر أو انقاذ الانسانية والاديان •

ومادام الامر في ذلك كله ـ سواء أكان في الدافع الى العلم أم في استخدامه ـ قائما على الشعور وبواعث النفس فما دللنا الا على أن

العلم ليس مقصودا لذاته ولا مرموقا اليه بالاكبار لشخصه ، بل هو وسيلة في يد الشعور والبواعث تستخدم في تحقيق المطالب ، سواء أكانت هذه البواعث منطلقة من شياطين النزوات أم منبثقة من ملائكة المشاعر والرحمات .

والآلات والعلوم لون من ألوان التعبير عن حاجة الامة ، والتعبير يأتى عقيب الشعور ، والتعبير والشعور من أخص خصائص الادب والفنون .

ان شعور الامة بالمثل التى تريد أن تصل اليها والامانى التى تتوخى تحقيقها هو موجد العلم نفسه ، فلولا هذا الشعور بالحاجة أو النقص ما كان علم .

والجنود الذين يحملون تلك الآلات المبيدة وينطلقون الى الميادين ما كانوا لينطلقوا ويقبلوا الموت والفناء لولا الشعور الادبى الذى دفعهم الى ايثار التضحية على الادخار والهلاك على السلامة ، والموت على الحياة .

ان نشيد الحرب لم تلتزمه الامم المغرقة في المادية كالماركسيين لانه مادة علمية أو عقلية ، بل اتخذته لدفع الجيوش الى القتال لانه من غير هذا النشيد يفتر فيها الاحساس ولا تندفع الى الحرب كالمارد البطاش .

هذا النشيد الحربى شعار المقاتل وايمانه وكيانه .

وهذه الكلمات : النصر والمجد والقوة التى ترن في سماء الحرب وميادينها ما هى الا شعور يستغله شاعلو الحروب ، ويتوسلون الى الادب ليكون أداة دفع قوية تبذ آلاتهم المبيدة .

اننا رأينا ملايين الجنود تسلم وهى أقوى ما تكون كالجيوش الالمانية في شمال أوروبا ، وتسليمها ليس عن جبن فيها أو نقص في عتادها الحربى ، بل سلمت لان الشعور أقنعها بضرورة التسليم كما أقنعها من قبل بضرورة المهاجمة والتحطيم .

والقيادة التى وجهت تلك الجيوش بعد أن أشعلت فيها شعور الحنق والغيظ والانتقام وشعور التفوق والسيادة هى التى أقنعتها

بالمنطق الوجدانى بضرورة التسليم لان التضحية بعد التيقن من الهزيمة وبعد انتفاء بلوغ المأمول من الامانى انتحار لا نفع فيه ، وحماقة تسلم الى القبر ، أو تنتهى الى المذلة والهوان ·

وهذه الكلمات : النصر والسيادة والمجد والدفاع عن النفس والانتقام من اختراع الادب ، هو أوجدها وهو وحده الذى حشاها بالديناميت وأعدها لتكون من البواعث لتحريك الانسان وحمله على احتمال ما لا تحتمل الجبال ، وليعمل ما لا تعمل الابالسة والشياطين ·

وهذه الكلمات شعور لا يقوم العلم عليه بل لا تعرفه المادة قبل الروح والشعور ·

ونكران الحاجة الى الادب أو الشعر في هذه الايام التى غشيت سحابة المادية الارض من قبل بعض شبابنا وغير شبابنا يدل على أنهم لم يفهموا حقيقة الادب والفنون ولم يدركوا الحقائق الانسانية المعروفة ·

ان دعاة المادية يهتفون ليل نهار : كفاية أدب ، وهذا الهتاف لا نسمعه في بلاد المادية نفسها ، وانما نسمعه في بلادنا ، وما ردد تقليد لببغاوات جاهلة ، والا لكان في حوادث الحياة التى لا تحصى مقنع لمن كان له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد ·

ان الجنود الذين يحملون معهم آلات التدمير التى أنتجها العلم لا يصحبون معهم كتبا علمية للدراسة والتحليل ، أو بحوثا أو عمليات حسابية كمعادلة التفجير الذرى ، أو كتبا في فن الحرب أو التكتيك الحربى أو في سلاح الطيران أو القذائف والصواريخ ، بل كلهم يصطحب قصة أو ديوان شعر أو قصيدة يلقى جسمه المنهوك في أحضانها ، أو صورة جميلة تنسيه ما هو فيه من كرب وهموم ·

ورسائل الجنود في الحرب خالية من « العمليات » وأبعد ما تكون عن العلم ، وليس بها غير فن وأدب ·

ولعل هذا المثال يؤكد لنا أن الاستغناء عن الادب كلام يقوله من جهل حقيقة النفس وضرورة الحياة ·

بل ما من عالم من هؤلاء العلماء الا كانت رياضته المحببة وهوايته المرموقة أحد الفنون الجميلة ، مما يدل على أن قوام الحياة الانسانية كلها الفن لا العلم .

ولا يدعى أحد أن الادب كلام لا طائل تحته ولا نفع فيه الا أقام البرهان على انتقاله من عالم الانسان الى عالم الجماد ، والجماد أدنى مراتب المخلوقات .

وهؤلاء الذين يعتذرون عن نظم الشعر بزحمة الحياة الحاضرة، أو عن قراءته بالشغل ـ شغل الفكر والجوارح ـ يقدمون الدليل على أنهم لا يعون ما يقولون ، ويدفعهم فساد الذوق وكزازة الطبع وفقدان الانسانية الى غرور مقيت ، اذ يحسبون أن هذا الاعتذار بالشغل يخدع الناس فيؤمنون بأن الحياة زحمتهم حتى لم تترك لهم جزءا من الزمن ـ ولو دقائق ـ لقراءة الشعر أو الادب ، وانهم غرقى في العمل كل أوقاتهم .

ألا يجد هؤلاء وقتا للطعام ؟ اذا لم يجدوا فهم صادقون ! وما أظن أحدا في الوجود يزعم أنه لا يجد وقتا لطعامه فيتركه وينقطع عنه كما انقطع الادعياء عن قراءة الشعر والادب بحجة الشغل .

أهم أكثر شغلا من قادة الحروب كايزنهاور وروميل ومونتجمرى ، ورؤساء الحكومات كتشرشل وهتلر وموسولينى ؟ ان هؤلاء جميعا كانوا على صلة دائمة لا تنقطع بالادب والفن ، كانوا يقرأون القصة والشعر وهم في أتون الحرب الطاحنة ، ويجدون الوقت لقراءة الشعر والادب .

أفترى شبابنا أو غير شبابنا أكثر شغلا من هؤلاء ؟

العذر الصحيح أن هؤلاء لا يقرأون الادب لانهم ناقصون في تكوينهم الانسانى ، وهم ـ لهذا النقص ـ يجهلون أثر الادب وقيمته ، ويجهلون المادية نفسها ، فالمادية فهمت أثر الفن وقيمته فاتخذته سلاحا ووسيطا ، والمتحاربون في القديم كانوا ينزلون الى الميدان ، وكل فارس أو محارب يخرج الى « الحلبة » ويطلب المبارزة والطعان ، فيتصدى له خصمه ، وكل منهما مملوء القلب بالحماسة ،

وقد يرتجل قولا أو شعرا يشد به عزيمته ، ويقوى شكيمته وقلبه وســاعده ، فينسى قيمـة الحيـاة حتى يفقدهـا هو نفســه أو ينتزعها من غـيره ٠

كل هذا يدل على أن النفس الانسانية لا تستغنى عن الشعر والادب ، ولا تستغنى عنـــه في ميــادين الهـول والمخــافة ، وفي مغــانى السرور والامن ٠

وان امرءا يجعل الخبز كل مطلبه انما يعطى الدليل على أنه ما يزال حيث كان سلفه قبل آلاف السنين أو ملايينها شريك الاوابد في السجية والعادة والطباع ٠

ولا تتفاضل الامم بالضرورات بل بالكمال ، فاذا كان الخبز قوام الجسد فان الادب والفن عنصر الحياة وكيان الروح ٠

والامم المغرقة في المادية التى جعلتها قوام حياتها لم تغفل عن أثر الآداب والفنون بل عنيت بآداب غيرها من الامم ، وما تجد عـلى وجه الارض أمة قوية الا كانت عنايتها بالادب كفاء عنايتها بكل ما تطلبه الحيـــاة من أبنائهـــا ٠

واني لاعجب من دعوى كثير منــا أن الادب كلام ، وشكواهم التخمة في الادب ، مع أننــا لم نبـلغ ـ بعد ـ ما نصبو اليه في عـــالم الفن ٠

ولا يستطيع باحث أن يعزو الدعوى والشــكوى الا الى خواء الشاكين المدعـــين ، ومـن الضعـف الروحى فقــدان الشـعور بالضعـــف الروحى ٠

أين التخمة في انتاجنا الادبى ؟!

انني أقرأ ما تنشره الصحف مما تسميه قصة أو شعرا أو أدبا فلا أجد أثرا للفن الا في الندرة النادرة ٠

فاذا كانت تلك الصحف خالية من الادب الصحيح فان شكوى التخمة دليل على مرض الشاكين ٠

اننـــا في مسغبة وادقاع ، ومع هـــذا نرى بيننا من يشكو التخمة والامتلاء ، ولهذا يشكو كاتب ويأسـف عـلى أن تسـعين في

المئة من خريجي الجامعات من أبناء وطننا هم من كلية الآداب ، وان عشرة في المئة من خريجي كليات العلوم المختلفة ، ويستدل بهذا على انصراف شبابنا الى ما خلا من الفائدة والى جهلهم بحاجة الامة .

وسمعت من يأسف على أننا بدأنا في بلادنا بكلية الآداب ويرى أن الخير في ابتدائنا بكليات العلوم ، لان الامم ـ الآن ـ تريد الحياة ، والحياة لا تسلس قيادها لغير الاقوياء ، والاقوياء من يملكون السلاح ، ويسألني : أيهما ألزم للامة ؟ الآداب أم العلوم ؟

وأجبته : كلاهما ، فقد انتهى عصر المناظرات وأيهما أفيد وألزم ، القلم أم السيف ؟ الشمس أم القمر ، الى آخر ما تتسع له هذه المناظرات .

وحسنا ما صنعت جامعتنا السعودية ، اذ ابتدأت بكلية الآداب ، لا لانها أخف ، بل لان التعبير والشعور آية التحضر والانسانية ، فالشعور الرفيع والتعبير الجميل من سمات الانسان ، أما الحيوان فهو المتخلف فيهما ، وما من نهضة الا كان باعثها ورافع لوائها الادب ، لانه ما من أمة تقدم أدبها الا رفعها معه ، وما تأخر أدب أمة الا كانت في الحضيض .

وما أدرى كيف يفكر هؤلاء الناس ؟ وما أشد مرارة الحياة وقسوتها اذا كانت معسكرا أو مصنعا أو « معملا » أو مختبرا ، وما قيمة الحياة ، اذا فقدت الطمأنينة والامن ، وهجيرى الانسانية ضمانها للعالم ، والقوة سمة الغاب لا آية التحضير والارتقاء .

وما من أحد أو دولة ادخرت القوة العسكرية لعمارة الارض وتقويم الانسان وتهذيب النفس وتربية الضمير ، بل صنعتها للدفاع أو العدوان .

وما من دولة أدخرت القوة كما يدخر الرياضى الصحة .

ان الرياضى الكامل الشريف يدخر القوة ليعيش صحيحا سعيدا بما لديه من الصحة والعافية ، ولا يربى جسمه للعدوان ، أما وحش الغاب فيدخر القوة ليجعل منها أداة افتراس ، وكذلك الدول ، وعلى الاخص الدول المادية .

وما كانت القوة المادية يوما من الايام أداة زينة أو متعة ، وما يحيلها معسكرا ، وما تطيب حياة المعسكر للعسكريين أنفسهم ، لانه يحد من نشاط الانسان ونشاط الذهن كما يحد من الحرية ، ويبث القلق في النفوس ، ويقضي على الراحة والطمأنينة ، ويجعل من فيه متوجسا الخيفة فهو حذر متربص .

والتفرغ للعناية بهذه القوة نكسة من النكسات التى تهد حيل الانسانية وتمحو جمالها ويقضي على التمتع به ، وتدفعها الى الوحشية كانت الا وسيلة تهديد وعدوان ، وازدحام الارض بالقوى المادية التى يحاول الانسان أن يتخلص منها ، وان كان الوحش الكامن في أعماقه يقذفه قذفا الى نكران المعاني والمشاعر الانسانية .

ولست بهذا أدعو الى اهمال العناية بالقوة في عصر العدوان والمخافة، ولكنى أنكر الدعوة الى القوة وبناء صروحها واغفال الفنون.

والدعوة الى الاستغناء عن الشعر دعوة ضارة بالمجتمع ، والزعم بأن الادب كلام فارغ في عصر الآلة والذرة باطل ، ولن يصح هذا الزعم الا اذا استحال الانسان جمادا ، وادعاء التخمة يدل على جهل تام مطبق بالادب ، ونحن لا نشكو التخمة بل نشكو الادقاع في حقل الانتاج الادبى ، ولو كان كل أفراد مجتمع أدباء فان من الضلال والجهل ادعاء التخمة ، لان انتشار المعانى الانسانية بين أفراد المجتمع الانسانى دليل غنى لا دلل فقر ، ولا يعد الغنى تخمة في كل أحواله .

ولو كان أفراد مجتمع أدباء أو ذواقين للادب والفنون لامتازوا بشعور انساني رفيع ، وذاقوا طعم الحياة وعرفوا قيمة الانسانية ، وعندما يشعرون يختنق صوت الوحش الكامن في أنفسهم فيتجهون الى الخير ، وتمتلىء الروح مسرة واغتباطا .

نحن نشكو التخمة في الادب وليس بيننا من الادباء الا بضعة نفر !

وما أدرى ماذا كانت دعواهم لو كان لدينا عشرة من الادباء أو خمسة ؟

ليس لدينا الا عدد يسير ومع هذا نشكو التخمة !

لم يأت زمان يحتاج الناس فيه الى الادب ولفنون عامة مثل زماننا هذا الغريق في المادية •

وأنا أدرك أن الدعاة في بلادنا مقلدون لم يفهموا دوافع الدعاة الذين قلدوهم ، وأدرك أن الدعاة في بلادنا حسنو النية ، وقلدوا دعاة المادية المقلدين دون أن يفهموا بواعث هؤلاء الدعاة المنبثين في العالم العربى •

ان هؤلاء الدعاة يريدون الشر بالانسانية ويحقدون على قيمها العليا وعلى الامتياز أيا كان نوعه ، ولا يستطيعون أن يحققوا لدعوتهم النجاح والاثمار الا اذا قضوا على الروح الفنية في الانسانية ، ومتى وسعهم القضاء عليه وسعهم استعباده •

ولكن كل دعوات المذاهب الهدامة ودعاواها لن تستطيع أن تجرد الانسان من خير مزاياه ، وسيبقى الشعر والادب والفنون على رغمها ما أشرقت شمس وسطع قمر وتلألأ بدر وافتر زهر وخفق قلب ، بل ستبقى ما بقيت الحياة •

وحاجتنا الى الادب أعظم من حاجتنا الى المادية التى تسحق الارواح والاشواق والانسانية ، ويجب أن ننظر الى الادب نظرة انسانية كريمة ، فما أزرى أحد به الا كان ممسوخ الطبع مدخول الشعور فاقد الادراك والتمييز والروح •

وما نحب أن يكون بين أبناء وطننا من يتهم بذلك ، لان آية الانسان سلامة الشعور الانسانى ، والاحساس بالفنون احساس الانسان •

واذا جاز لاحد أن يزعم أننا في غنى عن غذاء المعدة جاز له أن يزعم أننا في غنى عن الشعر والادب والفنون ، وما دام ذلك غير واقع فان من الطبيعى ألا ندعى أننا في غنى عن غذاء الروح •

وموجز القول : أن العلوم التجريبية أو العملية تساعد على الرخاء الروحى ، ولا يغنى أحدهما عن الآخر ، ولكن مزية الفنون تتجلى في أن الاسراف في الرخاء المادى مصحوب بكل أنواع الشرور والموبقات ، أما الرخاء الروحى فالزيادة فيه زيادة في الخير ، وزيادة الخير بركة كما يقول آباؤنا الطيبون الطاهرون ؟

الادباء حماة

المجتمع منجم ضخم كبير لثروات لا تنفد ، وطاقات وقوى تتوالد كل لحظة ، ورؤوس أموال وكنوز وذخائر روحية ومادية وأدبية تتجدد ، وفي المجتمع المتطور النامى الديناميكى نجد الحركة الدائبة التى لا تقف لتضمن النمو والتطور والتقدم .

ومن هذه الحركة التى تمتاز بالعمق والحيوية والاستمرار تقوم في المجتمع قيم أخلاقية روحية يحرص عليها في دستوره وآداب سلوكه أفرادا وجماعات .

وتحرس هذه القيم قوى روحية قبل أن تبرز لحمايتها قوى المادة والقوانين التى تنفذها السلطة .

ولا شك في اثر القيم في النفوس ، حتى الذين يتجاهلونها عند ما يقترفون اثما لا يجحدون حقيقة هذه القيم .

ولكن ما الغيرة التى يبديها رجال الفكر والادب والقلم في بلادنا اذا ما تعرضت القيم لبعض الفتن أو الغزوات ؟

بل أستطيع أن اتجاوز حدود بلادنا الى كل بلد ناطق بالضاد، فأجده مثلنا لا يتحرك من أجل القيم الانسانية التى تزين المجتمعات ، وفي الوقت نفسه تحفظه من الانهيار في داخل أعماقه وفي ظاهر سطوحه .

في حرب الجزائر مع فرنسا تعرضت القيم الانسانية كالعدل والحق والجمال والحرية لا عنف غزو وأقذره قامت به فرنسا التى تدعى انها من دول القيم الانسانية في العالم ، فهب أدباء فرنسا ورجال القلم والصحافة الحرة في وجه حكومة فرنسا واصدروا بيانات ضدها ، واستنكروا وحشيتها وصراعها الدامى من أجل ترسيخ قواعد الاستعمار .

ويعرف هؤلاء الادباء الفرنسيون الثائرون على حكومتهم أنهم

بثورتهم هذه انما يقللون من موارد شعب فرنسا ويسقطون هيبتها ، ولـكن ايمانهم بعظمـة القيم دفعهم دفعـــا الى الثورة على حكومتهم ليذودوا عن القيم ما يراد بها من سوء وأذى •

ولم تكن ثورة أدباء فرنسا من أجل منفعة شـــخصية لهم الا النفع الذى يصل الى امرىء يشعر أنه أدى واجبا كبيرا نحو الانسانية في أى بلد ، ولو كان هذا البلد يعادى بلاده •

كانت ثورتهم من أجـــل الاحتفاظ للقيم بقداســتها ورفعتها ولذلك كانت ثورة ذات عمق وذات ابعاد شاسعة وامتدادات واسعة حتى أصبح الرأى العالمى موارا بحركة السخط ضـــد وطنهم فرنسا دفاقا بالحب والتأييد للجزائر •

ولا شك أن مجتمعا يزخر بمثل اولئك الادباء الثوار من أجل الحق جدير بالاعجـــاب لانه مجتمـع لم يفـقد تماسكه ، بل يزداد تماسكا وأيدا ، وقمين بالاحترام لانه استطاع أن يبرز ثوارا يقفون في وجه ابناء وطنهم من الحكام لا يبالون سطوتهم في ســـبيل الحق الذى آمنوا بـــه •

ونشهد لادباء اوربا وأمريكا نشاطا ضخما كلما تعرضت القيم الانسانية لخطر أو غزو أو اهانة بل يبلغ نشاطهم حد الثـــورة في القضايا التى تقوم على أساس القيم ، فيصدرون البيانات ، ويطلقون النداءات تحذيرا وترغيبا •

أما في شرقنا العربى دون اســـتثناء لا تصدر الا « البيانـــات السياسية » التى تلدها المناسبة وتنتهى بانتهائها دون أن تترك الاثر الادبى الانسانى العظيم المتجدد •

من هذه الهزات الوافدة « دعـــوات » أو دعاوى يقصد منهـــا أصحابها الى اهدار الكرامة الانسانية بأهدار قيم الاســـلام في صور فكرية مختلفة أو ادبية متنوعة فلم نحرك ســـاكنا ، لان ما كتبناه دفاعا وغيرة لم يكن له أى أثر مما يدل عليه أنه لم يحرك ساكنا حقا •

بل ان الندرة النادرة وقفت دفاعا ، كأنها هى وحدهـــا التي تستأثر بخير الوطن والامة ، مـــع أن في الكثرة الكاثرة من الكتاب

والمفكرين من هم افادوا وبرزوا في المجتمع ، ولكن بعضهم جبن « خليك بعيد » وبعضهم « غويط » يحتاط للمستقبل .

ان قيم مجتمعنا تتعرض لهزات عنيفة كل العنف فلا احد ينهض للدفاع ، واذا وجد من ينهض تعاورته السهام ، وخاصمته الاقلام .

وأدباء اوروبا وأمريكا يغضبون على كائن من كان اذا وجدوا منه تسلطا أو تعرضا للادب والقيم .

بل يغضبون لاقل من ذلك ، يغضبون لحالات فردية يرون فيها اشعاعا لمعنى انسانى صغير في ظاهره ولكن فيه قدرة الشرر الذى يبدو صغيرا وتكمن فيه قوة كبيرة .

وفي بلادنا تعرضت القيم في ثلاث السنوات الاخيرة لهزات عنيفة . وفدت الينا من بلدان عربية قطعت صلاتها بالاسلام ، فكتب من كتب دفاعا وغيرة ثم مضت الكتابة الى حيث يلتهمها النسيان .

ولكننا نحن لا نغضب الا افرادا وكأن الامر لا يخص سوى الغاضب ولا يجد تأييدا من كل أصحاب الاقلام .

لماذا ؟ لان جماعة الفكر مساكين ضعفاء جبناء أصحاب مصالح رخيصة يتعلقون بأذيال الخوف أو الرياء أو « البعد غنيمة » .

بعضهم يلقى التبعة على الدولة ، وأنا لا أوافق . التبعة علينا نحن جماعة الفكر ، لاننا ضعفاء مساكين ، وخير من الدولة الا تعترف بناء ، ولو كنا أقوياء لنا احترام واجلال وقوة وهيبة لأجبرنا على الاعتراف بكياننا .

ولكنى مع هذا لا أعفى الدولة من التبعة في تجاهل الاديب وقيمة الادب والفن .

اذا كانت هناك دعوة رسمية دعى اليها « شيوخ » الحرف ، ولكن لا يدعى اديب بشخصه الادبى .

نعم ، لم يدع أديب لادبه من قبل رجال الدعوة الرسمية مما يدل على « عدم الاعتراف » بدولة الادب .

ليس هناك حتى الاعتراف الرسمى بالامر الواقع ، وهو وجود أدب وأدباء ملأ ضجيجهم الارض وغبارهم الفضاء .

ويعطى بعض الناس القابا فخرية ، والاديب المجاهد لا يجد طعامه الا بشق النفس فضلا عن لقب يعطاه تكريما .

ليس كل أديب هكذا ، فقد ابتسم الحظ لكثير ، ولكنى اعرف ادباء بعضهم مجهود وبعضهم لا يزال حتى الآن منهوكا .

ألا يستحق بعض الادباء والمفكرين أى تكريم من الدولة ، اطلاق اسم أديب على شارع أو ميدان أو زقاق مثلا وعلى الاقل .

أريد من جماعة الادب والفكر أن يجدوا ويعملوا لوطنهم ولدينهم وللقيم الانسانية عامة ، لان الادب مصدر النهضات جميعها، نشعر بالنقص فنسعى الى الكمال ، ونحس بالجوع والظمأ فنلتمس الرى والشبع ونرغب في التقدم ونطلب العز .

وكل هذا شعور أدبى يحييه الادب الذى فقد قيمته رسميا .

لا بد أن يكون للادب رابطة ، وللادباء وكل جماعة الفكر مجمع اذا أردنا للادباء أن يكونوا حراسا أقوياء للقيم الانسانية يذودون عن حماها من يريد أن يصيبها بسوء ؟

نشرت بجريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ (١٩٥٨ م)

* * *

ماذا افدت من الأدب

لا جواب عندى الا أننى لم أفد منه شيئا يذكر لا في الناحية الادبية ولا المــادية ٠

ولعل من يعرفنى تملكه الدهشة من الجواب ٠ ويزعم : أننى استطعت أن أملك بيتا أو بعض بيت ، وأملـــك مكتبة لعلها أكبر مكتبة يملكها فرد في جزيرة العرب ولى شهرة ، ولى مؤلفات ، ولى اسم لامع وصوت مبين وقراء ومعجبون ٠

كل هذا صحيح ومع هذا لا يزال جوابى هو جوابى ٠

فمن ناحية الحطام الذى أملـكه لا قيمة لـــه في مجـال تقدير الثروات والذخائر ، بل ما أملكه لســـت متفردا فيـــه على أقرانى وما عندى من الحـــطام بعضه مـيراث وبعضـــه الآخر كسب يد حـــلال ، وكله لا يذكر بجـــانب أقرانى ، بـل أنـا بالنسـبة لهم فقـــير مدقع ، وغـيرى ممن هـو أقـــل منى قوة واقتـــدارا وفكرا أكثر منى مالا وثراء ، فلا امتياز ، ولا مجال للحسد من حقود لئيم ، ولا داعى للغبطة من صديق حميم ٠

أما الناحية الادبية فلى فيها ما يظنه القارىء ربحا ، اســـم في كل مدينة من مدن هذه المملكة ، ولى صوت في العالم العربى ، ولى في بيئات العلم ومجامعه ذكر ، ولى في بيئات العلم المشتغلة بالعربيـة وعلوم الاستشراق مكان ، ولى بحوث تدرس ، و آراء تناقش ، وجهد مبارك منظور مقدور ٠

ومـع هـــذا لا يزال جـوابى هـو جـوابى الـذى قدمتـــه بـين يدى السؤال ٠

وأى ربح لى من هـــذا ؟

ان الربح لا يسمى ربحا الا اذا فاض عن رأس المال ، وفضل بعد اقتطاع أجر الجهد وقيمة العمـل ٠

فهل ثم فائض ؟ كلا ٠

ولو كنت أميا أو أفتح الحرف لربحت كثيرا ولكان خيرا لى ، نعم ، وأنا أعرف معنى الخير ٠

ان الفن الذى أخلصت له هذا العــمر الطويل أفضى بى الى شقاء طاحن وبلاء واصب ، حسد من هنا وهناك ، وعداء لا مسوغ له وشماتة لاهبة ، اذا رأى الناس لى ألف عمل صالح صمتوا ، واذا رأوا هفوة أو هنة طاروا بها فرحا ، وجعلوا من الحبة قبة ، واختلقوا أكاذيب وأباطيل حتى لا يكون موضع لمستزيد ٠

أشقانى الفن والاخلاص له ، فان أرسلت كلمة الحق وضعت في غير ميزانها ، وما من أحد نقدته مخلصا الا طوى صدره على حقد يحمله على أن يزيحنى من الوجود انتقاما وتشفيا ، ونثر في طريقى الشوك ، ونشر عنى الكذب ، وترصد خطواتى وحاربنى في رزقى ٠

وفي بضع السنين الاخيرة قام أصحاب المذاهب الهدامة بحرب لا تبقى ولا تذر ، أولئك هم الشيوعيون ٠

أفتيت بوجوب قتلهم كفرا ، فقاموا وقامت صحفهم يعلنون على « حرب الاكاذيب » وفي رسالتى المطبوعة بهــذا العنوان اشارة الى بعض ألوان هذه الحرب ، ولكنى والله لست فيها بجبان ولا خائف ، فأنا أحتقر الشيوعية ومعتنقيها ولا أباليهم ٠

واشتغالى بالفن الادبى واخلاصى له جعلانى أعتنق مثلا فاضلة وقيما انسانية أحيا لها وأعيش في رحابها مخلصا ، فاذا جئت أعامل الناس على أساسها وجدتنى شاذا منكورا ومحاربا مخذولا ٠

ولقد مرت بى في بضع السنين الماضية تجارب عرفت فيها أن كل ما في الحيــاة من قيــم ومثــل ان هى الا قبض الريح وباطل الاباطيل كما يزعمون ، يريد منك الناس أن تكون صاحب مثل حتى تكون موثوقا عندما ينالك أذاهم فما تستطيع دفاعا ، لان الدفاع يلزمك اتخاذ أسلحة من نوع أسلحتهم ، وأنت لا تستعملها لانها لا تتفق مع المثل التى تعيش من أجلها ٠

انك لا تبيح لخصمك القذر استعمال سلاح قذر ، فكيف تبيح لنفسك ما لا ترضاه لأقذر الناس ؟!

انهم يعيشون بلا أخلاق ولا مثــل ، وأنا صاحب دين أعيش بأخلاق ومثل ، وهى في طبعى ودمى وروحى وكيانى ، وتتغلغل في

كل خلية بجسمي فما أطيق الخلاص من قبضتها ولو أردت ، اريد أن أتحرر من المثل قليلا لاصارع أعدائي بأسلحتهم ، ولكنى لا أستطيع ، وهم يعلمون ذلك مني فيبالغون ويسرفون ٠

ان اشتغالى بالفن وقفني على نماذج في الانسانية من بني الانسان ، وقفت على حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام وعلى صحابتهم وأتباعهم فورثت بقدر طوقتي واستعدادى بعض ما فيهم ، ولولا اشتغالى بالفنون لما وقفت على تلك الخلائق والصفات ، ولما سرت المثل في دمى وشعورى ٠

فأنا صاحب مثل فطرت على كثير منها ، واكتسبت كثيرا منها وصرت أعفو وأنا قادر ، وأتسامح وأنا قوى ، وأزهد في المنكر وأنا غير عاجز ، وأتقي الله في سرى وعلانيتي ، وأغضب للحق ، وأجاهد في الله حق الجهاد ٠

وأى شقاء أشد من أن يحيا الانسان المثالى بين قوم فيهم من ينكرون الخالق ، ويتنكرون للاخلاق ، ويبيحون لانفسهم كل ما تاباه الفطرة ويمقته الخلق ٠

ان اشتغالى بالفن واخلاصى له عقلا لسانى وقلمى وجوارحى فلا أخوض معركة لغير وجه الحق ، ولا أذكر العورات التى تبيد وتمحق٠

انني رجعت بصفقة الخاسر المغبون من الادب ، لان نصيبى منه كان شقاء كله ٠

أبعد هذا أقول : انني أفدت من الادب أو ربحت من الفن ؟ لا ، لا لم أربح منه شيئا ، بل كان اشتغالى به سبب بلائى وشقائى ، ولولاه لكنت ناعم البال سعيدا ، وأستطيع أن أزعم أنني لو لم أشتغل به لكنت ميسورا مكفيا ، ولولاه لكنت هادئا مطمئنا ، لا يحسدنى أحد على امتياز عقلى أو خلقى ٠

أبعد هذا أقول : انني ربحت من الادب !

أى ربح وأنا لا أجد اللقمة الا بعد دك الصخور ؟

أى ربح ومثلى لا يجد عملا يناسبه ، مع أن تلامذتى يأمرون وينهون !

وبعد هذا يبرز لى سؤال : أأنا نادم على اشتغالى بالادب والعلم؟

الحق أننى غير نادم ، ولكن تمر أزمات نفسية أحمل شعورى الادبى والفنى تبعتها فـاذا مرت وصـــفت الروح رجعت الى نفسى ودفعتها في طريقها المرسوم ، وهو الاشتغال بالادب والاستمرار فيه.

ولعل قائلا يقـول : لمــاذا لا تترك الادب وقـــد جنى عليك وعـــلى رزقك ؟

وجـوابى قد مر ، وهو أن الفن في دمى ولا أطيق الخلاص من وثاقه ، والادب مزاج .

اننى خسرت بسبب الادب واشتغالى به مالى وصحتى وشبابى وضوء عينى وجهدى وعرق جبينى ، وحرمت أولادى وأهلى جهودى المثمرة ، ومع هذا لا يقفنى عن المضى في طريق الفن ما ألقى فيه من تعب وأذى وشـقاء .

ما أشبهنى بالمقامر ! انـه يقـــامر ويخسر ، وهـو يعرف أنه خاسر ، فاذا لمته وقلت لـــه : انـك واثق من خسارتك ، فكيـف تستمر ؟ ولماذا لا تتركه ؟ فيجيبك : انه مزاج .

مزاج !. نعم ، مزاج !.

وفرق بين أثر المزاجين : مزاج المقامر ومزاج الاديب .

ولئن كان في الشر مزاج يحمل صاحبه ــ المقامر ــ على الصـــبر والامعان في الجلد والاحتمال والاسراف في التضحية ، فان مما يحمل على الغبطة والاريحية أن يغذى مزاج الخير والصلاح .

ان الفن أذاقنى حلاوة الدين ، وفتح عينى على جمال القرآن وأرهف حسى ، وغذانى بالمثل ، وأتاح لى المعرفة ، وجعل منى أحـد حراس المجتمع الفاضل ، ووهب لى ملكة تفهم ما تســمع أو ترى ، وصقل حجاى ، ومنحنى امتيازا خلقيا وعقليا ، وهذا هو سبب الالم والشقاء ، وباعث التعب والعناء .

ولكنه ألم رفيع في سبيل الاشواق الانسانية وتطهير الروح ؟

نشرت بجريدة « البلاد » سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م)

انتاج أدباء الشباب

ما أكثر ما يكتب الشباب في صحفنا ، وأقرؤه وأقرأ ما يؤلفون من كتب ودواوين ، ويؤسفنى أن أقول : انهم أبعد ما يكونون عن التقيد بقوانين اللغة ، بل يستكبر الخطاءون على النصح ، ويبلغ ببعضهم الجهل والحنق أن يدعو الى الزراية بهذه القوانين اللغوية التى لا يمكن لانسان أن يكتب الا اذا تقيد بها .

وفيمن يكتب من هؤلاء الشباب يحسنون الكتابة ولكنهم يجهلون قواعد اللغة ، ولا يأخذون أنفسهم بها ، وفيهم من يقرأ الآداب الاجنبية في لغاتها الاصيلة فيرى الى أى مدى يتقيد كتابها وعلماؤها وأدباؤها بقوانين لغتهم .

حتى علماء الطبيعة والرياضيون والفلاسفة والاطباء يلتزمون قوانين الكتابة مثل انيشتاين وأدلر وفرويد .

ولو أخطأ كاتب انجليزى مثل أخطاء هؤلاء الشبان عندنا لما وجد ناشرا ، ولاتجه اليه اللوم والتأنيب ونصح بالتريث حتى يستقيم له نظام الكتابة .

أما هنا وفي العالم العربى فقد انقلب الوضع ، وأصبح الكمال سبة ، والنقيصة كمالا باسم الشعب المسكين ، اذا كتبت بأسلوب رفيع فأنت ارستقراطى ، والركاكة هى الكمال .

وما ثم سبة للشعب أشنع من هذه السبة .

ان بعض كتابنا الناشئين يحسنون الكتابة ويتقيدون بقوانين اللغة ، وهؤلاء يرجى منهم الخير في مستقبلهم اذا لم ينقطعوا عنها .

وما ثم شك أن من يحسن الكتابة ويتقيد بالقوانين اللغوية تتم له أسباب القدرة ، واذا فقد أحد هذين الامرين كان ناقصا ، وما يعتبر النقص كمالا والكمال نقصا الا العاجزون .

والتقليد من سمات ما يكتب ، أو أكثر ما ينشر ، ولو كان التقليد للاعلياء لقلنا مرانة الناشىء تنتهى به الى أسلوب خاص

بأدبه وفنه ، ولكنه تقليد العجزة الناقصين لا ينجم عنه الا الاسفاف والركاكة .

ومن الخير للناشئة وحملة القلم من الشباب أن يأخذوا أنفسهم بشيء غير يسير من الشدة والثقل حتى يمرنوا على احتمال ما فوق الطاقة ليعود سهلا ميسورا مع الرياضة والتعود .

ويحزنني من هؤلاء الشباب الانصراف عن التوسع في الاطلاع ، والاعراض عن القراءة النهمة التي تلتهم كل ما تجد .

وأعرف أعلاما من هؤلاء الشباب لم يقرأوا الادب العربي القديم شعرا ونثرا ، مع أن أمثالهم في انجلترا ـ مثلا ـ لم يقتصروا مثلهم على قراءة انتاج المعاصرين بل قرأوا في الادب الانجليزي ما يشبه الادب الجاهلي عندنا ، ما من انجليزي في سنهم الا وقرأ شكسبير وملتون وديكنز وهاردي وشيلي وبيرون وكيتس ، بل قرأ لاعلام الادب في العالم مما ترجم الى الانجليزية .

وعلى سبيل المثال أقول : ان أي أديب من هؤلاء لم يقرأ قصة « ابن الطبيعة » للقصصي الروسي هانزيباشيف ، ولم يسمع به ، مع أنها من أروع القصص العالمي .

بل لم يقرأوا مسرحيات شكسبير المشهور الا ما ندر منها حتى قصة « عطيل » أو « عطاء الله » التي تقوم على تصوير شخصية عربية أو شرقية افريقية لم يقرأها الا آحاد .

وتسمى هذه القصة في الآداب الاوروبية « اتيلو » بتشديد اللام ، وعربها بعض المترجمين العرب « اتيلا » وبالعربية : عطيل أو عطاء الله كما قلت .

ويسرني أن يكون هؤلاء الشباب أدباء المستقبل ومفكريه حقا ، ولكن لا مستقبل بدون ماض ، فلا مفر لهم من قراءة الادب العربي نظمه ونثره وقراءة القرآن الكريم والحديث حتى تقوى أساليبهم ، وما يسلس قيادة الادب لمن قطع صلته بماضيه ، فالمستقبل ـ دائما ـ يحمل على ظهره الماضي والماضي أضخم من المستقبل .

وأضرب المثل بعبد الفتاح أبي مدين ، فهو من هؤلاء الشباب ، وان كان تجاوز طور النشوء بمسافات بعيدة .

هذا الشاب الاديب لم يقتصر في قراءاته على الادب المعاصر السهل الذى ينتجه الشباب والناشئة ، بل قرأ هؤلاء ومن هم فوقهم ، وقرأ الادب العربى شعرا ونثرا ، وحفظ من القرآن والحديث شطرا ، وتضيفهما كثيرا حتى استقام له أسلوب التفكير وأسلوب العرض الادبى •

كان أبو مدين يقلد طه تقليدا ، ويحاكى أسلوبه محاكاة ، فلما اتسعت له آفاق القراءة وتغلغل في الكتب القديمة تخلص من المحاكاة وانطلق من اسار التقليد فصار له أسلوب يعرف به ، ووثب من الصفوف الخلفية وثبات حتى صار في الطلائع يزاحم الاقوياء •

وأريد من أدباء الشباب أن يكونوا مثل من ضربت به المثل حتى يكمل لادبهم ما يؤاخذون ـ الآن ـ عليه وهو نقص بعض مقوماته •

وما أظنهم الا آخذين بأسباب النماء والقوة اذا أرادوا أن يكونوا ذوى قدرة على انتاج رفيع لا يتبخر تحت أضواء النقد المحرقة ؟

نشرت بجريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢) م •

* * *

يصك

ممنــوع المــرور

أى المعـارك هـــذه التى يزعمون أنهــا قائمة بين الشيوخ والشباب ؟ أارسال كلمة جائرة تعد معركة ؟

ان المعارك تنشب بين متخالفين في الرأى والعقيدة والمقاصد ، فما هذه الآراء التى يختلف عليها الشيوخ والشباب في الادب ؟

ان بعض الشباب يظن أن الخلاف في السن وحدها معركـة أو سببها ، فاذا كنت في الاربعين وهو في الثلاثين فهناك معركة ، لان هناك فارقا في السن .

وما كانت السن في الادب مدعاة الى خلاف أو معركة ، ولكن تنشب المعارك الادبية من أجل خلاف في الآراء والمناهج ، فما الخلاف بين الشباب والشيوخ ـ كما يزعم الزاعمون ـ ؟

أى رأى اختلف فيه الشباب والشيوخ ؟

هناك مآخذ يأخذها الشيوخ على الشباب ، وهو التعجل والفطر وضحل الثقافة وضآلة المحصول وقلة القراءة ، ومع كل هذا يتجنى الشـــباب على الشيوخ !

أوقف شـــيخ في وجـه شــاب وقــال لـه : « يصــــك » ممنوع المرور أو الدخول ؟

هذا « أبو مدين » شاب ، ولكن الله عافاه مما ابتلى به كثيرا من الشباب ، فلم يظن « الحبــــة » التى يقدمهــا « قبة » ولم يظن « ذهب » الناس نحاسا ولا نحاسه ذهبا ، لان له عقلا وذوقا وخلقا ، يعرف في نفســـه الضعـف فيلتمس أسـباب القـــوة ، والنقص فيعمل من أجل الكمال .

هـــذا « أبو مدين » لم يستبد بـــه الغرور فمشى في طريق « التحصيل » وانما الموهبة واربـــاء الاحســـاس عن طريق القراءة الدائمة والاطلاع الواسع ، فأفاد عقله وتجاربه واحساسه بما أضاف الى طبعه كل مكسوب أطاقه فتقـدم من الصفوف الخلفيـة ليحمل

الراية مع المتقدمين ، ولم يجد ممن هم أكبر منه من يقول له : « يصك » ممنوع المرور أو التقدم والبروز •

بل لا ينكر « أبو مدين » ان من هم أكبر منه سنا ـ على الاقل ـ دفعوا به لانه قدم « انتاجا » يستحق أن يترك الصفوف الخلفية ويحمل الراية مع من يحملونها •

والنفيس نفيس حيثما كان ـ كما يقول المتنبى ـ تستطيع نفاسته أن تدفع به الى القيادة أو البروز دون أن يقال له : « يصك » واذا قيل له ذلك فانه لن يخيفه المنع لان لديه قوة زاحفة ما يقفها من يعترضها •

فهذا الاتهام الذى يقذف به بعض الشباب الشيوخ ، ويخدعون أنفسهم بأنهم محاربون منهم انما هو اتهام العاجز للقادرين والمحروم للموسع عليهم •

والاديب عبد العزيز فرشوطى الذى يحمل عصا « دون كيشوت » ويجحد فضل الكبار عليه ويهوى بعصاه على رؤوسهم ويتهمهم بكل نقيصة لا يستطيع أن يجحد فضل تشجيع من يكبرونه سنا وعلما وأدبا •

واتهامه اياهم باطل ، ومع هذا كله يردد الشكوى ويلبس ثوب المظلوم والحمل مع أنه هو نفسه الظالم المقدام الجرىء ، ففى حديثه مع الاستاذ محمد سعيد باعشن الذى نشر في « الرائد » الغراء بأحد أعدادها الماضية مقالا يفهم منه أن هناك معارك بين طائفة الشيوخ وطائفة الشباب ، ثم قال له الفرشوطى : « ان الاستاذ العطار هاجمنى بدون سبب أو داع لهذا الهجوم وخرج من موضوع النقاش الى أشياء كثيرة لا حاجة لذكرها الآن » •

ونسى الاديب الفرشوطى نفسه فهو ينكر علينا ما ينكر ، ثم يتجنى ويهاجم ، فاذا رددنا عليه زعم أن ردنا كان « بدون سبب أو داع » وسمى ما نرد به خروجا من موضوع النقاش •

أى نقاش يا سيد فرشوطى ؟ أما كتبته يستحق نقاشا ؟

ان كل ما كتبه هجوم وتجن وتحامل وحمل عصا الاستاذية يضرب بها الاكابر ، فقلنا انه هو الجدير بها دون سواه •

ونحن نقول له : ليس هناك حسد من شيخ على شاب مثله ، أو من أديب كبير عليه لانه يعلم حق العلم أنه لا مجال لمزاحمة الكبار اياه .

ولم يقدم الاديب الفرشوطى رأيا يشتجر حوله الخلاف ويدب فيه النقاش ، بل قال كلاما فطيرا لا علاقة له بالفن والادب والفكر ، لانه كلام تنطلق منه قذائف التهم والتطاول والغرور .

والشيء الذى أستطيع أن أقوله وأنا مطمئن وحزين : ان شبابنا ـ الا النادر ـ يفزعون من مشقة التحصيل ، ويكتفون بالمعطيات ـ التى تسبق البديهيات ـ ثم يخرجون بنتاج فطير لا قيمة له في ميزان الشعور والفنون .

وكل ما لديهم قراءات هزيلة لا تضيف الى قارئ جديدا ، ولا تكسبه ذخيرة ورواء .

ثم ان كل ما أقرأ لادباء الشباب مزدحم بالخطأ في العربية وأساليبها وقوانينها ، وكأنهم يتحدثون بالعامية ويكتبون بها .

ومثل هذا النقص لا يدفع بهم الى تسلم القيادة الا اذا استحالت الآداب كلاما عاميا لا يتقيد بقوانين العربية ، والا اذا ساد المجتمع قوم يرون الكمال عيبا ، والمزايا نقائص ، والامتياز جرما .

* * *

انتكاس

بعض الناشئة

كتب الاديب عبد العزيز فرشوطي مقالا في صحيفة « الرائد » الغراء الصادرة في الاسبوع الماضي تحت عنوان « انتكاسة الادب ومسئولية الادباء » حمل فيه على الادب والادباء ، ووجه هجومه العنيف على الادباء الكبار ، ومن جملة قوله :

«قرأنا على صفحات صوت الحجاز في الاعداد التي وصلت الى أيدينا آراء وافكارا جيدة لادباء كانوا شبانا يافعين في ذلك الوقت ، ويقال لهم اليوم اساتذة جيل وادباء كبار ، ومع احترامي لادبائنا الكبار اقول وبكل أسف ان أكثر الشباب لا يعترفون لهم بهذه الالقاب لانهم لم يكملوا رسالتهم وقد تركوهم في منتصف الطريق » .

ويقول الاديب الفرشوطي :

« كل ما يكتب ويقال عن الادب ما هو الا قشور ليس فيه عمق البحث ولا اشراقة الفكر » .

ويقول: «واذا أردنيا أن نفتش عن أدبائنا الكبار أمثال العواد ، والآشي ، والفقي ، والعطار ، والانصاري وغيرهم اذا أردنا أن نفتش عن هؤلاء نجد أنهم آثروا الصمت وتخلوا عن المسئولية وعن المشاركة ، ومع أنهم لم يبلغوا المكانة التي بلغها غيرهم في عالم الادب في البلاد العربية الاخرى ، فكيف بهم وهم لا يزالون يعتبرون في دور التكوين والنضوج ، ومع هذا فنحن نعتبرهم الطليعة في البلاد وهم مسئولون عن انتكاسة الادب في بلادنا ... الخ » .

وكل ما كتبه مثل هذا « الهذر » وأنا أسميه هذرا لانه الاسم الذى يطلق على مثل هذا القول الذى أرسله الاديب الفرشوطي الذى ينقض آخر كلامه أوله ، وكأنه يرسل القول دون أن يعي حقيقته .

انه يقول : « يقال لهم اليوم أساتذة جيل وأدباء كبار » من يقول عنهم ذلك ؟ أليس هو وغيره ممن هم مثله أو خير منه يقولون

ذلك ؟ وما ذنبهم ؟ أو ما وجه اللوم اذا قيل : انهم أساتذة جيـل وأدبـــاء كبـــار ؟!

واذا لم يعترف أكثر الشباب بهذه الالقاب فما الضير ؟ انه هو نفسه ينكر ولكن الواقع يصدمه فيحمله على الاعتراف .

ولماذا يكونون هم وحدهم المسئولين ؟ واذا كـانوا لـم يكملوا الرسالة وتركوا الشباب في منتصف الطريق فمن من الادباء أكمل الرسالة في أى مكان في العالم ؟ انهم يؤدون الرسالة حقا ، ويتركون الشباب في منتصف الطريق دائما لانهم اذا أخذوا بأيديهم الى نهايته فماذا يبقى لهم من عمل يؤدونه ؟ انهم وصلوا الى نهـاية الطريق ، فهل بعد هـذه النـــهاية بدايـة ؟ كـــلا ، لان النهـــاية في مثـل هذه الامور لن تكون .

واذا كان « الكبار » لم يكملوا الرســالة فأين الصفوف التى بعدهم ؟ لماذا لا يكملون ؟ لماذا لا يكمل السيد الفرشوطى ؟

ان الكمال اذا أدركناه فقد انتهى كل شيء لانه لا مطلب بعده ولكن الصبوة الى الكمـــال الذى لن يبلـغه بشر تدفع بالبشرية الى التقدم ، وما يزالون يتقدمون حتى تنتهى الحياة وهم ـ بعد ـ لـو عاشوا بلايين السنين لكان النقص أزيد من البداية .

واذا كان الشباب ـ كل الشباب ـ مثل السيد الفرشوطى فيا ويل الانسانية منهم ! لانها ماذا تصنع بمن يهدم ولا يبـنى ، ويقـــول ولا يعى .

وأى هـــدم أشـــد وقول أبعـــد عـــن الوعى من قـــول الاديب الفرشوطى :

« كل ما يكتب ويقال عن الادب ما هو الا قشور ليس فيـه عمق البحث ولا اشراقة الفكر » .

أصحيح هذا ؟

ثم يستثنى السيد الفرشوطى كاتبـــا واحـــدا دون الكتاب جميعـا ، وهو استثناء يرد عليـه من استثناه بعنف لان الموازين لا تضطرب في يده اضطرابها في يد الفرشوطى .

ويظهر ان السيد الفرشوطى هبط من عالم غريب فأنكر كل شيء الا ما استثنى أو من استثناه دون الآخرين ، فزعم أننى أنـــا وغيرى آثرنا الصمت !

ولو كان الناس كالسيد الفرشوطى لكان الصمت أولى بنـا ، لان الجحود اذا انتهى بالمرء كما انتهى بــه فـلا جدوى في منطق عـــلى وجه الارض •

أين الصمت بالنسبة لى ـ مثلا ـ ؟ ان من يكتب ثلاثين سنة دراكا ، وينشر على الناس أكثر من عشرين كتابا ، ويكتب خلال كل سنة ما يملأ مجلدات ، لا يتهم بالصمت •

وما زلت أغذى الصحافة والادب والفكر •

ثم ان فيمـــا كتبـت أبعـــد مـــا يكون عمـــا « حكره » على واحـــد دون سواه •

أما أننا لم نبلغ « المكانة التى بلغـــها غيرنا في البلاد العربية الاخرى » فلا يقرره مثل السيد الفرشوطى ، لان لنا أدبا لا يقل عن أرفع الآداب العربية ، وانتاجنا الادبى والفكرى أكثر اشراقا وسطوعا واصالة ونضجـا من آلاف الصفحـــات التى تقذفنـا بهـــا مطابع هـــــذه الايـــام •

ثم ان السيد الفرشوطى يدعى ان الادباء الكبار « لا يزالون يعتبرون في دور التـــكوين » ثـــم يقـــول : « ومـع هـــذا فنحن نعتـــبرهم الطليعة » •

« كتر خيرك » ومعذرة اذا قلتها بالعامية •

نعم ، كتر خيرك ! لانه أفضل عليهم بالطليعة ، وكان حريا الا يصنع ذلك أو يصنعوه لانــه مغاير للحق ، والذين يقولون غير مـا يعتقدون ويعملون غير ما يريدون ليسوا بأهـــل لان يحتملوا أى تبعة من تبعـــات الفكر •

اذا كانوا بعد هـــذا الزمن الطويل في دور التـكوين فان من بلاهة السيد الفرشوطى أن يعتبرهم طليعة !

واذا كانوا بعد هذا الزمن في دور التكوين فان من الحماقـة والجهل اعتبارهم طليعة ما داموا ليسوا أهلا لان يكونوها •

وان من يعتبر من يقضى عمره في دور التكوين طليعة يعد جانيا ولا يشاركه في الاثم أولئك المساكين •

ولو كان السيد الفرشوطى يكتب وهو آبه لتبعة القول والفكر ما أباح لنفسه هذا « الهذر » الذى لا يجد له مكانا في عالم الادب والبيان •

ولماذا يكون الادباء الكبار مسئولين عن « الانتكاسة » ما دامت التجارب وبحوث السيد الفرشوطى أقنعته بأنهم في دور التكوين ؟ وهل يطلب من كان في هذا الدور أن يحمل ثقلا •

البركة في السيد الفرشوطى ونحب أن نرى منه ما يقضى على تلك « الانتكاسة » ولماذا لا يقوم وأمثاله بالتقدم والنهضة ؟

لماذا يطلب من غيره ذلك ما دام معتقدا أنهم في دور التكوين وانهم غير معترف بهم من قبل أكثر الشباب ؟!

ان هذه العصا التى يحملها السيد الفرشوطى ليضرب بها غيره هو أولى بها ، لعله يثوب الى الرشد فيعقل •

وان من انقلاب الموازين رأسا على عقب أن يبيح من كان مثل السيد الفرشوطى لنفسه حمل عصا يؤدب بها من يكبرونه في حين انه هو المحتاج الى هذه العصا ؟

نشرت بجريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢) م •

★ ★ ★

القراء قديماً وحديثاً

ذكرني انصراف الشباب عن القراءة أو قلتها لديهم بالقراء قديما وحديثا ، ولعل القراء قديما كانوا أكثر اخلاصا من القراء المحدثين أو من أكثرهم .

فالآن ، القراءة سهلة ميسورة رخيصة ، يستطيعها الانسان دون أن يبذل جهدا كجهد القارىء في قديم الزمان ، فالآن تدفع بضعة قروش فتقرأ كتابا وتقتنيه ، وتقرؤه في طباعة أنيقة ، وورق جيد ، وحرف واضح ، وكتابة مأمونة الزلل .

أما القارىء القديم فكان يتعب كثيرا ، لان الكتب كانت مخطوطة وعددها يسير ، والنسخ يكلفه كثيرا ، حبرا وورقا ، يدفع فيهما أكثر مما يدفعه الواحد منا قيمة للكتاب نفسه ، ثم ينسخه بخطه .

وما كان يجد كل راغب في القراءة كل كتاب ، بل كانت أمصار كثيرة خالية من كتب كثيرة فابن خلدون كان يتحرق شوقا الى جزء من « الاغانى » لابى فرج الاصفهانى ، ومات دون أن يجده .

وصاحب كتاب « الطراز » عجز عن الاطلاع على مؤلفات الجرجاني .

وبعض القراء كانوا يقصدون مواقع الحج والزيارة وينادون في مجتمعات الحجاج والزوار ويعلنون فيها عن كتب يحتاجون اليها .

وكثير من القراء يرحلون من بلد الى بلد بحثا عن كتاب يقرأونه أو ينسخونه .

وندر بين قراء هذه الايام من يتعب تعب الاسلاف المولعين بالقراءة ، ومع كل أسباب السهولة واليسر في الحصول على الكتب لا نجد بين الشعوب العربية جميعها قراء الا قليلا .

وفي بلادنا ندر وجود قراء جادين ، وبخاصة في بيئة الشباب حتى الذين يكتبون في الصحف ويؤلفون الكتب لا يقرأون الا قليلا

وقراءتهم ضيقة محدودة ، وأستطيع أن أقول ـ وأنا آمن مطمئن ـ : انهم لم يقرأوا أمهات كتب الادب العربى القديم ، ولم يقرأوا أمهات كتب الادب الحـــديث ٠

ومثل هذا الانصراف أو الجهل لا يكسب عقـــل الاديب أو الكاتب ثروة ، ولهذا نجد أســاليب كتابنــا الناشئين ضعيفة ، لان محصولهم من القراءة العالية ضئيل الى حد بعيد ٠

واذا وجد كاتب أو اثنان من الناشــئة يحسنان الكتابة فمرد ذلك الى القراءة العــالية والتفطن الى أدوات الكتابــة التى لا تكون الكتابة صحيحة الا بهــا ٠

وان حزنى من ذلك حزن الاب على أولاد جهلاء يترك لهم ذخيرة علمية وأدبيـــة ضخــمة ٠

فالسيد الفرشوطى وأمثاله من الناشئة ممن يودون أن يكونوا أدباء وكتابا يجب أن يقرأوا كثيرا وأن يعرفوا قوانين الكتــابة من نحو وصرف ولغة وغيرهــا حتى تكون كتابتــهم سليمة لا كلامــا أشبه بكلام العــامة ٠

وليس ذلك بعسير عليهم في هذا العصر السخى ، بل هو سهل كسهولة الحصول على المـــاء ٠

ليقرأوا كثيرا وليتركوا الشغب والغرور والادعاء ، فما هذه الاخلاق بمعطيتهم ما يريدون ، اذا كانوا يريدون المثل العليا حقا ٠

نشرت بجريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) ٠

روائع الادب

كنت أقرأ روائع الادب العالمى والانتاج الفكرى فيما ينقل الى اللغة العربية في الصحف والكتب والدواوين ، ولكن حركة الترجمة ما كانت لتشبع رغبة النفس الى المزيد من القراءة والاطلاع .

وترددى على مصر كثيرا ، وسكنى بهـــا عديدا من السنوات أتاحا لى أن « أوظف » مترجما خاصا بى يقرأ أمامى الروائع في لغتها الانجليزية أو الفرنسية ويترجمها الى العربية خطابا لا كتابا .

بل كنت أنتهز فرصة زائر يجيـــد لغـة فأقدم له كتابا أو صحيفة يترجم لى منها وبذلك قرأت ما لا أحصيه في لغـة الانجليز والفرنسيين والطليان والالمان ، قرأت روائع آدابهم .

واذكر اننى قرأت قصة « المفتش » لجوجول في بضع صفحات لبرنارد شو مترجمة الى العربية منـــذ ست وعشرين سنة ، وكنت معجبا بها ، وفي أحدى رحلاتى قرأتها على طريقتى بالانجليزية .

حتى ان الاستاذ الجليل عبد الله عبد الجبـار اهدى لى بعض مؤلفات فلبى بالانجليزية ، كما اهدى الى الاستاذ ميشيل تكلا بعض روائع طاغور باللغة الانكليزية ايضا ، وقرأتها في لغتها بوســـاطة المترجمـــــين .

وقرأت في اللغـــة البنغالية مئات القصص وآلاف المقـــالات والكلمات على طريقتى .

وفي رحلتى الى سويسرا للعلاج منذ ستة شهور منعنى الطبيب من القراءة ، فدفعت الى صديق عربى نقـــودا يشترى لى بها بعض قصص هاينى واشـــعار جوته وشلر باللغة الالمـانية ، فاشتراها ، وكان يقرأ لى كل يوم منها أكثر من سبع ساعات .

واذكر اننى قرأت قصـة « البربريـــة تبحـــث عـن الله » من مجلة « الهلال » التى نشرتـــه ، وفي بضع أعمـــدة من بعض

الصحف ، وهي قصة رائعة الحسن ، وحرصت على ان اطلع على المسرحية كاملة فبعثت الى لندن وأحضرت الطبعة الانجليزية وقرأتها وسحرتني قصة « جوجول » أى سحر ، قرأتها خمس مرات في أوقات مختلفة ، اثنتين منها دراكا ، وكادت الترجمة في المرات الخمس تكاد تكون واحدة ، لانني كنت أختار البارعين في الانجليزية للترجمة .

وافادتني هذه القراءة كثيرا ، وانا ـ الآن ـ أتمنى ان تتاح لى فرصة تعلم الانجليزية ، ولكن التفرغ لتعلمها سنة يقتضيني مالا أتركه لأسرة كبيرة ، ومالا أصحبه معى لنفقاتي ، فلأنتظر حتى يتجمع هذا المال ، ومعنى هذا ان الفرصة لن تتاح لى الا بمعجزة ، فالصحف قد ألغيت امتيازاتها ، وكنت أمني النفس أن تتكفل عكاظ بما اريد ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

وصديقنا الاستاذ عبد الفتاح ابو مدين بلغ به الشوق مبلغى ، ولكنه خفيف الحمل ليس كمثلي ثقيله فرحل الى انجلترا منذ ستة شهور يتعلم الانجليزية ، وقد تقدم فيها كثيرا .

ويعلم الله انني كنت في صغرى اتعلم الانجليزية ، وفي كلية دار العلوم ـ عندما كنت طالبا سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) ـ ساعدتنا الكلية بساعة قبل بدء الدراسة في الصباح ، فكنت ابرع طالب ، ولكن عودتي المغصوبة الى بلدى والحاجة وشغل الوقت بالعمل والقراءة العربية اضاعت ما تعلمته .

واعود الى مسرحية « المفتش » لجوجول لاقول : انها كانت احدى المسرحيات التي أعجبتني كثيرا ، واضحكتني على غفلة حكام مدينة وانهماكهم في الظلم والارتشاء ، ومن عظم اعجابي قرأتها بالانجليزية خمس مرات ، وترجمتها بقلمي واسلوبى ، ثم عن لى ان اتصرف في الترجمة وانقلها بحيث تصلح للجو العربى في أى بلد وللتمثيل في جونا .

وعندما بنى الاستاذ أحمد السباعي مسرحه قلت : « فرجت » وآن أوان تمثيلها وكسب بضعة آلاف من الريالات تلقاء تمثيلها

بمسرح الاستاذ السباعى الذى قرر ان يدفع مكافـأة سـخية لكتاب المسرحيات أو مترجميها ٠

وقلت في نفسي : سيتمتع كل من يشهد هذه المسرحية بقضاء بضع ســاعات في جو مرح ضاحك ، ولـكن المسرح بقى مغلقـا ، والمسرحية موءودة في مكتبى ٠

وما أدرى أأطبع « المفتش » فمن فاته المسرح لا يفوته الكتاب ؟ فلكل طعمه الخاص !٠

لعلى أطبع المسرحية قريبا ؟

نشرت بجريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) ٠

* * *

ادب السرير

ان جوانب الشر في العالم أكثر من جوانب الخـير ، وكل شيء ممتاز نادر الوجود قليـل الكميـة في الانسان والحيوان والنبـات والجماد ، وما يتفاضل النـاس بعضهم عـلى بعض فيما يأتون من المناكر والموبقات ، بل في جلائل الاعمال وكريم الصفات •

والرواج ليس دليـلا على نفاسـة الشيء ، فقـد يبـاع من « نوادر جحا » ونكات « اساعيل ياسين » عشرات الالوف من النسخ ولا يباع من كتاب لارسطو أو العقاد أو ديوان شـعر لابن الرومى الا مئات النسخ في شهور ! أفمعنى هذا ان « نكات اسماعيل ياسين» خير من ديوان ابن الرومى ؟

وراج في هـذه الايـام بين البنـين والبنات قصص الاباحية والخلاعة والمجون ، وظن أصحاب هذه القصص أنهم أصبحوا عباقرة لان السـوق تلتهم من كتبهم آلاف النسخ ! ومن هؤلاء من يسمى « احسان عبد القدوس » ا[illegible]مى أدبه الغث الماجن أدب السرير •

كنت ذات مرة عند صديقى كاتب العربية ومفخرتها الاسـتاذ العقاد فسألنى بحضرته أحد من يشرفون بمجلسه عن أدب احسـان وكتبه ، فأجبته : انه أدب سرير فقـال الاستاذ العقـاد : انه أدب الفراش ، وكلا المقصدين واحد •

ثم قلت : لو ان أمرأة تجردت عن ملابسها ووقف آلاف الناس يستمتعون بجسمها العارى أكان يعد ذلك مزية من المزايا الفنية أو الانسانية ؟ احضر امرأة وجردها من ملابسـها تجد الآلاف تحتشد ، وهؤلاء هـم قراء احسـان وانك لن تجد بينهم الا ممسوخ الطبيعة الانسانية مدخول الشعور مريض الاحساس ضعيف الملـكات ولن تجد بينهم انسانا شريفا •

واذا قرأ احدى قصصه انسان شريف فلـيرى ما « بالماخور »

لا ليدخل في زمرة أساراه ٠

ولشد ما اشقاني أن رأيت قصص هذا المسىء في مكة ، ويسال عنها الشباب الفارغ الممسوخ ، ولو سأل عنها لمـــا كان ألمى بالغا ، ولـــكن السائل عن قصـــة لهـذا الكاتب المـاجن فتـــاة ، بنت في عمر الورود ٠

وحدثني الاستاذ حسين سرحان أنه كان بأحدى المكتبات بمكة المكرمة فرأى ما رأيت ، رأى بنتا تسأل عن كتاب « في بيتنا رجل » لاحسان المسوخ ، فثار في وجهها ونصحها ، ولكنها اشترته ٠

وحدثني الاستاذ حسين سرحان أنه كان بأحدى المكتبات بمكة المكرمة فرأى ما رأيت ، رأى بنتا تسأل عن كتاب « في بيتنا رجل » لاحسان المسوخ ، فثار في وجهها ونصحها ، ولنها اشترته ٠

أين آباء هؤلاء البنات ؟ أين أولياء أمورهن ؟

كان أبى ــ والله ــ يمنعنى ويعاقبنى اذا رأى في مكتبتى مجلة « اللطائف المصورة » و « الدنيا المصورة » والمجلات التى تمهد الطريق لنفسها بنشر صور النساء في أوضاع شاذة ، وما زالت أمى ــ حفظها الله ــ يبلغ بهـا الاشمئزاز مبلغه اذا رأت عندى مجلة مثل هـــذه المجـلات ، وهى تعرف من أمرى ما تعرف ، تعرفنى رجـــلا متدينا شديد التمسك بالاسلام ، ومع هذا ترجو أن أقلع عن احضار هذه السوءات فاطعتها ، فما ترى في بيتى « المصور » وأمثالها ٠

وأننى أرجو من القائمين على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن رقابة المطبوعات أن يمنعوا دخول كل الكتب التى تشتمل على أدب السرير والعهر والفجور ٠

وان من التجنى على جيلنا الحاضر من البنين والبنات أن نجعل تحت أعينهم أمثال هذه الكتب السافلة ونغريهم على الشراء بعرضها أمامهم ، وأرجو من أصحـاب المكتبـات التجـــارية أن تمتـنع عن « استيراد » هذه الكتب التى لا أنظر اليها الا على أنها سموم تفتك بالاعراض وتزرى بالقيـــم ٠

جاء ذات مرة أحد هـؤلاء الذين يؤلفون مثـــل كتب احسان

عبد القدوس الى دار طباعية مسلمة بمصر يملكها أخ مسلم نبيل واتفق معه على أن يطبع له قصة خليعة ماجنة تدعو الى العهر وتصور ما يجرى على السرير ، فلـما اطلع عليـــها دفع الى اللعين كتـــابه وطرده ، ولكنه طبع عند غيره ٠

وخسر الاخ المسلم بعمله هذا ربحا وفيرا، ولكن ليس المال الحرام ذخرا نفيسا حتى يعد المتعفف عنه خاسرا ، انه رابح ٠

وليس أصحاب المكتبات في بلادنـا بأقل من هذا المســلم ، ولهذا فانني مطمئن الى أنهم ســيتلفون مـا لديهم من قصص أدب السرير ويمتنعون عن « توريده » الى بلادنا الطاهرة ؟

نشرت بجريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٧ هـ ٠

* * *

أدب السرير

- ٢ -

نشرت بجريدة « المدينة المنورة » كلمة لى في « أدب السرير » وأشرت الى احسان عبد القدوس ، وذكرت أن كتبه دعوة الى الانحلال الخلقى وتحطيم للدين واغراء للناشئة أن تخرج على الفضيلة ، وكفر بالاخلاق ، وطلبت منع هذه الكتب من بلادنا المقدسة حماية لاولادنا ذكورا وأناثا ، واتهمت قارئها .

نشرت ذلك فتصدى لى علـى بوخمسـين في مجــلة « الخليج العربى » بمقال ظهر لى منه أن بوخمسين تابع من أتباع احسان ومن قرائه وممن يغار على احسان وأدبه وقرائه ، وظهر لى أن احســان عند بوخمسين قدوة حسنة وداعية عظيم .

وما كنت أظن أن مخلوقا على وجه الارض ــ لا في بلادنا المقدسة بل في كل بلد ــ مخلوقا واحدا سوى الطبيعـة سـليم الفـطرة يقر « احسان » على انتاجه الماجن الخليع .

ولكن أسفت أن أرى في بلادنا من يهتف باسم احسان ويدافع عنه ويمدحه ويرفع قدره وشــأنه ، ولو أنصف لحــاربه وبصق في انتاجـه المرذول .

ان من يمدح هذا الكاتب فقد باء بخسران مبين ، وان بوخمسين لا يتهم بجهل احسان لانه برهن على أنه من قرائه وأنه محيط بكل ما أنتجه واطلع على كل ما ينشر بمجلته « روز اليوسف » .

ولعله اطلع على العدد ١٤٦٥ بالصفحة ٢٠ على مقال عنوانــه « الله » جاء فيه ما أنقل بعض فقراته :

« هل رأيت الخوف والذهول في عين الكلب وهو يتأمل ورقة طائرة في الهواء ، انه لا يرى الهواء ، وأراهن أنه ينظر الى الورقة كما ينظر الى مخلوق حى ، ويظن أن بها روحا تحركها ، انــه كلب متدين ، وفي الماضى كان الانسان أحمق من هذا الكلب » .

لماذا كان الانسان في الماضي أشد حماقة من هذا الكلب ؟
لانه متدين .

وجاء في المقال نفسه : « ان الاديان تمر بمرحلة انهيار .. والسبب .. هو العلم وتطور الوعي وظهور المعارف الجديدة » .

و « طالب الكيمياء أصبح يلهو بالعالم الذى ينحل ويتركب تحت بصره كل يوم دون أن يذكر اسم الله » .

و « ان كل ما تبقى من الاديان هى الايام المقدسة التى تحولت الآن الى اجازات وأيام راحة » .

ولا تكتفى « روز اليوسف » بهذا الكفر الشنيع تعلنه على الملأ ، بل تتجاوزه الى انكار وجود الله فتقول : « الله في العقل الحديث معناه الطاقة الخام التى في داخلنا . الله هو الحركة التى كشفها العلم في الذرة » .

هذا بعض ما جاء فيه عن الله سبحانه وتعالى في مجلة احسان « روز اليوسف » وبوخمسين لا يجهل شيئا من ذلك ، ومع هذا يهاجمنى لاننى نصحت الامة وطلبت منع رذائله عن ناشئتنا .

وانى لادهش أن يزعم بوخمسين في مقاله بجريد الخليج العربى ان « هذا النوع من الادب (أدب السرير) الذى رغم عيوبه يصور ناحية من الحياة » .

ويقول بوخمسين : « ان أكثر من قارىء قد ساءهم ما كتبه وانه فقد بذلك أكثر من صديق » أى أن هؤلاء ساءهم ما كتبت .

وبوخمسين يجهل مهمة الرسل والاسلام ، ولو كان تصوير ناحية من الحياة يبيح المنكر والرذائل لوجب أن تباح المحرمات جميعها لانها جزء من الحياة لا بعض صورها .

ان الاسلام يقطع الجزء اذا أجرم ، فاليد السارقة تقطع ، والسرقة جزء من الحياة ووجودها لا مفر منه .

فاذا مشينا على منطق بوخمسين لوجب اباحة كل ممنوع .

ثم ماذا يهمنى اذا فقدت الاصدقاء جميعا من أجل الله ؟ ثم ماذا يهمنى اذا استاء قوم يقرأون كتابات احسان ؟ اننى لم أبال أعظم منه

ومنهـم ، وقــد هاجمتـــنى « روز اليوســف » لانني هـــاجمت الشيوعية والشيوعيين •

وما أنا بخاسر من يتعلق بمن يؤذى الاسلام ورسوله وينكر وجود الله ، وليس بصديقى من كـــان يحب أعــداء الله ، وليخسر كاتب هذه السطور كل أصدقــائه في ســـبيل الله ، وحسبى الله ونعـــم الوكيـــل •

لقد حاربتني « روز اليوسف » ومعهـــا جيش من الماركسيين وأضاعوا على حقوقا كثيرة ، فما باليت ، وكل خسارة في سبيل الله ربح عظيم •

ولماذا حاربتنى هذه المجـــلة ؟ لانني أدافــع عن الاســـــلام وأحــــارب خصومه •

وبعد هذا ينبرى لى بوخمسين مدافعا عن احسان وكتبه التى تدعو الى الفسق والفجور •

وانى خصم « أدب السرير » وكتابه وقرائه ودعاته ، وليكن مـــا يكون ، والله متـــم نـــوره ولو كره الكـــافرون ، وان حزب الله هـــم الغـــالبون ؟

نشرت في جريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) -

ازمة النقد الأدبي

العقاد وحده كان امام النقد الحديث

كان النقد في بلادنا وليدا ، فهو عند بعضهم وليد قذر ممسوخ ، وعند بعضهم وليد كثير « الشيطنة » لا يعقل ، ولا يدرك نتائج أعماله ، وموجز القول فيه : انه وليد .

ومع ذلك أراه قد اختفى فلا تقرأ في صحفنا نقدا أدبيا ، وكل ما ينشر في هذا الباب محاولات ممن لا يجيدون هذا الفن العظيم ، وما أحب أن أذكر أسماء لان ذلك ليس بذى قيمة ، فنحن نتكلم عن الفكرة والعمل .

والنقد لا يختفى الا اذا اختفى الانتاج الجيد ، وأنا لا أشك ان الانتاج الجيد في الادب نادر ، وما أكاد أجده منذ بضع سنوات الا نادرا في قليل من الشعر والابيات ، وما عداه فكلام لا يتصل بالفن .

وأزمة النقد الادبى ليست خاصة ببلادنا ، بل أراها عامة في كل بلدان العالم العربى ، فبعد أن وضع العقاد والمازنى أسس النقد الادبى وقدما نماذج له لم نجد لذلك أثرا كبيرا اذا استثنينا بضعة نفر اختفوا باختفاء المجلات الادبية .

وما أشك أن العقاد والمازنى هما اللذان وضعا قواعد النقد الادبى ونقلاه من صورته القديمة التى كانت وقفا على الشكل الى نقد الاسلوب والفكرة ، أو نقد الشكل والمضمون ، وللعقاد كتب في النقد الادبى تكاد تنفرد في المكتبة العربية ، فكتابه « شعراء مصر وبيئاتهم » يكاد يكون النموذج الفذ بين كتب النقد الادبى ، فاذا أخذ بعض الناس على العقاد في « الديوان » العنف فانهم لن يستطيعوا في « شعراء مصر وبيئاتهم » الا التسليم بأن العقاد رائد النقد الحديث بحق .

وأنا أرى أن كتاب « الديوان » على ما فيه من عنف وشدة بعيدا

عن الحقد والشتائم ، لان العقاد أراد بهذا الكتاب مع صديقه المازنى أن يهدما الاساليب البالية لا أصحاب هذه الاساليب ، أراد أن يهدم الطريقة القديمة في الشعر ، وليست الطريقة القديمة التى يمثلها ابن الرومى والمتنبى ، بل طريقة ابن الوردى والصفى الحلى وأمثالهما من المقلدين ٠

أراد هدم التقليد ، وتجريد البناء الشعرى في الشكل والمضمون ، أراد أن تكون القصيدة كائنا حيا طبيعيا لا مخلوقا صناعيا ٠

والعقاد وحده كان امام النقد الادبى الحديث ثم جاء بعده قوم أرادوا أن يكونوا نقدة فأخفقوا اذ خرجوا بالنقد من طريقه القويم الى طريق معوج لا ينتهى الا الى الهوان كما ابتدأ من السباب والحقد ٠

والرافعى ـ رحمه الله ـ مع تقواه لم يستطع أن يكون ناقدا أدبيا نزيها ، لانه جعل النقد معركة تلعب فيها العصى وتتناثر في أجوائها الشتائم والموبقات ٠ وقلده بعض المرتزقة من أمثال الدكتور رمزى مفتاح الذى تناول شعر العقاد تناولا يدل على فقدان الاحساس الانسانى والشعرى كما صنع في كتابه « رسائل النقد » ٠

ولكن ظهر في العالم العربى بعض نقاد فهموا رسالة النقد الادبى واتصفوا بالنزاهة ، وسيدهم الاستاذ سيد قطب ، ولكنه ترك النقد الى مجالات الكتابة الاخرى فخسر الادب ناقدا كان خير النقاد جميعا ٠

ولا ننسى « أنور المعداوى » فهو ناقد جيد ، ولكنه كان في بعض نقداته متسامحا وفي بعضها غير دقيق ، وهو ـ أيضا ـ ترك النقد مجبرا ٠

وكان للصحف الادبية كالرسالة والثقافة أثر كبير في اقامة صرح للنقد الادبى ولكن احتجابها أدى الى اختفاء النقد الصحيح ، وحل محله نقد متهافت كالادب السقيم الذى تقرؤه في هذه الايام ٠

فأزمة النقد الادبى أزمة تشمل كل العالم العربى ، فمصر

ولبنان اللتان تكثر فيهما صحف الادب قد خلت في هذه الايام من نقد يذكر بالعقاد وميخائيل نعيمة ثم سيد قطب .

وان أساطين الادب الحـــديث كالعقاد والمازنى وطه والزيات ونعيمة ثم سيد قطب كانوا نقادا ممتازين في العربية ، ولكنهم وقفوا جميعا الا العقاد فانه ما زال كما كان ، ولكن ما يصنع وحده .

ولعل أحـــدا من الناس يشير لى الى آخرين يحسبهم نقادا ، ومـــا هم الا مقلـدون لا يشـــار اليهم في مجـال الابتداء والابتكار ، وان كـــانوا يحســـبون من النقـاد التـابعين ممن لا يمـــيزهم لون خـــاص يعرفون بـــه غير سمة التقليد وعدم النضج واهتزاز الصور و « طرطشة » الانفعـال .

ولقد أصابنا ما أصاب غيرنا فأخذنا نشكو أزمة النقد الادبى في بلادنا ، وبدأنا نتمنى أن يكون لدينا نقد كما كان من قبل ، لان النقد دليل وجود حركـة أدبيـة واهتمام بها وشـوق اليهـا ، أمـا الصمت وخلو الميدان فبرهان على التأخر والجمود ؟

نشرت في جريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) .

الكتاب الذي تأثرت به

يسألني بعض الناشئة : ما الكتاب الذى تأثرت بـه ؟ فاجيب : بأنني لا أجد كتابا واحدا استأثر بى دون غيره ، فيعجبون ويقولون لى : ان كثيرا من الكتاب والفلاسفة يشيرون الى كتاب قد ينسبون اليه التأثير فيهم ٠

وبحثت فيما بينى وبين نفسي ، لعلى أجد كتابا واحدا كان له وحده التأثير في نفسي وروحي وأدبى وعلمى ، فلم أجد ٠

وهذا عندى طبيعى ، فكما أن جسمي لا يدين للون واحد من الطعام كان له فضل التأثير فيه فكذلك كيانى الروحى لا يعرف لونا واحدا يعترف لـه ٠

ان جسمي مبنى على كل مأكول ومشروب وصلت اليه يدى ، فالخضراوات والفواكه واللحوم ومختلف الاطعمة والاشربة كانت غذاء جسمي ، وليس لشىء منها وحده فضل وأثر ٠

كذلك كيانى الروحى ، فقد كنت أقرأ منذ بدأت : القصص الدينية والادبية والفلسفية وقصص الخلاعة والمجون والاباحة ، وكتب الرحلات ، والكتب المقدسة : القرآن الكريم والاناجيل الخمسة والتوراة ، والشعر الجاهلى والشعر العربى قديمه وحديثه ٠

قرأت كل ما استطعت أن أقرأه دون أن أستطيع ذكر كتاب خاص ، وكل ما قرأته أثر في ، حتى نوادر جحا وقصص رأس الغول وعنتر وسيف بن ذى يزن وحمزة البهلوان ٠

كل هذا وغيره أثر ، ولذا لا أستطيع تخصيص كتاب واحد وأنسب اليه أنه أثر في ٠

أنا لا أعرف أى فاكهة هى التى أمدتنى بالقوة ؟ أهى الكمثرى أم الخوخ أم العنب أم الموز ، ولا أى لحم أقام أودى ؟ أهو لحم الضأن أو لحم الماعز أو الجمل أو البقر أو الدواجن ؟

وما دمت لا أستطيع تمييز الفاكهة التى أمدتنى بالقوة أو نوع اللحم الذى أقام عودى فاننى لا أستطيع أن أذكر كتابا واحـدا كان له فضل بناء روحى .

ان كل ما قرأته هو الذى بنى صرح كيانى الادبى والفكرى .

وما تعود الكتب وحدها بميزة بناء هذا الصرح ، لانها ليست وحدها أداة التثقيف فهناك الاصوات والمشاهد والفنون تشـــارك الكتب في بناء الروح .

وان لحظة من اللحظات تقضى في تملى مشهد من مشاهد الجمال قد تفعل في الانسان ما لا تفعله مئات الكتب والاسفار .

وان نغما يسرى اليك في سكون الليل يغير مجرى حياتك أو يحملك على ايثار النقيض على النقيض .

وان كلمة تسمعها من حسناء تؤثر فيك أعظم من استطاعة عديد من الكتب أن يؤثر فيك .

ولو كان للكتب وحدها فضل التـــأثير أو البنـــاء فما نحن صانعون بمن لا يقرأون ومع هذا نجد لديهم من الثقافة والحـــكمة والفلسفة ألوانا بهيجة رائعة ؟

ولعل هذا ليس بعام في الاميين جميعا ، ولكن لا تخلو صفوفهم مـــن ملهمـــين .

وهذا لا ينفى أن الكتب أكبر أداة عرفت في العالم للتثقيف .

ثم يجب ألا ننسى السينما والمسرح والتلفزيون والاذاعة ، فان لها من التأثير ما لا تختص به الكلمة المقروءة .

ان الحياة بكل من فيها وما فيها هى التى تؤثر في الاديب .

ولكن الآن بعد أن تقدمت بى السن أستطيع أن أقول : ان أكثر الكتب تأثيرا في نفسى هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم الحديث الشريف ، فهما وحدهما اللذان ينفردان في ايجاد آثار لا أجدهـــا في أى من الكتب التى قرأتهـا ، وأعتقد أن ما من كتـــاب يســـتطيع أن يؤثر في نفس المســـلم المؤمن المثقف مثل كتاب الله الذى يجد فيه قارئه كل ما يصبو اليه ومثل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

نشرت في جريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) .

السرحان ونقاده

شجر خلاف كبير بين الاستاذ السرحان ونفر من أدباء الشباب ، لم يكن سببه اختلاف النظرة الى الحياة ولا الثقافة ولا وفرة الاحساس ، بل كان الخلاف من أجل هجوم قام به الاستاذ السرحان على أدباء الشباب حملهم على أن يردوا بأعنف منه ٠

ولكن بعض أدباء الشباب الممتازين وقف في صف السرحان وكان شديد الوطأة على زملائه ، ومن هؤلاء : الاستاذ عبد الله الجابرى الذى نشر مقالا رائعا في جريدة « الندوة » ذكرنى فيه بالثناء الجم المستطاب ، وأثنى على وقال : انى من أقطاب الرعيل الاول ، وأقرأ ـ قبل أن أصدر جريدة عكاظ ـ أربع عشرة ساعة كل يوم ٠

وهو بهذا يشير الى بعض الفوارق بين الادباء أمثالى وأدباء الشباب في القراءة ، وقال : ان الاديب الشاب لا يقرأ في الاسبوع أربع عشرة ساعة ٠

ولعل الاستاذ الجابرى أمسك بناحية ـ لعلها الدعامة الاولى للاديب الحق بعد الموهبة ـ فالقراءة أساس الثقافة والفن ، ولا نجد أديبا كبيرا في العالم كله قليل القراءة ٠

وأدباء الشباب قليلو القراءة ، وليس مرد ذلك الى زحمة في العمل ، وقلة في الزمن ، لان في هؤلاء من يقرأ كثيرا قراءة فقه واستيعاب ٠

اذا كان غير هؤلاء يشكو الزحمة والقلة فهؤلاء شركاؤه ، ولكنهم يقرأون كثيرا ، ونلمس أثر هذه القراءة في آثارهم ٠

وكتب الاستاذ الفاضل عبد الله عبد الجبار في هذا الخلاف بين السرحان وأدباء الجيل الجديد بحثا نشرته جريدة « البلاد »

الغراء في بعض أعدادها الماضية .

وذهب الاستاذ عبد الله عبد الجبار الى أن أدباء الشباب قليلو القراءة .

وما أظن هذه الشكوى من نصيب هذه البلاد وحدها بل يشترك فيها كل بلد في العالم العربى ، فقد ذكر الاستاذ عبد الجبار أن الدكتور محمد مندور قال في رابطة الادب الحديث في القاهرة « ان الكتاب الناشئين يكتبون أحد عشر شهرا ويقرأون احدى عشرة ساعة ، وكان الواجب أن يقرأوا أحد عشر شهرا ويكتبوا احدى عشرة ساعة » .

وهذا حق لو أراد الكتاب الناشئون أن يزودوا انفسم بثقافة عالية بعيدة الاطراف عميقة الجذور .

والاستاذ عبد الجبار ذهب في تأييد الاستاذ السرحان مذهبا وسطا ، أراد منه أن يرضى الفريقين المتخاصمين ، ولكنه انتصر للكتاب الناشئين أو الجدد في قوله : « أما وصف السرحان أدب الجيل الجديد بالضحولة ، فأعتقد أنه وصف لا يمكن تعميمه بهذه السهولة ، وقد صادفني خلال قراءتى لبعض آثار الادباء المحدثين نماذج شعرية ونثرية بها لمحات ذكية ان دلت على شيء فعلى أثر عميق لدراسات حية لم يطلع عليها كثير من الادباء القدماء » .

ثم يقول الاستاذ عبد الجبار : « وكيف نغفل فارق السن بين الفريقين ، ولو وازنا بهذا الاعتبار بين أدباء اليوم وادباء الامس ابان نشأتهم الادبية لرجحت كفة أدباء اليوم » .

ويقول : « أن السطحية سمة فردية لا يمكن أن نصم بها جيلا بأسره ، ثم هل صحيح أن أدباء الامس جميعا يمتازون بالعمق وبعد الغور ؟ اعتقد أن الاجابة على هذا السؤال ليست في صالح الادباء القدماء ! مع العلم بأن الجيل لا يطلق على أديب أو اثنين أو ثلاثة يتسمون بالعمق أو صورة من صوره ودرجة من درجاته » .

وأنا اوافق الاستاذ بأنه لا يصح تعميم الحكم على أدب الجيل الجديد كله ، ولكن للغالب حكم العموم ، فاذا وجد بين عشرة آلاف

أديب من أدباء الجيل الجديد عشرة ذوو ثقافة وعمق وفهم فذلك لا يمحو السمة البارزة •

واذا جئنا الى الاسلوب فاننا لا نشك ـ قطعـا ـ أن أساليب الكتاب الناشئـين ليست في جمـال اساليب سابقيهم وقوتها ، وان كان في بعضها لمعان لا يدل على الاصالة الا في ندرة نادرة منهم •

فالادباء الذين سبقوا هذا الجيل الجديد عاشروا القرآن الكريم طويلا ، وعكفوا على قراءته ليل نهار ، وهذه المعاشرة الطويلة أكسبت أساليبهـم لونا رائعا أصيـــلا ، وجعلتها أساليب وثيقـة التركيب سليمة البنيـــان •

وما دام الاديب في العربية يجعلها لغة تعبيره فهو مجبر على أن يحافظ على أسلوبها الجميل ويمشي على سننها •

والادباء الجدد انماط ، منهم من مشوا على الطريق القويم فلم ينفصلوا عن القديم فكانوا مثل الادباء الكبار ، ومنهم من أخفـق في قواعد العربية وانفصل عن القديم ، فهو يكتب بلغة أقرب الى العامية لانه لايجد غيرها ، ولو أجادها لما ترك الاعلى الى الادنى •

ولنأخذ الاستاذ عبد الجبار نفسه دليلا ، فهو يقول في مقاله : « أنـا في مرحلة بين السرحـان والادبـاء المحدثين ، واذا استفتيت آرائي فأنا هناك في المستقبل » •

وهنا ثلاثة : أديب قديــم كالسرحان ـ على رأى الاســتاذ عبد الجبار ـ وأديب محدث ، وأديب مستقبلي •

فاذا كان الاستاذ عبد الجبار أديبا مستقبليا ، ويكتب بلغـة سليمة ، وأسلوب قوى أخاذ وثيق التركيب راسخ البناء ، فان معنى ذلك ان القديم والمستقبل يلتقيـان ، وما بينهمـــا ـ وهو الحاضر المحدث ـ هو الذى يسقط في الميدان •

ومعنى هذا أن القديم ـ كالسرحان ـ مستقبلي ، لانه يكتب هو أو من كان مثله باسلوب « عبد الجبار » الاديب المستقبلي •

ثم أن الاستاذ عبد الجبـــار وافق السرحان من حيـث أراد مناقضته ، فهو يقول : « صادفتني خلال قراءتي لبعض آثـار الادباء

المحدثين نماذج شعرية ونثرية بها لمحات ذكية ان دلت على شيء فعلى أثر عميق لدراسات حية لم يطلع عليها كثير من الادباء القدماء ».

فهنا أشار الاستاذ عبد الجبار ببعض آثار المحدثين ـ شعرا ونثرا ـ لان العمق كان من مزاياها .

والاستاذ عبد الجبار لم يثبت هذا العمق الا لبعض الآثار لا لجميعها ، فهو مع السرحان على وفاق وان كان أراد مخالفته .

وما دام العمق مزية كبيرة فانه يجب أن يدفع اليه أدباء الشباب دفعا حتى لا يعيشوا على السطوح ويقفوا عن التغلغل الى المغاور والاعماق .

أما فارق السن فهو حق يجب ألا يغفل ، ولكن مع هذا يجب ألا نجعله صك الغفران الذى يرحض كل ذنب الناشئة .

ان الاستاذ عبد الجبار كان ذات يوم أديبا ناشئا ، ولكنه لم يتعجل الكتابة والنشر ، بل قضى في الكتابة عشرين سنة ثم بدأ ينشر .

أما أديب اليوم فهو يريد أن ينشر ، بل ينشر قبل النضج وهو ما يزال تلميذا يشدو أو طفلا يحبو في الملاعب .

واذا اخذنا عبد الله عبد الجبار الشاب الذى لم يتجاوز العشرين ـ أى قبل عشرين سنة ـ وأخذنا أديبا محدثا ووازنا بينهما لوجدنا الرجحان في كفة الاول ، لانه أعمق أثرا وأعظم استيعابا وأبعد آفاقا وأكثر صبوة واحسن مزاجا وأحفل دراسة ممن هو في سنه ـ الآن ـ من أدباء الناشئة .

ويجب ألا نغفل عن العصرين فعصر عبد الجبار والسرحان كان وعر المواصلات ، بعيد الاقاليم ، نزر المطابع ، أما عصر الاديب المحدث فهو عصر الصواريخ ويكاد يكون العالم اقليما واحدا قريب الاطراف مطوى المسافات والابعاد والراديو ينقل الكتاب الذى يصدر ساعة صدوره ، والكتاب الذى يطبع في أمريكا ويصدر اليوم ـ مثلا ـ يكون في اليوم الذى يليه بمكة المكرمة .

فاذا جاء الاستاذ عبد الجبار يشفع للمحدث فان من الواجب

الا يغفل هذه المزايا التى تدفع الى تشديد الحكم على الجيل الجديد.

وأنا نفسى عندما كنت شابا كنت أقرأ القـديم والحديث وما يقال عنه انه أدب المستقبل ، أتزود من كل بما يفيد ويثمر .

ولست وحدى في هذا ، فقد كان كل زملائى بمكة وفي غير مكة مثلى ، نتسابق في القراءة العالية والى الموارد الصعبة .

وكنا شـديدى الحرص عـلى قواعد اللغـة ـ ونحن شـداة مبتدئون ـ وكنا نكتب المقالات الطويلة ونؤلف الكتب ونحن طلاب دون أن نخطىء في القواعد لاننا نتحرى الحق ونحب الكمال .

ولكن أيستطيع الاستاذ عبد الجبار أن يأتينى بأى أديب محدث ـ مهما بلغت درجة ثقافته ـ سـلمت آثاره من الخلل في قواعـد العربيـة .

واقصد « بالمحدث » الكتـاب الناشئين الذين أشـار اليهم الدكتور محمد مندور ، ونهض الاستاذ عبد الجبار للدفاع عنهم .

وأنا اريد من الاديب الناشىء الا يعود معدته الغـذاء السهل ، بل أريد منه أن يتعود الدسم أيضا .

وليس الخلاف بينى وبين أحد ممن تناولوا الاستاذ السرحان خلافا بين جديد وقديم ، فانا أسـتقبل الجديد بالترحاب ، ولكنى اشترط فيه عناصر الفن الادبى الصحيح ، ولعـلى لا اتهم بالتخلف عن ركب الجديد لاننى أقرؤه واهضمة ، ولعـلى لا أتهم بالعكوف على القديم واصطناع اساليب القدماء ، ولعلى لا أتهم بالتنكر للجديد لاننى أرحب به وأعيش فيه .

واذا كنت انتقـد الجيل الجديد فأنا لا أنتقـده لاهدمه أو لاحقره ، أو يحملنىعليه خلاف في الرأىوالمنهج ، فهو لم يكن ـ بعد ـ شـيئا من ذلـك في بلادنـا وفي غير بلادنا من العالم العربى ، انما انتقده لاننى أرجو أن يكون خير حالا ومقاما مما هو عليه ، أرجو أن يكون واسع الاطلاق عميق الادراك عالى الثقافة .

واخشى أن يبرز لى الاستاذ الصـديق عبد الله عبد الجبـار بعامل الزمن ، وهو صحيح ، ولكن عامل الزمن لا يمنع التقوية لانه

لم يمنعنا ولم يمنع غـــيرنا ، ولعله في حياتنا الحاضرة أكثر عونـا منــه في المـــاضي .

نريد من الجيل الجديد أن يزحم الجيل الكبير بحق ، يزاحمه بالعقل الراجح ، والشعور الدافق ، والثقافة العالية ، والاســلوب القوى الاخاذ ، والاطلاع الواسع ، أما المزاحمة بغـير هذا فمفـقوده القيمـــة والاثر .

ولشد ما يسعدنى أن أجد من أدباء الجيل الجديد من يستطيع أن يبرز الى الصفوف الاولى بحق ويتسلم القيادة بجدارة ؟

نشرت في جريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٠ هـ (٩١٥٩ م) .

* * *

الى الزيدان

أخي زيدان :

عفا الله عنك ! لم كتبت تلـــك الكلمة التى نشرتهـا بمجلة « الرائد » تحت عنوان « نظرية جديدة في السبق الصحفى » لو عدت اليها في ساعة صفاء لاستنكرتها وابيت أن تنسب اليك ، لانى أعرف أنك لا تحب ان ينسب اليـك من القـول الا الاحسن ومن المكرمات غير الاجل ، ولكن طبيعة البشر تريد أن تثبت ان الانسان خطاء ٠

وانا لم أقرأ كلمة الاســتاذ الجليــل عبد القدوس الانصارى ولكن كلمتك أفصحت عنها ، وما اظنها تدفعك الى ان تقد قلمك من شـــجر الفضـــا ٠ وتغمسه في الدم ، وكانت كل كلمة في مقــالك شـــوكا مؤلــلا ٠

واذا ما فهمت من كلمــة عبد القدوس ما أغضبـك فاين ذهب حلمك ؟! واين غاب ما عرف عنك من أخلاق ذوى الفضل ؟ أنسيت ماضيـــك معـــه ؟

ان كلمتك حوت قذائف ، ومن اســـتهدفته يملك مثلها ، ولا يصح ان يتراشق اثنان يعرف الناس لهما الفضل في ميدان الفــكر والقــلم ، فاذا اغضبك ادعــــاء عبد القدوس انه صاحب « أوليات » فمـــا يضـيرك منـــه ؟

وهو ـ حقا ـ صاحب أوليات ! الم يكن عبد القدوس في بلادنا أول باحث لغوى نقد لغـة الكتــاب والعــلم ، ودل عـلى الصواب في كلمات خاطئـــة ؟

أقول لك الحق : ان عبد القدوس من الباحثين ٠

ولا أوافقك ـ أيها الصديق ـ على قولك : « يفخر بأنه مؤلف التوأمان » و « مرهم التناسى » مع انى اتحداه ان يعيد طبعهما ليرى ماذا يصنع القـــراء !٠ لقـد مضى الزمن الذى راجت فيه هـــذه الادعاءات » الخ ٠

ان « التوأمان » لا تقرأ على أنها قصة اليوم ، ولكن عندما ألفها عبد القدوس كان كل زملائه الادباء في تلك الايام لا يحسنون صنعه ، ولا يسعهم تأليف قصة مثله ٠

ان « التوأمان » ينظر اليها كما ينظر أحدنا الى « فيثاغورس » مبتكر قواعد في علم الحساب ٠

انك تعرف ان طالبا في « الابتدائية » الآن يعرف اكثر مما يعرف فيثاغورس في الحساب وطريقته في الجمع والطرح اصبحت مضحكة بالنسبة لقواعد هذا العصر ، ولكن هذا لا يقذف به خلف الطالب الابتدائى ، بل يضعه في أعلى القمم التى ينزلها العباقرة ٠

واراك ـ ايها الصديق ـ تصم الشرق وصمات فتقول : « كان في الشرق علم واسرار ضيعها الباخلون المخفون ٠٠ أما أسرار الغرب فهى ملك الناس أجمعين » وضربت المثل بمكتشف البنسلين ومخترع المصباح الكهربى اللذين أباحا السر ليتمتع العالم كله ٠

وأحب أن أذكرك بشىء لا تجهله ، وهو أن الشرق غير ملوم في احتكار طبقة من الناس العلوم والفنون ، لان الغرب في ذلك الزمن كان مثله يكتم العالم فيه علمه ٠ فاذا جئت تحتج باليونان ذكرنا الاشوريين والبابليين وحضارتهم الانسانية التى كشفوا أسرارها ولم يكونوا من الباخلين ٠

ومكتشف البنسلين ماذا يصنع بكشفه اذا احتكره ؟ انه لن يفيد منه مجدا أدبيا أو مجدا ماديا اذا ضن بسره ، ولكنه أباحه رغبة في المجد الادبى والمجد المادى ٠

وأديسون كذلك ، انه « عمم » المصباح الكهربائى لان احتكاره لن يفيد صاحبه ، كم غنيا يستطيع أن يفيد منه ؟ آحاد أو عشرات لا يفى ما يبذلون من قيمة فاحشة بالتكاليف ، ولكن في تعميمه اربـاء في الدخل ٠

كان الفنان في القديم يعيش على هبات القصور ، فلما انتشر العلم استبدل بها القراء ، وعوضته كثرتهم هبات القصور السخية ، وكذلك مخترعو هذه الايام ٠

والغرب في أيامه الحاضرة يحتفظ بأسرار لا يبيحها ولو دفع له الملايين ومئاتها ؟ ان أمريكا ـ سيدة دول الغرب ـ ضنت على حلفائها بأسرار الذرة والصواريخ ، وتبخل بها أكثر من بخل الشرق الذى لمته وقرعته ٠

ولا يلام محتكرو العلم من أبناء الشرق القديم ، لانهم لو أباحوا الاسرار وكشفوها ما وجدوا من الشعب الامى الجهول من يفهم تلك الاسرار ٠

حتى الاسلام جاء فيه ما يشبه هذا ، وأنت تذكر قصة ذلك الصحابى الجليل الذى بشره رسول الله فخرج يبشر الناس فلقيه عمر بن الخطاب ومنعه أن يذيع بالبشرى لئلا ينصرف الناس عن العمل ولئلا يتكلوا على اليسير السهل فأقر الرسول عمر ٠

وأما ما أخذت ـ أيها الصديق ـ في مسألة الهللة فقد ذكرت اننا أخذناها من اليونانية كما أخذنا من دراخما « الدرهم » ولعلى منذ خمس عشرة سنة ذكرت هذا أما « الهللة » فما أصلها اليونانى ؟

ان عبد القدوس يدعى أنها « هلالة » من « الهلال » ومشتقات « الريال » معدودات أولها « الهللة » فاذا قال عبد القدوس أنها من الهلال ففى نظره ما هو جدير بالتأمل والقبول ، لان الهلال كما تعرف غرة القمر أو أول ظهوره في أيام الشهر الاولى سواء لليلتين أم لبضع ليال ٠

ومادة « هلل » عربية وما دامت كذلك فمن الخير أن نعيد « الهللة » الى المادة العربية ولا يلام عبد القدوس اذا ادعى أن الكلمة من أصل عربى صحيح ٠

وأكاد أذهب مع الاستاذ عبد القدوس في « الهللة » ، أما « حق الرواية » للبكالوريا وما ذكرت من الكلمات التى تساق مساق التندر والفكاهة مما سقت مساق السخرية بالاستاذ الانصارى فهو بعيد عن احتمال تبعته لانه ليس صاحب تلك التخريجات ٠

وقلت عن كاتبى المقال الذى أثار كل هذا الجدل العنيف العصوف : « الشيخ يعرف أن أحدهما اذا ما قرأ كتابا أو مقالا

أعجبه ما فيهما ذهبا كالمشائين يقرأ ما أعجبه الخ » فمن من الاثنين تريد ؟ أنفسك أم صاحبك ؟ فاذا كنت تريد نفسك فقد أزريت بصاحبك واذا أردته فقد تواضعت كثيرا ، وفي كلامك هذا ما يوثقك بما اتهمت لان أحدكما كتم العلم وضن به فلم يكن مشاء بعلم ينشره ، ثم لماذا أعدت الضمير في « فيهما » الى المثنى مع أن الافضل – هنا – أن يعود الى ما بعد « أو » .

لست معدما حتى تكون « الهللة » عندك ثروة ، انك غنى في العلم ، فاذا صح أن أحدا يريد أن ينهبك ما سبقت اليه كالذى نشرت فليس بناهب منك الا ما أنت في غنى عنه وما لا يزيد ثروتك شيئا اذا أضيف اليها .

ويجب ألا نجهل قدر عبد القدوس ومكانته في الادب والعلم واللغة والآثار والاخلاق ، وأنت لا تجهل هذا . وأشهد أنك ذكرت عندى وأمام أخيك ياسين طه ان عبد القدوس عظيم ، وشيدت له مكانا عليا من المديح الذى هو أهله ، مدحت علمه وجلده وصبره وخلقه فكيف يحملك الغضب على أن تنكر على نفسك ما أثبت ؟!

انك – أيها الصديق – شديد المعاشرة لكتاب الله وسنة رسوله وتعرف أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الشديد بالصرعة ، بل الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وأنا مصاب بما ألومك عليه . ولكن الخطأ لا يبيح الخطأ .

ان عبد القدوس لعالم ، وكتابه « آثار المدينة » كتاب بكر ، وبحوثه في اللغة نضعها في صف بحوث اليازجى وداغر والكرملى والمغربى ، وأنت لا تجهل هذا .

ثم ان لعبد القدوس لخلائق – والله – لنادرة بين الرجال ، هو آية في الوفاء والكرم والشجاعة عف اللسان ، وأنت لا تجهل هذا ، ولكن الغضب جعلك تتخذ سبيلا أنت تكره في الرضا أن تسلكه .

وأنا أعرف فيك خلائق تضعك مع المحسنين ، وأحسب أنك لا تظهرها اصطيادا لاعجاب بل هى ما في باطنك ، وهذا ما يدفعنى الى

أن أرجوك ـ وأنت الصديق ـ أن تنهى هـــذا الخـلاف وتسترضى الاســـتاذ الانصـــارى •

ان المصادقات كشفت لى من نفسك خلقا كريما دل على أن لك نفسا سطع في أرجائها الرحيبة نور الخير والنبل ، وأعتقد أنك لم تكن « ممثلا » بل كنت صادقا •

انك تحب محمدا وصحبه ومحمد يأمر بالخـير كله ، وأذكر أنت أنك كنت عندى تكتب لعكاظ « سيرة بطل » فتغير حالك ودمعت عيناك من موقف « الصحابى » الـــذى كنت تصوره بقلمك وتكتب سيرته ثم انتهيت من الكتابة وقلت : ما الام الحياة ! أنتهالك عليها ونتخاصم فيما لو تاملناه لكان دافعا الى الحب لا العداء ، ان هـــذا التهالك صرفنا عن الاشواق العليا وأبعدنا عن المنبع الاصيل الخ •

أذكر ـ أيها الصديق ـ ما قلت وانظر الى ما صنعت ولا تجعل صدرك واغرا على زميل لك وصديق ، فالوغر يؤذى صاحبه نفســه وأنت أكبر من أن تفتـــح صدرك لمـــا تكره ولما يفسد الطبيعـة السمحة السخية !

ولعلك ـ اذا قرأت كتابى هـــذا ـ قاذف مـا حاك في النفس وذاهب من تلقاء نفســـك الى عبد القدوس تزوره في منزلـه زيارة « زيدان » المعروفة نفســـه بالاريحية ليعود اليـكما الصفـاء الذى رنقـــه الشـــيطان •

وذكرت بما كان من أمرك وأنت تكتب سيرة البطل الـــذى نسيت اسمه ، لتبرهن ان ما قلت أنت وما رأيت أنا من حالك لم يكن الا « الحق » الذى أعتقد أنه سيقودك الى « الانصارى » فيعود الى الصديقين المودة تزداد وثوقا ولتكن صاحب الفضل فمن ينقل خطواته الى صديق يريد أن يسره كان من المفلحين ، وعبد القدوس صديق صدوق ، ولا ينقص قدرك ذهابك اليه بل يزيده عند الله وعنـــد النـــاس •

وأنا واثق ـ لما أعرف من خلائقك ـ أنك ستكون عند حسن الظن بك ، ولن يثنيك الذهاب الى عبد القدوس شعور بأن فيه ذلا

لان ما فيه خير لا يعد الا عزا وفخرا ، فامض على اسم الله ، واقض على الشيطان وبرهن على أنك « زيدان » الكبير السباق •

وليحفظك الله وينفع بك ويبعد عنك وعنا وساوس ابليس ان يوفقنا لما يحب ويرضى ؟

نشرت في جريدة « الندوة » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) •

* * *

ان احدكم
ليعمل بعمل أهل الجنة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث له : « ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

ولعل هذا هو الذى يحمل الناس على أن يدعو ربهم بحسن الختام ، ونحن نشهد في مسرح الحياة الذى لا ينقطع لحظة واحدة عن أبطاله ان زيدا من الناس كان شريرا ثم انقلب ورعا زاهدا ، ونرى عكس ذلك ، فالحديث الشريف واقع مشهود تثبته الحوادث التى نشهدها على مسرح الحياة الذى لا يغلق بابه ، كما نعيش هذا الواقع في كثير من القصص العالمية .

وقد قرأت قصة « تاييس » لأناتول فرانس وقصة « الحسناء القديسة » لاوسكار وايلد ، وكلتاهما ذات مغزى واحد ، بل الشخصيات تكاد تكون واحدة ، فتاييس في قصة أناتول فرانس هى « ميرهنا » في قصة أوسكار وايلد ، والشخصيتان في القصتين ليس بينهما اختلاف ، فكل منهما غانية جميلة ترتمى على قدميها العمالقة وأصحاب الامتياز ، وهى ترمى نفسها للذة تنتهبها انتهابا لا يصدها عنها شىء ، بل يدفعها اليه كل ما يحيط بها ، وتكون مباءة الفجور كله ، فتضل الصالحين ، وتغرى الاتقياء ، وتحترق في لهبها الفراشات الآدمية من كل لون وقبيل ممن ينزلون القمة العليا في المجتمع الانسانى .

هذه هى شخصية تاييس وهى نفسها شخصية ميرهنا .

وفي تاييس شخصية « بافنوس » الراهب الذى عبد الله أربعين سنة فوق عمود ، وقضى حياته مشغولا بعبادة الله وحده ، صادفا عن

اللذات ، عازفا عن الدنيا والمجد ، شديد الخشية من الله ، عظيم الابتهال اليه ، قوى الايمان به سبحانه ٠

وفي قصة أوسكار نجد «هونوريوس» وهو «بافنوس» نفسه ٠

وكما تنتهي القصة في « تاييس » بأن تهتدى بوساطة الراهب بافنوس فان نهاية قصة أوسكار وايلد تنتهي نفس النهاية اذ تهتدى « ميرهنا » على يد الراهب « هونوريوس » ٠

والمفارقة العجيبة أن تكون هـــذه النهاية السعيدة بالنسبة لتاييس أو ميرهنا مأساة طاحنة بالنســـبة للراهبين ، حيث ينتهى بهما المطاف الى التجديف والكفر وتحدى الله ٠

لقد اهتدى الضال وضل المهتدى ، وكل من هؤلاء الابطـال ماتوا في النهاية بعــد أن تقرر مصــير كــل منهم قبـــل أن يغمض المــوت عينيــــه ٠

صدق رسول الله : « ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينهــا الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهـــل النار فيدخلهـــا » ٠

لقد كان بافنوس وهونوريوس يعملان بعمل أهل الجنة حتى لم يكن بينهما وبين الجنة الا ذراع ، ولكن سبق الكتاب فعمـــلا بعمل أهـــل النـــار فدخلاهـــا ٠

أما البغيين اللتين قضتا الحياة في شر وفجور ، غارقتين في الخطيئة والاثم ، تضلان الناس وتنشران الفسوق ، وتعملان بعمل أهل النار حتى لم يكن بينها وبينهما الا ذراع فيسبق عليهما الكتاب فعملتا قبل موتهما بعمل أهل الجنة فتدخلانها كما تروى القصتان ٠

فهل يعد أوسكار وايلد سارقا ؟

أما أنا فلا أراه كذلك ؟ ولو كـــان في الادب العربى أناتول فرانس وأوسكار وايلد لاتهم الاخـــير بسرقــة الاول ، لان القصة واحدة ، والابطال متشابهون ، والحوادث متشابهة ، ولو غـــيرت الاسماء وحور في القصة بعض التحوير لصح أن تنسب تاييس الى أوسكار و « الحســـناء القديســة » الى أناتول ، لـــولا اختـــلاف أسلوب الكاتبين ٠

وأخــيرا ، صدق رســـول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الذى ذكرناه في أول الكلمة ، وليحسن الله خاتمتنا ! ؟

القراءة

ضرورة كالطعام

القراءة الواعية توسع نطاق الحياة ، وتكسب الانسان تجارب جديدة وكثيرة لا يستطيع أن يجربها هو نفسه ، ولهذا كان من يكثر القراءة الهاضمة اوسع نطاقا وأبعد آفاقا وأعظم فهما لعظمة هـذا الكون من غـيره ٠

وما من عظيم حق الا والقراءة عنده ضرورة لازمـة مثـل ضرورة الطعام والشراب ، واذا أصبحت القراءة ضرورة عند انسان فقد أصبح عظيما في نفسه ، لانه يرود عوالم جديدة ، ويضيف الى تجاربه تجارب جديدة ، ويمتع نفسه برحـلات فكريـة هي أمتع الرحلات وأبعدها عن المساوىء والمنغصات ٠

وما تركت القراءة منذ ثلاثين سنة في صحة ومرض ، أو حضر وسفر ، وفي الليل والنهار ، واذا تركته مجبرا يوما أو يومين شعرت بتفاهة الحياة وسخافتها ، وسـاءت حـالى ، وتأذت نفسى ، وانى أستطيع أن أصبر عن الطعام راضيا ولا أطيق البعد عن القراءة ٠

وعندما سكنت تسعة شهور « عالم السدود والقيود » قبل عشرين سنة ما كان يؤذينى ضيق السجن ، بل وجدت فيه الراحة كما وجدت في العزلة الاضطرارية ما يساعدنى على الصفاء ، ولشد ما كان ضيقى أننى لا أجد ما أقرأ ، وبذلت المستحيل من أجل ذلك ، فكنت أدفع للحارس اجرا ليأتينى بكتـاب أقرؤه ، بل كنت أحرم نفسى الطعام من أجل الكتاب ٠

وما أكثر مـا كنت أحرم نفسى وأنـا طالب من الغداء لاشترى بثمنه كتابا ٠

ولعل هذا الاخلاص منا للكتاب هو الذى نفعنا ، وكنت أنـا وزملائى وأصحابى نعمل « قوائم » بالكتب التى يجب أن نشتريها ، ويأخذ كل منا طائفة منها ويشتريها على حسابه ويقرؤها ثم يعيرها

صديقا له ويأخذ منـــه مـا اشـــترى وهكذا حتى نقرأ جميعـــا عشرات الكتب .

وكنا نصنع ذلك لان ما مع كل منا من النقود لا يكفى لشراء كل الكتب ، فكنا نصنع ذلك رغبة في قراءة أكبر عدد ممكن منها .

وكنا نستعير من أساتذتنا وأدبائنا ، ومن سوء حظنا مـا كانت لدينا دور كتب عامة ، فكانت كل قراءتنا من الكتب المستعارة أو التى يتبادلها بعضنا مع بعض أو يشتريها على حسابه .

ثم عرفت طريق مصر وغيرها من البـــلدان العربيـة الزاخرة بالمطابع والمكتبات ، فكنت في كل رحلة لا أشـــترى الا كتبا ، وبلغ ذات مرة أننى صحبت معى من مصر خمســين صندوقا من الكتب ، وما تصبو نفسى الى شيء من مظاهر الحضارة والتمدن الا الكتاب ، فلا الاثاث الفاخر ، ولا السكن المريح ، ولا أى شيء مما يطمع فيـه الانسان يأسرنى غير الكتاب ، هو وحده الذى أطلبه وأسـعى اليه ومن أجله أنفق بسخاء ، ولو كانت الامانى تتحقق لى لما تمنيت الا مالا طائلا لا أنفق منه الا لشراء الكتب ، ولا أسأل عن اللقمة ، ومـا أحفل أن تكون ما تكون ، كل ما يهمنى هو الكتاب .

اننى أتمـنى أن أحبس نفسى وأتفرغ للقراءة ، ولكن لقمـــة العيش تجبر طالبها على أن يستدبر مطالبه وأمانيه ومبادئه ويخرج الى زحمة الحياة والى السوق وينتزع القوت .

ليت أبى كان حيا ! وما أتمنى حياته الا ليتـــولى عنى الكفاح من أجل اللقمة ويفرغنى للقراءة ، لو كان لقـــام بالانفاق على وأتاح لى التفرغ كل التفرغ كما كان يصنع أيام حياته .

رحمه الله رحمة واسعة .

وأمنيـــتى الحـــاضرة أن يوفقـنى الله للـقراءة ويهـــدينى ســـواء الســـبيل ؟

نشرت في جريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) .

نريد علوماً لا آداباً

أقرأ في بلادنا دعوات غريبة تصدر من أصحابها لانهم يجهلون حقيقة الفنون ورسالة الآداب ، ويدفعهم جهلهم أن يدعوا الى أن نأخذ بأسباب العلم ونترك الادب ، لان الادب كلام لا نفع فيه ، والادب لا يسمن ولا يغني من جوع ، فقصيدة ينظمها أعظم شاعر عبقرى لا تأتيه برغيف ، أما العلم فهو الذى يقدم الانسان ويمهد له طريق القوة والظفر والسيادة ٠

واذا كانت قصيدة شاعر عبقرى لا تأتيه برغيف في بلادنا فليس معنى ذلك أن الشعر فقد قيمته المادية ، بل معناه أننا ما نزال في قحط روحى يجب أن يزول ، فاذا زال نعمنا بالرخاء الروحى ، واستطاعت القصيدة أن تأتى بخزائن الارض ٠

وأنا لا أنكر فضل العلم المادى ، بل أراه ضرورة مثل ضرورة الادب والفن ، وحاجة الشعب اليهما ولا يصلح بأحدهما ٠

والامم القوية هى الامم التى تنعم بالرخاء الروحى الذى يتيحه الادب ، وبالرخاء المادى الذى ينتجه العلم ، وما في الارض أمة قوية الا ولها أدب قوى وسيادة أدبية واسعة ٠

وما أدرى كيف نشكو التخمة من الادب ونحن أفقر الامم طرا فيه ، فما عندنا نشاط أدبى ذو قيمة ، وانتاجنا الادبى ضحل ، وصدور بضعة كتب صالحة لا يدل على نشاط وان دل على وجود المواهب ٠

أهذا يعد امتلاء وتخمة ؟

اذا كانت الصحف تنشر كل يوم ما يتصل بالعلم والاقتصاد ، ولا أجد في كل عدد عمودا صغيرا أدبيا ، فأين التخمة ؟

ان من الضعف الروحى ألا نشعر بالضعف الروحى ، ونظن أننا في تخمة من الادب حتى نطلب الاستغناء عنه واستبدال العلم به٠

ان هؤلاء الدعاة جهلة حقا ، وما أظن أحـــدا في الدنيـــا كلها يستطيع أن يزعم أن بريطانيا متخلفة في مجال العلم ، فهى أسبق من روسيا بسنوات كثيرة ، فاذا كان كل سبق روسيا أنها سبقت بريطانيا في ارسال الكواكب والصواريخ فليس ذلك بميزة لها على بريطانيا التى لم تتخلف فيها لنقص في مواهب علمائها ، لان كـــل علماء الذرة في العالم سواء أكانوا من الروس أم من الامريكان هم من معهـد رذرفـورد بانجلترا ، وبريطانيـــا أنتجت القنبلة الذريـة والهيدروجينية ، وارسال الكواكب الى الفضاء ليس معجزة علميـة خاصة بروسيا أو أمريكا ، ولكن بريطانيا استخدمت الذرة للاغراض السلمية ونجحـت دون ســائر الـدول التى اســتخدمت الذرة للحرب والتـــدمير .

بريطانيا هذه التى تعد في طليعة الامم التى أخذت بالعلم حتى بذت غيرها في هذا المضمار لم تتنكر للادب والفنون ، بل أكثر انتاجها أدبى محض ، وما قام فيها من يشكو هذه التخمة لانهم يعرفون أن حاجة الشعوب الى الرخاء الروحى أكبر منها الى الرخاء المادى .

اطلعت على عدد جريدة « الصنداى تايمس » الصادر في ١١ أكتوبر سنة ١٩٥٩ م (١٠ ربيع الثـانى ١٣٧٩ هـ) فاذا نصيب الاخبار في الجريدة لا يبلغ ١٪ من مجموع ما فيها ، وأوفى الانصبة للآداب والفنون ، فلها تسعون في المئة .

وقد صدرت في خلال الاسبوع الذى ينتـــهى بيوم الاحد ١١ أكتوبر ١٩٥٩ م من الكتب في العلوم والآداب ستة وثلاثون كتـــابا منها عشرون كتابـا في الادب ، والســـتة عشر الاخرى في الطبيعـة والكيمياء والذرة والاجتماع والاقتصاد والتجارة والطب وغيرها .

فاذا كان نصيب الادب وحـــده في بريطانيا يزيد على جميع أنواع العلوم والفنون فان هذا هو « التخمة » التى لا تخمة بعدها ، ومع ذلك يشكون الحاجة لا الامتلاء والطفح والتخمة ، لانهم يعرفون حقيقة الفن ورسالة الادب .

فعلام شكوانا نحن الفقراء ؟ أعلى كتاب في السنة ؟ أعلى كلمة

أدبية كالشعرة البيضاء في الثـــور الاســـود ؟

اننا في حاجة الى الادب في هذه الايام أكثر من العلم ، لان الادب هو الذى يشعرنا بالنقص في كل شيء فنتخذ ســـبيل الكمال حتى نظفر بالرخاء المادى والرخاء الروحى •

وهؤلاء الذين يشكون يشغلهم الرغيف وحده أو المعدة وحدها عن مطالب الروح ، فنحن في فقر أدبى مدقع لا تخمة أدبية ، ولكن تبلد الشعور الانسانى هو الذى يدفع الذين يحسبون أننا في تخمة أدبية فيضجون بالشكوى منها الى أن يظنوا أننا نعيش في الادب ، وأن الادب استغرق كل قوانا ونشاطنا حتى لم يصبح للعلم نصيب لدينا ، وهذا غاية تبلد الحس والشعور وقلة الادراك •

وما كان هؤلاء صانعين لو أن نصيب الادب كـــان أكثر من أنصبة كل أنواع النشاط كبريطانيا ؟• انهم كانوا يدعون الى قتل الادباء حتى لا ينتجوا أدبا ، وحتى يخلو الجو من تغريدة منطلقة •

أتراهم حيوانا ؟ كلا ، ان الحيوان يطرب ويفرح ، ويشـــعر شعور المسرة والاكتئاب ، ويغنى ويرقص ، ويعبر بوسائله الخاصة عن شعوره ، ولكن أولئك أدنى منه في سلم الحياة ، وانهم لجماد فاقد الاحساس والشعور ، ومـــا على فاقدهما ملام لو تنكر للادب وجحـــد رســـالته ؟

نشرت في جريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) •

التأليف أم الترجمة

لا يسع أمة أن تنهض نهضة عامة في مختلف الحقول والميادين اذا أخذت بسياسة الاكتفاء الذاتى في المجال الثقافي والادبى ، واذا كان هذا غير ممكن أو واقع في الحيـــاة الماديـة فهو غير ممـــكن في الحيـــاة الفــكرية •

واذا كانت الامة التى تعتمد على « انتاجهـــا » وحده دون أن « تستورد » شيئا من غيرها لا وجود لها على وجه البسيطة ، فاننا لا نتصور أمة قوية حرة تكتفى بالتأليف دون الترجمة ، أو تعـــنى بالترجمة وحدها دون التأليف ، والامة التى تفضل الترجمة والنقل أمة متأخرة في حقل التأليف ، وفي كل حقل غير حقل التأليف •

ولعل من الانصاف أن نذكر أن من أسباب تقدم الادب العربى المعاصر وقوة الحركة الفكرية ونهضة الشعوب العربية نقل روائع الادب العالمى وثقافات الامم الى اللغة العربية ، ونلحظ ذلك واضحا في مجموعة الشعوب العربية ، فالامة ذات النصيب الاوفى من النقل والترجمة هى أكثر من شقيقاتها بروزا في الحيـــاة وأبعد أثرا في الاصلاح الاجتماعى وأعظم ارتفاعا في مستوى المعيشة وغير المعيشة •

والذى يلاحظ في معظم ما يترجم في هذه الايـــام أنه ترجمة للادب الرخيص الذى لا يكلف عناء ، وأكثر الذين يقومون بالترجمة ليسوا مقتدرين مثقفين ، بل ضعفاء في العربية وفي اللغة التى ينقلون عنها ، ولهذا نجد كل ما يترجمون ممسوخا رديئا يقضى على روح المؤلف وفكرته ومقصده •

قرأت بعض روائع طاغور منقولا الى العربية فذهلت ، فمـــا كان أمامى ليس أدب طاغور ، بل أدب المترجم الضعيف نفسه ، لانه أدب هزيل لا روح فيه ولا جمال •

قرأت الاصل في لغته الاصلية وقرأتـــه في اللغة العربية التى

ترجم اليها ، فلم أجد طاغور ، لان أدب طاغور أرفع من أن يكون هذا المسـخ المرذول .

ان المترجم لم يهضم أدب طاغور ولم يفهمه ولم يشعر به ولم يتمثله ، ولا يملك القوة البيانية لتاديته ، فكان ما ترجمه ركيكا في الاسلوب ، ضعيفا في التعبير .

ولن يستطيع ضعيف في لغته أن ينقل اليها أدبا رفيعا بأسلوب مشرق جميل وتعبير رائع متألق .

اذا كان المترجم ضعيفا في التعبير عن خوالجه وخواطره وتجاربه الشعورية في لغته التى ورثها ودرج عليها وتعلمها وتكلم بها عشرات السنين ، فهو أشد ضعفا واخفاقا في فهم لغة غريبة عنه لم يتعمقها ويتمثلها ويدرج عليها .

وان من الخطأ أن نتوسم العلم والقوة في جهول بلغته ضعيف في التعبير بوساطتها .

ولهذا كان أغلب ما نقله أدباؤنا الجدد من الشباب ركيك الاسلوب هزيل التعبير مفقود السمات ، لا يقوم في ميزان الآداب والفنون بقيمة شعورية أو تعبيرية ذات وزن راجح ثقيل .

وقرأت قصة صغيرة للكاتب الاسبانى « بلاسكو أبانيز » ترجمها الاستاذ عبد الرحمن صدقى ، وقرأتها مترجمة بقلم كاتب آخر ، فكان الفرق بين الترجمتين كبيرا ، كان صدقى موفقا كل التوفيق ، لانه نقل القصة في أسلوب عربى جميل ، وعنى بالتعبير عنايته بصدق الترجمة وحسن النقل ، ومرد هذا الى أن صدقى قوى في لغته العربية ، عظيم العناية بالاسلوب ، عميق الفهم ، مرهف الحس ، صادق الشعور ، ومرده الى أن صدقى فنان أصيل وأديب مطبوع ، أما الآخر فضعيف في عربيته ، عامى في ذهنيته ، وليس فنانا ولا أديبا ، فترجم دون أن يحس احساسا فنيا بالاثر الذى نقله .

ومن أخطار الترجمة أن معظم الذين يقومون بها في هذه الايام

ـ فوق أنهم ليسوا أقوياء في لغتهم العربية ولا أمناء على الآثار التى بين أيديهم ـ يحسبون الترجمة عملا سهلا ، ولا يطيقون أن يعكفوا وقتا طويلا على ما يريدون ترجمته ، بل تطويهم السرعة والارتجال والامية والجهل فيخفقون اخفاقا شنيعا .

ومن أسباب اخفاقهم انهم لا يشعرون بجمال الاصل .

وان من الاخطار التى تواجهها الثقافة العربية طغيان ترجمة الادب الرخيص ونقل الدعايات المأجورة والمذاهب الفاسدة .

ان طغيان ترجمة الادب الرخيص ، وترجمة الدعايات البغيضة لمذاهب فاسدة ، وترجمة الكتب التى تتملق الغرائز السافلة والشهوات والالحاد وتنشر « الانحلال » الخلقى والفكرى بين الناشئة العربية ، أدت الى بلبلة الافكار ، وغلبة الغريزة على العقل .

ان طغيان ترجمة هذا النوع المقيت أضر بالمجتمع من كل نواحيه ، واذا لم نقاوم هذا التيار ونعبىء له كل ما نملك من قوة فاننا سنخسر كثيرا من مواريث الانسانية والمبادىء القيمة والمثل العليا .

والتأليف قد انحدر، فأصبح كل من عرف أن يمسك بالقلم كاتبا كبيرا ، والمتشاعرون عباقرة الشعر ، والارذال أعلياء مرموقين ، وأساطين الادب والفكر جهلاء يعيشون في عصور الظلمة والانحطاط لا يسايرون عصرهم المتقدم الوثاب .

فالى جانب قصص قليلة جيدة ، نجد قصصا لا عداد لها تقذفها المطبعة ، ليس بينها قصة فنية . والى جانب كتب قليلة قيمة ، نجد كتبا بالمئات تقيئها الآلة لا تساوى ثمن المداد ، وهى مملوءة بالسخف والبغاء الفكرى والدعوة الى الرذيلة .

وينذرنا سوء التأليف وضعف ملكات المؤلفين بأن الادباء الجدد مكدودو الذهن لا طاقة لهم على الفهم والابتكار والاجادة ، وهم ـ بعد ـ لا يحسون الجمال .

ان نشاط الذهن في الادباء الجدد جد ضعيف ، وملكاتهم كليلة ، ومن هنا رأينا ضعف المؤلفات العربية .

وهؤلاء المؤلفون ـ من غير الاساطين ومن نعرف من كبار المفكرين ـ يرون أن من سمات العبقرية الشذوذ والخروج على المألوف ، وان من سمات التحرر الفكرى التمرد على التقاليد • ويريدون أن يكونوا عباقرة وأحرار فكر دون أن يتزودوا من الثقافة الانسانية الصحيحة ويتعمقوا في فهم الآداب والعلوم •

ومصاعب التأليف كثيرة ، ولكن أليس مما يزيد مصاعبه أننا في زمن نقول فيه بأن كل شيء يجب أن ينتهي الى أن يكون شعبيا ، فما كان غير شعبى يجب أن ينزل الى مستوى الشعب ؟ اذن ، لا صعوبة في التأليف ما دام كل من يعرف أن يمسك بالقلم ويخط على الورق يستطيع أن يكتب ما يتكلم به العامة •

الادب الرفيع يجب اذن أن ينزل الى الحضيض حتى تفهمه العامة ، والا فهو اقطاع ورأسمالية ورجعية يجب أن تحارب • ولهذا أصبح السوقى أديبا عظيما ، ومؤلفات السوقة أروج المؤلفات •

ان « القرآن » كتاب الله ، فكم من أبناء الشعوب العربية يفهمه ؟ كم من السوقة يفهمه ؟

فماذا يكون موقفنا من كتاب الله ؟

ألأن القرآن لا يفهمه الشعب نتركه ؟ كذلك الامر في الادب الرفيع •

ومن العجيب ـ أو لا عجب ـ أن نجد من هؤلاء من يدعون في كتبهم ومقالاتهم الى ترك الشعر الغزلى لانه ذاتى ، والادب الذاتى ميت لا يصلح لهذا العصر ، ولان شعر الحب والغزل انتهى أوانه •

انهم غفلوا عن رسالة الفنون الجميلة وعن الذوق الجميل وعن المطالع الحسنة والمشاهد الرائعة ، وحسبوا أن الحب والغزل والجمال من خصائص العصور القديمة ، ونسوا أن الشمس ما زالت تشرق ، وأن القمر ما زال يطلع ، وأن الزهور ما زالت تشوق الناس ، ونسوا المعانى الانسانية ، ونسوا أن كل كائن حى ينفعل للجمال ، بل يصلح كل كائن أن يكون موضوعا فنيا ويصلح أن يكون مبعث انفعال •

ان شمس الفنون الجميلة لا تغرب الا يوم تنتهى الحياة ، وما دامت الحياة فان شعر الحب والغزل ضرورة من ضروراتها .

والهبوط بأسلوب الشعر والنثر الى لغة العامة أفقد التأليف عنصر الجمال . وقل أن نرى لمسف في الفكر والشعور أسلوبا مشرقا خلابا .

ان أعظم أساطين الادب في العالم كله منذ كان الادب ، هم الذين ارتفعوا بأساليبهم الى أعلى ذرى البيان والفن والابداع والاشراق . ولا نجد أديبا عبقريا الا وهو صاحب أسلوب ، وآية العبقرية أن يكون جمال الاسلوب كفاء جمال المعانى .

ودعوة الناعقين المتجلية في ترك الادب الرفيع ، والاخذ بأسباب ما يسمونه الادب الشعبى بحجة أن من يمثلون الادب الرفيع « الارستقراطى » يعنون بالصناعة والصياغة اللفظية ، يعنون بالاسلوب وجماله ، وان الشعب لا يفهم ما يكتبون ، دعوة تدعو الى الاسى .

اذا كان حرمان الاكثرية من الجمال داعيا الى نبذه واحتقاره ، فما أجدرنا بأن نشوه الوجه الجميل لان الاكثرية محرومة منه .

لماذا نعمل على أن نهبط بالاعلياء الى الحضيض ، ولا نعمل على أن نرتفع بمن في الحضيض الى العلى قليلا قليلا ، حتى يكون قريبا من أولئك المتازين ؟!

ان التأليف والترجمة يجتازان محنة ابتلانا بها هؤلاء المحرومون من المزايا الانسانية والذوق الرفيع ، ولكنها غمة ستنقشع باذن الله ؟

نشرت بمجلة « العربى » الكويتية سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩) .

ادبنا وصحافتنا

لنتحدث في الادب قليلا في « عكاظ » بعد أن امتلأت الصحف بالمادة وصار للادب جانب كسم الخياط ، ولعل المعدة شغلت الاقلام واستغرقت الالسن والاوقـــات ٠

قرأت بضعة دواوين صـــدرت في بلادنـــا ، وقرأت عشرات الدواوين التي صدرت في العالم العربي لشعراء شبان ، شعراء من العراق ولبنان وسوريا ومصر وتونس وليبيا وغيرها من البـلدان العربيـــة ، فاذا الروح واحـــدة ، والاسلوب واحـــد ، وكـأنك تقرأ لشـــاعر واحد مع اختـلاف طفيف في الاسلوب الذى يحدثه اختـــلاف الموضوعات ٠

وأصبح طابع الشعر العربى الجديد ـ أغلبه ـ طابعا ماديا ، كل الشعراء يتبطن مذاهب اجتماعية « وهات ياشعر وخذ ياشعر » ٠

ان الاتجاه العام من الشعر والشعراء هذا الاتجاه هو الـــذى يجعله موضع اللوم ٠

وكما أن الشعر الجديد لا شخصية له ، أو على الاصح كـل الشعر الجديد ذو شخصية واحدة ، وله « علامة فارقة » واحدة ، وكذلك النثر ، لا ترى فيه طابع البيئة واختلاف الامزجة وحفول التجربة ونضجها ، فكثير من الكلمات التى أقرؤها في صحفنا تتفق في أسلوبها مع الكلمات التى أقرؤهـــا في الصحف العربية عامة ، وكأن كل المتكلمين باللغة العربية صيغوا صياغة واحدة فأخـــذوا ينتجون انتاجا متشابها ٠

وليس مرد ذلك الى وحدة اللغة أو وحدة الشعور ، لان هذه الوحدة لا تدفع الى مواليد متشابهين في أبناء اللغات الاخرى ، بل بين أبناء اللغة العربية نفسها ، فنحن نجد اختلافا كبيرا بين أساليب أقطاب الادب العربى ـ شعره ونثره ـ قديما وحديثا ٠

ومعنى هذا الاتفاق أو التشابه ان الانتـــاج الادبى الجديد في العالم العربى فقد شخصيتهحتى أصبح كالعملة ، هذا مثل ذاك في الشكل والوزن والقيمة والمعدن أو الورق ، وليس ذلك ببشير خير ٠

وأما الصحافة فهى قوة كبيرة في هذا العصر ترجح على كـــل القوى التى نشهدها ، وكان في الوسع تسخيرها للخير والانســانية وبخاصة في بلادنا المسلمة المؤمنة التى بعث الله منها خير الخـــلق محمدا عليه صلوات الله وسلامه وأنزل في رحابها الطاهرة كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠

كان في وسع صحافتنا أن تعمـــل للخير وتتخير سبله ولكن ـ مع الاسف ـ وجدنا من بعض صحفنا انحرافا مشهودا ومنـــابر للشر ، وسوقا للرذيلة ، ودعوة الى محـــاربة الاسلام علانية ونهارا وعلى رؤوس الاشـــهاد ٠

وقرأت في بعض صحفنا في ذات الله عز وجل ما يشيب لهوله الوليد ، ويذوب له الصخر ، جعل الكاتب الله عز وجل « سلعة » من السلع فرض لها قيمة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ٠

وقرأت في بعض صحفنـــا استخفـــافا ببعض الرســـل وتطاولا على مقـــامهم ٠

ان الصحافة قوة يجب على الدولة ألا تعطيها أرعن أو مجنونا حتى لا يؤذى غيره ، ويجب أن تعطيها من ترضى دينه وعلمه وخلقه وماضيه وحاضره وقلمه وأدبه ، يجب أن تعطيها أمينا عفيفا مخلصا ٠

ان الصحافة في العالم العربى والاســـلامى قوى شريرة ـ الا بعض الصحف المعدودات ـ ويجب ألا تكون صحافتنا مثل تلـــك شـــرا وكـــفرا ٠

وقد آن الاوان لان يبتعد عن الصحافة من لا يؤمن بالاسلام حق الايمان ، فاذا تدسس اليـــها من لا نرضى دينه وخلقه وعقله وقلمه وجب على الحكومة أن تبعده حتى تكون الصحافة السعودية صحافة المثل والاشواق العليـــا ، وحتى يكون أصحـــابها ممن يتمسكون بالاسلام قولا وعملا ، لا ذلك التمسك الاسمى غير الفعـــلى

الذى يجعل منه شرا مستطيرا على المجتمع ٠

وللصحافة محاسن كثيرة ، ولها مساوىء معدودات ، ومن شر هذه المساوىء أنهـا تختصر الطريق الطويل عـلى الشداة المبتدئين فيشتهرون ويسيطرون حتى يظنون غرورا منهم ووهما انهم بلغوا القمة والا ما كانت لهم هذه الشهرة ٠

بين يوم وليلة يصبح النكرة المجهول معروفا في الاوساط ، ولا تتطلب الشهرة في هذه الايام جهدا ضخما وسهرا طويلا وجهـادا مرا وسنوات مليئة بالكدح والضنى والجد والمثابرة والاطلاع الواسع والثقافة العالية ، لان في وسع أى مجهول أن تتبناه صحيفة فتنشر له عشر كلمات في مكان بارز ليصبح الكاتب المشـار اليه بالبنان ، فاذا طبلت الصحيفة له صار أكتب الكتاب ٠

وعلى سبيل المثال « فلان » نكرة من النـكرات ، وسوأة من السوءات ، لو كتب لاى صحيفة تحترم نفسها وقراءها ما نشرت له ، ولكنه ـ لسوء الحظ ـ حظ الدين والعلم والاخلاق والبلاد صار له ظل ممدود واسم معروف ومكانة لدى الحكومة ٠

ولكن الله أراد الخير ، فكما لمع اسمه سريعا اختفى سريعا ، مثل فقاعـة الصـابون عندمـا تكـاد ترسـل لمعانهـا السـاطع تمـحى من الوجـود ٠

وما أكثر الكتاب الذين نقرأ لهم فنشمئز مما ينشرون ، لانهم جهلاء ، لا يقيمون كتابة سطر وقراءته ، ومع هذا يجدون في صحفنا مكانا بارزا ٠٠ ليت شعرى متى تقام الموازين الحق ؟! ؟

نشرت في « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ « ١٩٦٢ م »

الكاتب والأديب

سألني الاستاذ أحمد طاشكندى بجريدة «البلاد» : أهناك فرق بين الكاتب والاديب ؟ ودل على أمانته العلمية أنه لم يسكت عن الخلاف الذى شجر بينه وبين الاستاذ أحمد محمد باشميل ، فأشار اليه اشارة مهذبة وقال : انه اطلع على تفسيره ولم يقتنع به ، حتى يذكرنى بما دار بينهما لاعود اليه اذا أردت .

وأنا أذكر الخلاف ولكنى أجهل أسبابه وبواعثه ، وليس قريبا منى مقالاتهما فأقف على النصوص ، وغاب عنى ماكتباه ، ولكنى أذكر ـ اذا لم تخنى الذاكرة ـ أن الاستاذ باشميل نشر مقالا بجريدة « حراء » جاء فيه قوله : « للتخصص في الكلية والجامعة » وأذكر أن الاستاذ أحمد طاشكندى أخذ عليه ذكره الكلمتين وأنكر ذلك محتجا بأن كل جامعة تضم عددا من الكليات ، وان الكلية جزء من الجامعة فلا ضرورة لذكر احداهما .

وثار الاستاذ باشميل ثورة جامحة وكتب ردا عنيفا هاجم فيه ناقده هجوما شديدا ، وأبان أنهما ليستا كما يرى الناقد ، وأراد أن يوقعه بدليله فذكر أنه ورد في مقال الاستاذ طاشكندى : « الاديب والكاتب » أو « كتابنا وأدباؤنا » .

وأنا أعتقد أن الاستاذ باشميل لا يجهل الفارق بين الكاتب والاديب لغة واصطلاحا، ولكنه ساق ما ساق رغبة في هدم دعوى ناقده بحجته وقوله هو نفسه .

ولست بلائم الاستاذ باشميل على استعماله الكلية والجامعة في سياق ، وان كان الافضل في سياقه الاكتفاء باحدى الكلمتين ، وذكر الكل مع الجزء أو الجزء مع الكل ليس مما يؤاخذ عليه ، فالقرآن ـ وهو حجة العربية وآيتها الرائعة لفظا ومعنى وتركيبا وأسلوبا ـ لم يخل من مثل ذلك ، وكلام العرب ملىء به ، ومن ذلك قول الله تعالى : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها » وقوله : « يوم ترجف الارض والجبال » والجبال جزء من الارض ، وقوله تعالى : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » والفحشاء منكر ، وقوله : « ثم شققنا الارض شقا . فأنبتنا

فيها حبا • وعنبا وقضبا • وزيتونا ونخلا • وحدائق غلبا • وفاكهة وأبا » والعنب من الفاكهة •

وقال زهير :

في حومة الموت اذ ثابت حلائبهم
لا مقرفين ولا عزل ولا ميل
في ساطع وفي غيابات ومن رهج
وعثير من دقاق الترب منخول

والعزل : من لا سلاح معهم ، والميل : من لا سيوف معهم ، والرهج والعثير : الغبار تثيره الخيل •

ونعود الى سؤال السائل الفاضل فنقول له : ان الفارق بين الكاتب والاديب كبير ، واذا أخذنا بالكليات استطعنا أن نقول : ان كل أديب كاتب ، وليس كل كاتب بأديب ، ودرجة الاديب أعلى من الكاتب ، وتستطيع أن تصف كل من عرف الكتابة ولو كان مبتدئا بأنه كاتب ، أما الاديب فهو الذى يوسع لك نطاق الحياة ويعمل على ارباء احساسك بالوجود ، وندر بين العباقرة وأصحاب المواهب من يوصف بهذا اللقب العظيم •

غير أسلوبه القمين به حينما خاصم ، فهو من اللذين يأمرون ولعلي أستطيع ان أعتب على الاستاذ باشميل أن اتخذ أسلوبا بالمعروف •

وما كان أساس الامر بالمعروف غير الحكمة الموعظة الحسنة ، لا الشدة والعبارات الخشنة ، وليس جميلا من آمر بالمعروف أن تتلوى به سبل الكلام ، ويرتدى قلمه الحكيم ثوب الحسام ، ولا يصح ممن يضع قاعدة بعد أن يرضى عنها أن يتعقبها بالنقض والتحطيم ، فالاستاذ باشميل يدعو في رده ـ كما أذكر ـ أن يصحب النقد تعبير عف وقصد مستقيم •

أفما كان جديرا بصاحب القاعدة السليمة أن يتبع سنته القويمة ؟ •

غير أن الجواد يعثر ، ولكنه يعذر ، اذا كان العثار غير مكرر ، وقد يعطى الغالط حكم الصواب دون ان توجه اليه السنان ، كما نرى ذلك في بدل الغلط أو النسيان ؟

شوقي
وامـــارة الشـــعر

اما ان شوقى شاعر كبير فذلك حق لا ريب فيه ، اما انه سيد الاولين والآخرين في الشعر فذلك قول ينكره شوقى نفسه انكارا ٠

ولقد عجبت اشـــد العجب من هذه المبـــالغة التى لا تصدر عن « قضاة » يزنون بالقسطاس المستقيم ، بل احسب أنالمطففـــين لا يقعون في مثل هذا الاسراف ٠

وما ادرى ايعترف الاستاذ محمد مصطفى حمام بأن شـــوقى سيد الاولين والآخرين في الشعر ، وان شـــوقي افضل من المتنبى الخ أم لا يعترف ؟!

عجبت من هذا القول المنسوب الى الاستاذ حمام بجريدة البلاد في المقـــال الذى كتبه الاستاذ النـــاقد أحمد الذهب تحت عنـوان (كرهتمونى بشوقى) ٠

ان الاستاذ الذهب يقول في مقاله : ان الاستاذ حمـام « يقول على ملأ من الاخوان ان شوقى افضل بكثير من المتنبى » ويقولالاستاذ الذهب : « ليس صحيحـا زعم الاستاذ حمام ان شـــوقى ســيد الاولين والآخرين » ٠

وأنا اعرف ان الاستاذ الذهب صادق لا يتقـول ، واعرف ان الاستاذ « حمام » من أشد الناس اعجابا بشـوقى ، ولكنى ما كنت اتصور ان فتنـــة الاعجـاب تنقله الى حيـث الاسـراف الذى يأباه النقـــد النزيـــه ٠

ان شوقى سيد الاولين والآخرين ، ليكن ما يزعم الاستاذ حمام حقا ، واذا كان له العذر في هذه الزعمة الكاربة بأنه درس شـــعر الاولين حتى فضله عليهم وعقد له لواء السيادة والتفرد ، فكيف أباح لنفسه أن يتكهن بمستقبل الانسانية ويعرف انه سيد الآخرين !٠

الحق ، ان شوقى معدود في الشعراء المبرزين ، ولكنه لا يستطيع أن يجلس بجانب المتنبى ويكون نديده في عرش الشعر ، فالفارق بينهما كبير ، هو فارق الاصالة والطبع ، فالمتنبى نسيج وحده ، وفاذ في دنيا الشعراء بأسلوبه وخصائص فنه وتعبيره •

أما شوقى فقد نشأ مقلدا ، ولم يتخلص من التقليد حين استقام له الشعر وبرز فيه ، بل قلد من ليسوا في الشعر بالعباقرة الملهمين والسابقين المبرزين ، قلد المجهولين أو الذين لم يبلغوا في الشعر مبلغ الشعراء الكبار مثل « البوصيرى » •

وما أظن ان احدا يزعم ان « البوصيرى » شاعر كبير ، وليست مزية بردة البوصيرى فنا رفيعا يعلو به الى قمم الشعراء المبدعين ، ولكنها مزية الموضوع الذى نظم فيه ، وهو موضوع يلمس ضمير المسلم وشعوره فاذا هو يعانق هذا النوع من الشعر •

ولو وضع في ميزان النقد لجاء مع غير السابقين •

ولسنا بصدد نقد البوصيرى وشعره ، ولكن اردنا ان نثبت ان شوقى قلد غير الكبار •

واذا كان شوقى « سيد الاولين والآخرين » فكيف يهبط الى درك التقليد ، ويقلد من هم دونه •

ألم يقلد المعرى والمتنبى والبحترى ؟

انه قلدهم ومسخ بعض معانيهم أو أكثرها مسخا يدل على أنه أراد التقليد وحده فنجح ، أما الابتكار فما كان هجيراه ولو كان لما استطاعه •

وما أشك أن البناء الشعرى عند شوقى سليم كل السلامة فمرانة نصف قرن من الزمان أو ما يدنو منه طوعت له هذه الصياغة الرائعة الجميلة •

ومسألة « امارة الشعر » واجماع شعراء العربية على مبايعة شوقى بها مسألة معروفة ، فليس هناك اجماع على المبايعة ، بل لم يكن اجماع في مصر نفسها ، فهناك شعراء كثير من المصريين لم يوافقوا على مبايعة شوقى بامارة الشعر ، بل رآه بعض النقاد شاعرا

غير مبدع وأنكر بعضهم أن يكون شاعرا في القمة !

ولئن كان في بعض هذه الاقوال بعض التجنى الا أنه يدل على غـــير الاجمـــاع ٠

وفي العراق والشام وفي اليمن كثير من الشعراء لم يرتضوا بشوقى أميرا لهم ٠

حتى الحجاز لم يبايعه بالامارة غير الاســتاذ فؤاد شاكر ، ولكن الشعراء الكبار منذ أربعين عاما لم يبايعوا شوقيا بالامارة ٠

وامارة الشعر نفسها بدعـة من البـدع التى وجـدت مـع المتأخرين ، وأنا لا أسيغها ولا أقبلها ، وقد نقدت الدكتور طه حسين في خطبة ألقيتها في الحفلة التكريمية التى أقامها الشيخ محمد سرور الصبـان بداره بجـدة منذ سنوات ، نقدته لانه بايع بامارة الشعر العقاد ، والعقاد نفسه لم يقبل البيعة واستنكر هذه الامارة ٠

واذا كان لشوقى خصائص فنية لشعره فان لغيره من الشعراء خصائص لم تكن لشعر شوقى ٠

وأنا أؤيد ما ذهب اليه الاستاذ الذهب من ان « امارة الشعر أمر باطل » وان القصر في مصر كـــان يريد أن يكون شاعره أمـيرا للشـــعر والشـــعراء ٠

أمـــا وقـــد انتهت امـــارة الشـــعر بموت شـــوقى فلا ضرورة الى أن نجعل الامارة آيـــة عـــلى تفرد شـــوقى وســـبقه الاولين وتبريزه على الآخرين ٠

وأنكر على الاســتاذ حمام هـذا الاسراف في المبـــايعة ، ذلك الاسراف الذى يسـلب أحكامه القصد والنزاهة والعدل ، ومـا قيمة حكم يفقـد كـل ذلك ؟!

واذا كان حب الاستاذ حمام لشوقى ووفاؤه لذكراه يحملانه على تمجيده فان ذلـــك مـــن خلـق الكرام ، ولكن ترك الصفـــات الانسانية المحمودة الى النقد الادبى وقسره على أن يكون طوع الحب يسيره حسب مشيئته والمجاهرة بمثل ما جاهر به الاستاذ حمـــام فذلك أمر يأباه النقد الادبى ٠

ليكن شوقى عند الاستاذ حمام مثلا رفيعا بين الناس في الخلائق

الانسانية ، وله عذره ان آثره حتى يجعله من المتفردين النوادر ، ففي وسعه ـ اذانوقش بحوادث تثبت غير ما يدعى ـ أن يزعم أنه حكم بما رأى ، اما أن يجعل حبــه حكما فيعطى شوقى ما أعطاه في رحاب الشعر والادب فذلك ما لا يوافقه عليه النقاد جميعا .

وأحسب أن الاستاذ حمام هو وحـــده الذى يزعم ان شوقى افضل من المتنبى ، وأن شوقى سيد الاولين والآخرين ، وما ثم من يقف بجانبه ويرسل معه تلك الزعمات ، حتى شوقى نفسه ـ رحمه الله ـ لا يؤيده ، والدليل معارضته غيره من الشعراء وتقليده اياهم ، ومســـخه بعض معـــانيهم .

ولو كان حقا ما ذكره الاستاذ حمام لما احتذى شوقى سابقيه من الشعراء أمثال المتنبى والمعرى والبحترى وغيرهم ؟

نشرت بجريدة « البلاد » سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)

* * *

شوقي

بين أنصاره وخصومه

أعاد الاستاذ محمد حسن عواد الحرب جذعة فقذف شوقيا شر قذف ، وزعم أنه شركسي دخيل ، ووصفه بأنه قذر ! وما أستطيع أن أتوغل أكثر من هذا فيما خاض فيه الاستاذ العواد .

لقد انتهى شوقي الى ربه بحسناته وبسيئاته ، ولم يبق لنا الا ذكرى وفنا وأدبا وعلما ، وزالت أسباب العداوة وبواعث الخصومة ، ويجب أن تقال فيه كلمة الحق المجردة عن الهوى يرسلها منصف عادل .

وأنا أشعر بالاسى والالم من تجني الاستاذ العواد على شوقي ، وان كنت أعلم أن هذا التجني لن يضير شوقي ، فقد مات الرجل ، ولن يطمس معالم فنه ، ولن يقذف بشعره الى النسيان .

وأنا أسأل : أكان شوقي قذرا ؟ لا ، كان رجلا اجتمعت له خلائق انسانية رائعة كالكرم والشجاعة ، أما فزعه من النقاد وخوفه من النقد فلا يطعنان في شجاعته عندما كان يسخر شعره الوطني للدفاع عن الحق وابرازه .

وان الاستاذ العواد قد أثار سخط القراء بهذا التجني ولم يستطع اثبات قذارته !

وأما شوقي « شركسي » فصحيح ، والرجل لم ينكره ، وهو أول من قال عن ذلك ، أما أنه « دخيل » فنحب أن نسأل : أهو دخيل على العربية والعرب ؟

الحق ان شوقي شرف للعربية ، و لاتطعن شركسيته في عروبته ، ولاول مرة أسمع من يتهم شوقيا بأنه دخيل .

ولو طبقنا نظرية الاستاذ العواد فان أعظم أئمة الاسلام واللغة العربية والادب العربي ينفون من رحاب العربية .

وأنا أذكر الاستاذ العواد بأنه قال عن نفسه : انه آرى ، فلو

انبرى أحد وزعم عن الاستاذ ما زعمه عن شوقي فما يكون أمره ؟ أيرضى أن ينفى من هذه « الجنسية » ؟

ان الاستاذ العواد لو رضي بالتخلص منها لتشبثنا بـه ٠

والعرب يتشبثون بشوقي لانه مفخرة من مفاخر العروبـة ، وان أي أمة ـ حتى الامم المتقدمة ـ لتشرف بانتساب شوقي اليها ٠

والاستاذ العواد لا يجهل أن الاستاذ العقاد نفسه ينحدر من ناحية أبيه من دم كردي ، فهل نقول عنه انه « كردي دخيل » ؟

ثم طعن الاستاذ العواد شاعرية شوقي ، وهو مثل طعونـه السابقة بعدا عن الحق والعدل والواقع ٠

وقد انبرى الاستاذ عزت محمد ابراهيم في جريدة « الندوة » بالعدد الصادر في ٢٩ـ٥ـ٨٣ للرد علـى الاستاذ العواد دون ذكر اسـمه ، وتنـاول في رده العقـاد والمـازني وطـه وقال عنـهم غـير الحـق ٠

قال الاستاذ عزت ابراهيم : « وقد كـان لهم جميـعا بعض العذر وهم في بداية حياتهم الفكرية ان يربطوا اسماءهم باسمه وأن يزجوا بها في قضايا تتناول شوقي وشعره لعلهم أن ينالوا بعض حظه من الشـهرة وذيوع الصيت حتى اذا تحقـق لهم مـا أرادوا أنصفوا شوقي وتراجعوا عمـا رموه بـه من تهم أو حاولوا من تنقص لشـعره » ٠

وهذا دفاع عن شوقي يتبطنه طعن في العقاد والمازني وطـه ، والاستاذ عزت خاطئ أشد الخطأ فيما ذهب اليه ، فلم يكن دافع هؤلاء التمسح بشوقي رغبة في الحصول على «بعض حظه من الشهرة» بل الدافع لهم غير هذا الطمع ٠

انهم لم ينقدوا شوقي لينالوا بعض شهرته ويربطوا أسماءهم باسمه بل نقـدوه لاختـلاف بـين مدرسـة شوقي ومدرستهم ، وأرادوا تصحيـح « المفـاهيم » الفنـية وضبـط المـوازين الادبيـة ٠

ولو كان نقد كل كاتب علما من الاعلام أداة شهرة وبعد صوت

له لكان في وسع أقل كاتب أن يحتك بقطب بارز فيشتهر ، ولكن هذا غير واقع ، فنقد العقاد الذى نقرؤه في كتاب « الديوان » يدل على أن العقاد لم يكن محروما من الشهرة ولا قليل البضاعة ولا ضعيفا في اللغة ، بل كـــان في « الديوان » أكبر ناقد فنى تمـكن من اللغة والادب والعلم والفن في العربية في أيامه تلك .

وما أخذه العقاد على شـــوقى حق وان كان العقاد مؤخذا في أسلوبه الذى ينم على السخط والغضب .

ويدعى الاستاذ عزت ابراهيم ان هؤلاء النقاد « تراجعوا عما رموه من تهم أو حاولوا من تنقص لشعره » وهو ادعاء مردود ، فلم يتراجـع أحـــد منـهم عن آرائـه في شـــوقى لانـه لم يبنـــها عـلى هـوى أو حقـــد ، بل بناهـــا على حقـائق قد تتغـير أزياؤها الظاهرة دون أن يتغـير جوهرهـا .

فالمازنى ـ رحمه الله تعالى ـ كتب قبيل وفاته مقالا بمجـــلة الهلال (اكتوبر ١٩٤٧ م) في ذكرى شوقى ولم يتراجع عن رأيـه فيه ، وهـــذا نص ما يقول المـــازنى :

« ان شوقى كان أنضج شعراء طبقته ، وكان أدقهم تعبـيرا ، وأبلغهم ، وما زال رأيي في شعره كما كان » .

أهذا تراجع من المازنى ؟ كلا ، فالرجل يقول بصراحة ووضوح: « وما زال رأيي في شعره كما كان » .

ولنا أن نسأل ما رأيه الذى ما زال كما كان ، ويجيب الاستاذ المازنى بقوله : « وما زال رأيي في شعره كما كان ، وهو أنه في صدر حياته أشعر منه في أخرياتها ، ولكنه في العهد الاخير كان أبلغ عبارة ، وأعلى بيانا ، وانه كان ذا حيـوية عجيبة ، من ذلـك أنـه اقتنع في شيخوخته بأن نظم القصائد عـــلى الطريقة القديمة التقليدية عبث وباطل ليس بجدى فتحول الى وضع الروايات الشعرية التمثيلية ، وطمـــح أن يكون في الادب العربى كشكسبير في الادب الانجليزى ، ورأيي أنه لم يوفق ، ولكنه لا يسعنى الا أن أجل هذه الحيوية في شيخوخته وهذا الاجتهاد المضنى في سن عالية وتلك الغيرة الرائعة

على شعره ومكانته وسمعته ، ولم ينقطع عن نظم القصائد المألوفة ولكنه صار عظيم الاهتمام بالشعر التمثيلى » •

ويقول المازنى : « خليل مطران هو أول من أدخل شيئا من التجديد على الشعر في مصر ، وتبعه شوقى حينا ثم صرفه مركزه الرسمى في بلاط الخديو عباس عن مواصلة الاتباع ، ثم ظهر مذهبنا الجديد ـ ولست أفاخر فانها حقيقة تاريخية ـ فحاول أن يساير زمانه بالتحول الى الشعر التمثيلى ولا عيب في شعره هذا من حيث أنه شعر ، وانما العيب في القصة نفسها وفي طريقة عرضها أى في الفن التمثيلى لا في النظم » •

فالمازنى لم يتراجع عن آرائه في شوقى والخلاف بينهما خلاف مذهبى •

وكذلك العقاد ، فما زال رأيه في شوقى كما كان ، لانه رأى بناه على الصدق والحق ولم يكن مخضا لهوى ، وان كان الاسلوب الذى ظهرت به آراء العقاد ونقداته في « الديوان » أسلوبا يتضرم غضبا وعنفا وشدة وبأسا ، ولكن الرأى نفسه أو النقد نفسه منبثق عن نظرة فنية فاحصة وايمان بمذهب جديد في الادب يغاير مذهب شوقى •

والعقاد لم يتراجع ، بل ما زال رأيه في شوقى كما كان وها هو ذا رأى العقاد الاخير في شعر شوقى نشره في هلال اكتوبر ١٩٤٧ م :

« لم يكن شوقى من المجددين الذين يعطون من عندهم كل ما أعطوه من معنى وتعبير ، ولكنه كان يقلد ويتصرف ، فهو قد نشط بالشعر من جمود الصيغ المطروقة والمعانى المكررة ولكنه لم يستطع أن ينتقل به من شعر القوالب العامة الى شعر « الشخصية » الخاصة التى لا تخفى معالمها ولا تلتبس بغيرها فلا شخصية هناك في قصائده ولا في رواياته ، ولا يخصه شىء من شعره فاذا صرفنا النظر عن براعة القالب وطلاوة اللفظ ونغمة الاداء ، لهذا يعرض لنا الابطال في رواياته كأنهم « الخامات » التاريخية بغير تصوير من الخيال أو صقل من القريحة » •

ويقول العقاد : « وخلاصة القول فيه انه مقلد مبتكر أو أنه مبتكر مقلد ، فلا هو تقفى آثار الاقدمين ولا هو ينفرد بملامحه الشخصية في التعبير عن نفسه أو التعبير عن سواه » .

والاستاذ عزت ابراهيم الذى يأخذ على العقاد تحامله على شوقى يقع هو نفسه فيما يأخذه على العقاد ، فقد تحامل على العقاد وتجنى عليه بتهم خطيرة تدل على أنه لم يعرف مذهب العقاد في الشعر ، ولم يقرأ له شعرا يفوق بعضه روائع شوقى .

ومن ذلك ما يقول الاستاذ عزت ابراهيم : « والعقاد في ذلك لم يخرج عن طريقة الاقدمين في النقد حين كانوا يقولون ان فلانا أشعر الشعراء لبيت واحد قاله أو أن هذا الشاعر أشعرهم اذا رهب الى مثل ذلك من الترهات والسخافات » .

والاستاذ عزت لا يتجنى على العقاد وحده ، بل يستبد به العداء له والحب لشوقى الى أن يتجنى على نقاد العرب القدامى فيصف أقوالهم وصفا شائنا معيبا وهو « الترهات والسخافات » .

ان أولئك الذين قالوا تلك الكلمات يجب أن يعدوا بين الفاتحين لانهم كانوا في بداءة النقد ونشوء فنه الذى يتبع الشعر نفسه ، فقد كان في الشعر « بيت القصيد » وكانت القصائد تمتاز بوحدة البيت ، ولم تعرف وحدة القصيدة الا بأخرة .

ويجب على المؤرخ المنصف أو الكاتب النزيه أن يلحظ مثل ذلك عندما يكتب التاريخ الادبى أو ما يشبهه .

وشوقى نفسه كان مثل الشعراء القدامى لا يعرف الا وحدة البيت ، حتى أن شعره أو قصائده تتفكك بحيث يمكن ـ كما صنع العقاد ـ أن تقرأ القصيدة من أولها أو وسطها أو آخرها وترتب أبياتها كما يتفق دون أن تحس بخلل في جو القصيدة العام ولا نسقها وترتيبها .

ولا يتهم العقاد بمثل ما اتهمه به الاستاذ عزت ابراهيم ، فالعقاد أول أديب عربى اطلاقا اهتدى الى النقد وقال بوحدة القصيدة وعاب ما يعيبه الاستاذ عزت الآن ، بل أعتقد أن العقاد صنع ذلك

قبل ولادة الاستاذ عزت ابراهيم ٠

قال العقاد قبل أربعين سنة في كتاب « الديوان » ص ٤٧ :

« يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الابيات في القصيدة حبات عقد نشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها ٠

« وهذا أول دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصد الفكرة وجفاف السليقة ، فكأنما القريحة التي تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الاشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة ، أو كأنما هي ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ، ولكن ليس فيه بنية واحدة حية ، ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه في قمته ، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه » ٠

فالاستاذ العقاد اهتدى الى ما يقوله الاستاذ عزت الآن قبل أربعين سنة ، ولا يعاب العقاد اذا قال : ان بيت أبى تمام يرجح بكل ما نظمه شوقى في ربيعياته وريحانياته الخ ، لان العقاد لم ينظر الى وحدة البيت بل الى المعنى المنطلق الذى يؤديه بيت أبى تمام ٠

واذا عيب على الاستاذ العواد تحامله واسرافه في التجنى على شوقى فان ذلك مما يعاب على الاستاذ عزت في دفاعه عن شوقى دفاعا أبعد عنه القصد والاعتدال ، وأركبه متن المبالغات التى لا يمكن أن نقبلها في معرض النقد العادل النزيه ٠

أسرف العواد عندما أزرى بشوقى ، وأسرف عزت ابراهيم عندما كال المديح لشوقى بدون حساب وفي غير روية وعدل ، بل

قال كلاما أبعد ما يكون عن الموازين الصحيحة ، فمن ذا يطيب له أن يسمع قول الاستاذ عزت ابراهيم : « شـــوقي هو شـاعر العربية الاكبر » و « حتى يرزق الله العربية من يبلغ مكانته سيظل شوقي شاعر العربية الاكبر وأمير شعرائها غير منازع » !؟

هذا قول فاقد قيمتـه الصحيحـة ، لان شـوقي ليس شاعر العربية الاكبر وأمير شعرائها غير منازع ، لانه لا يقف في صف واحد مع المتنبى مثلا أو مع ابن الرومى أو من في هذه الطبقة من الشعراء ، شوقي شاعر من شعراء العربية الكبار ، ولكنه ليس أكبرهم طرا ، ولا أمير شعراء العربية دون منازع .

ومثل هذه الاقوال المرسلة الخالية من القصد والصدق والحق تخل بالموازين الصحيحة ، بل لا توضع فيها لانها ليست مما يصح وضعه في الموازين الادبية .

واذا كنت أقول : ان الاستاذ العواد كان متجنـــيا في اعلانـه الحرب على شوقي فان الاستاذ عزت ابراهيم كان متجنيا في الاسلوب الذى اتخـذه دفاعـــا عنـــه .

ورأيي ان شوقي يعد من فحول شعراء العربية وممن نقـــلوا الشعر العربى بعد جموده الى شعر يتدفق قوة وحيوية وجمـــالا ، ولكنى لا أستطيع أن أضعه في مكان واحد مع المتنبى والمعرى وابن الرومى والشريف الرضى ، لان هؤلاء أعلى منه وأصدق .

اما شعر العقاد الذى تحداه الاســـتاذ عزت ابراهيم بقوله : « وليأت العقاد بشعره ولينثر بيننا كنانته ويدلنا على واحد منـــها فقط يستطيع أن يهدينا فيه الى شيء من عبقرية شوقى وعظمته » فان تحديه لا يطفيء شعاع شعر العقاد .

ثم ان « جملة » الاســـتاذ عزت ابراهيم مضـطربة في الاداء والتركيب ، مثل قوله : « ويدلنا على واحد منها » و « يهدينا فيه الى شيء من عبقرية شوقى » .

وأنا قرأت دواوين شـــوقي ورواياته ، وقرأت كـــل دواوين العقـاد ، ولكل وجهة هو موليهـا ، وان للعقاد لشعرا يعجز شوقي

ان ياتى بمثله مثل قصيدة « ترجمة شيطان » لان أسلوب العقاد الشعرى يختلف عن اسلوب شوقي وطريقته في الاداء ، فعجز شوقي مرده الى مذهبه الاتباعي ، وليس الى فقدان القدرة على النظم والتجويد ٠

ولماذا ياتيه العقاد بشعره وينثر كنانته الآن وقد صنع ذلك منذ خمسين عاما ؟

ولماذا يهديه العقاد الى « شيء من عبقرية شوقي » في شعر العقاد نفسه ؟ أترى العقاد مقلدا يتأسى شوقي ؟

ان لكل من الشاعرين شخصيته وعلاماته الفارقة ، وفي شعر العقاد من الخصائص ما لا يجحده صاحب ذوق وفهم وشعور ، وفيه نفحات من العبقرية الاصيلة التى لا نخطئها في شعر العقاد اذا قرأناه بتدبر وتناولناه بنزاهة وانصاف وشعور متفتح ٠

وليس من العدل مسلك الاستاذ العواد مع شوقي ، وان من الظلم منهج الاستاذ عزت ابراهيم مع العقاد والمازنى وطه ، وقد كان ظلمه للعقاد شديدا ٠

وليس من النقد الادبى كلا طريقيهما ، وان كان تجنى الاستاذ العواد على شوقي أشد وأكثر ظلما ، فقد اتهم شوقي بالقذارة وبأنه شركسى دخيل ، وما كان شوقي الا نظيفا وعظيما وعربيا ومسلما ، وأحد مفاخر العربية وقمة من قمم العروبة الشاهقة ٠

وان من الظلم انكار عبقرية شوقي وجحود شاعريته ، فشوقي شاعر عبقرى وحسبه أن يكون على لسان الزمن ذكرا يتجدد بتجدده، ولم تستطع الحملات الى اخفاء شعره واسمه سبيلا ، وهذا هو انصاف الحق وعدل التاريخ ٠

نشرت في جريدة « عكاظ » في ١٢-٦-١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) ـ

شوقي رحمه الله

يكتب الاستاذ محمد حسن عـواد سلسـلة من الكلمات في « العقاد » بجريدة « البلاد » تحت عنوان : « في رحاب الخلود » عاد فيها الى شوقى بالطعن والتجريح وسلك معه البارودى في الانتقاص والازدراء ، ولو رجع الاستاذ العواد الى « شـعراء مصر وبيئاتهم » للعقاد لوجد الحق ورأى الصواب .

واذا كان العقاد ــ رحمه الله ورحم شوقى والبارودى ــ في « الديوان » فتاكا هداما فانه في « شعراء مصر » ناقد حصيف .

وأنا لا أوافق الاستاذ العواد على تهجمه وانتقاصه لشـوقى وانتهازه كل فرصة للتشهير به وتجريحه بدون حق .

ان من يكتب عنه قد تراجع عن التحامل على شوقى وأنصفه وأكرمه ، فلا يصح بالاستاذ العواد أن ينبش عليه قبره بما لا يصح ، والعقاد نفسه لا يرضى من الاستاذ العواد أن يستبدل الحقد بالنقد ، وجدير به أن ينزه قلمه مما لا يحسن أن ينسب اليه .

وأخشى أن تعود جذعة بين الاستاذين : العواد والربيع كما كانت على صفحات « المدينة » والقراء ما يزالون يذكرون المعركـة ويذكرون أنهم وقفوا مع الربيع لانه أنصف وعدل ونزه ما كتب عن التجنى والخطل ، وكنت أنا ممن نصر الاستاذ عبد العزيز الربيع لانـه كـان على حـق .

وان « شوقى » شاعر من أكبر شـعراء العرب في العربية ، وحسبه ان العقاد نفسه يعتده من الشعراء البارزين ، ولولا عظمـة شوقى في العصر الحديث ما تبارت أقلام الكبار والصغار في الكتابة عنه ، وليس في عصرنا شاعر ظفر بما ظفر به شوقى ، وما زاحم المتنبى شاعر مثل شوقى ، فاذا كان المعاصرون يستشهدون بأبيات للمتنبى فانهم يحفظون لشوقى أبياتا وأبياتا .

وأى حياة وسيرورة ذكر وبعد صوت وعبقرية كهذا الذى امتاز به شوقى .

انه يعيش على ألسنة العباقرة في الادب والفن والدين والاخلاق كما يعيش على ألسنة جميع الطبقات في كل بلد من بلدان العالم العربى ؟

نشرت بجريدة « الندوة » في محرم سنة ١٣٨٤ هـ (يونيو ١٩٦٤ م) .

* * *

آثار ادبيـــة

قليلة الفائدة

قال لى اليوم قارىء : لماذا لم نجد في انتاج كبار الادباء آثــارا قليلة الفائدة ، واذا ضاعت من نفس القارىء فلا يتأثر بضياعها ولا يشعر بأنه فقد كنزا ثمينا ؟

وقال : لماذا لا يتوخى الادباء الكبـــار نشر الجيـد الممتاز من أدبهم ؟ ولماذا لا يتلفون كـل انتـــاجهم الـذى لا يبـــلغ درجـــة الجودة والامتيـاز ؟

وقال : أليس أضمن لحسن سمعتهم أن يكتـــفوا بالانتـــاج الجيــــد الممتـــاز ؟

ووافقته على أن الاديب الكبير قد ينتج ما هو قليـل الجدوى والاثر، ولكنى قلت له : ان الاديب كالبستان الكبـــير ، فيه الثمر الغالى وفيه الثمر الرخيص وفيه مالا ثمرة به ، وفيه شـــوك ، لان البستان الكبـــير لا يكون كذلك الا اذا اجتمع له هـــــذا الشتيت المختلـــف .

بل الاديب كالدولة ، تنتج « الجنيــه الذهبى » وتنتج ورقة تساوى مائة جنيه ، ومع هذا لم يعيرها أحد بأنها تنتج « السانت » أو « البنس » أو « المليم »أو « الفلس » أو « الهللة » .

ما قيمة الهللة عند الدولة بل عند الافراد ؟ .

لا شيء ! .

بل لا يحس الطفـــل بفقدها اذا ضاعت منه ، وقـــد يلقيها لهوانها عنـــده ! .

ومع هذا لم تقـف الدولة عن انتاج « الهللة » لانهـا ضرورة لابـــد منهـــا .

كذلك انتــاج الاديب ، تجد فيه ما يشبه الجنيه الذهبى وما يشبه الهللة ، وكل ضرورة .

وقد تبدو « الهللة » هينة لا قيمة لها ، ولكنها جزء من اجزاء الجنيه ، فهى لازمة لاغنى عنها ، وكذلك الانتاج الادبى قليل الفائدة جزء من صاحب الانتاج ، وقد يشبه النقط على الحروف ، ولولا النقط لما استطعنا أن نقرأ صحيحا لنفهم حقا ٠

انه يكمل الصورة الانسانية التى لاتخلو من الضعف ٠

ولا يؤاخذ الاديب على ذلك الانتاج ما دام مصحوبا بالانتاج الموصوف بالجودة والامتياز ، اما اذا كان انتاجه وقفا على غير الغالى النفيس فمن حقنا أن نؤاخذه كما نؤاخذ الدولة التى لا تنتج من العملة الا الهلل ٠

أما وهو ينتج ما يشبه الجنيه فلا ملامة عليه اذا أنتج ما يشبه الهللة !

★ ★

وسألنى قارىء عن الآثار الادبية عامة فى أدبنا العربى الحديث ، ألها شخصية تعرف بها أم هى آثار مفقودة الشخصية ؟! وهذا جوابى :

الآثار الادبية التى نقرؤها فى العالم العربى فقدت شخصياتها ، فنحن لا نجد فيها الاساليب التى تمثل أصحابها ٠

وليس هذا وحده ما تمتاز به تلك الآثار بل هناك اشياء خطيرة قد تودى بالادب فى مستقبل الايام ٠

ولولا أن الادباء الذين ينتجون تلك الآثار يعاشرون ذوى الاساليب الرفيعة الرائعة وقريبو عهد بها لما كان فيها بعض اللمحات الفنية التى تتصل بالاسلوب وجمال البناء ٠

ان الادب العربى بدأ يفقد استقلاله وشخصيته ، واخذ يمثل الروح اليسارية حتى فى كارهيها ، لانهم أخذوا يقلدون ٠

ومن سوء حظ العربية والعرب أن روسيا استطاعت خلال بضع السنوات الاخيرة أن تتقرب الى كثير من بلدان العالم العربى ، واقيم لها من الدعاية ما جعلها تدنو من النفوس التى عميت عن أخطار الشيوعية ٠

هذه الميول اليسارية التى دوج لها كثير من الكتاب شاعت فى

العالم العربى ، واستطاعت أن تشغل الرأى العام العربى عن الشيوعية وخطرها بمقاومة الاستعمار الغربى دون التنبه لخطر الشيوعية .

وأدى هذا الى التغاضى عن خطر الشيوعية أو تجاهلها ، كما أدى الى رضا بعض الناس في العالم العربى عن الشيوعية والى اعتناق بعضهم مذهبها الباطل الهدام .

وما اشك أن كل هذا جعل حياتنا الفكرية في قلق ، وآدابنا الحديثة في ضعة وانحدار ، حتى أصبح الكمال نقيصة يؤخذ بها الانسان ، وصار النقص مزية تحسب في عدد المزايا والحسنات .

ونترك كل ميدان الا ميدان الادب لنقف عليه كلمتنا هذه ، وننبه الى الخطر الذى يتقحم تطورنا ومواضع الامن والعبقرية في آثارنا .

ولعلنا نذكر ان الناس كانوا ـ قبل معرفة البلدان العربية للشيوعية ـ شرفاء يحس الناقصون منهم نقصهم فيسترونه لانهم يدركون أنه عيب يجب اصلاحه ، فكانوا يقتدون بذوى الامتياز ويقلدونهم في أساليبهم وكلامهم .

أما الآن فقد انقلب الحال ، وصار الكمال سبة ، ونشدانه مضيعة ، والاتصاف به أرستقراطية مقيتة .

وكما قيل في الاقتصاد : ان العملة الزائفة تطرد العملة الصحيحة ، فقد أصبحت السوق الادبية لهؤلاء الذين لا يحسنون التفكير والتعبير ، وخلا الميدان من الاعلياء الا قليلا منهم مازالوا يحاولون البدع المنكرة التى ابتدعها المحرومون من الامتياز الادبى والخلقى .

وأكاد أشم في أكثر الانتاج الادبى رائحة لا أسيغها ، تلك هى رائحة الشيوعية التى تريد هدم الادب العربى الصحيح ليسهل عليها بعده الانقضاض على الشعوب .

الاساليب الجديدة فاقدة جمالها فلا تحس فيها الروعة والخلابة ، ولا تجد بها الروح الانسانية المعبرة .

وما أدرى كيف يستبيح الدعاة الى هـذا الادب دعوتهم الى العامية والكتابة بلغة أقرب اليها مع أن عصرنا هذا يمتاز عن العصور جميعها بانه ألبس الضرورات رداء التمام والجمال ؟

السيارة التى تركبها أنيقة ، والرغيف الذى نأكله رائع الشكل ، والالوان مغرية ، والمظاهر جذابة ، وأدوات المنزل والتحف رخيصة ، وكلها تمتاز بمظهر جمالى رائع ، ومع هذا نأتى الى الادب وندعو الى نزوله الى الرعاع ، ونريد تجريده من عنصر الجمال ونتهم ذوى الاساليب المشرقة بالعبث ، كأن الادب وحده هو الذى يجب أن يناله المسخ .

ويظهر من استثناء الادب أن في الامر شيئا ، ألا وهو القضاء على الروح الفنية فيه .

وانا لا أشك أن « المضمون » ذو قيمة في الاثر الادبى ، ولكن لا ينكر الاسلوب ، ومتى كان كفاء المضمون الرائع أسلوب جميل كان التمام والجمال .

الماء الذى نشربه يروينا سواء أشربناه في كأس نظيفة غالية أم كأس من النحاس ، ولكن تختلف المتعة في الشراب بين كأس جميلة وأخرى قبيحة ، وقد يصدنا القبح عن الشراب ويقلل الرى .

وكذلك الامر في الاثر الادبى اذا هبط أسلوبه ، وهبوط الاسلوب ليس دليل صحة وقدرة بل هو علامة العجز والتخلف والسقم .

وما يزهد في نشدان الكمال الا عاجز ، وما يفضل الناس بعضهم بعضا في الضرورات ، فكلنا ـ انسان وحيوان ـ نشترك في الرغبة الى الطعام والشراب ، ولكن ميزة الانسان التطلع الى المثل العليا في الحياة ، فمتى فقدنا هذا التطلع فقدنا معه جانبا هاما من جوانبنا الانسانية !.

وان كل أديب كبير في الارض يمتاز بأنه صاحب أسلوب جميل ، أما غيره فلا يستطيع لانه عاجز مهيض الجناح ، وما يطلب من مهيض الجناح أن يحلق ؟

الصحافة

اندمج بعض الصحف في بعض رجـــاء أن تقوى بعد ضعف ، وتصح بعد هزال ، ولكني أعتقد أن من العسير على الحكومة أن تميز فريق الصحفيين ، كماأن من العســـير على البـاحثين المفكرين أن يمـــيزوا هـــذا الفريق •

نستطيع أن نميز فريق المهنـــدسين والاطبـــاء والنجـارين والحدادين دون عسر ، لان لكل فريق من هؤلاء حدودا مرســـومة وسمات معلومة ، أما ان تسير الى هـــذا وتزعم أنه صحفى فلا الا نادرا جـــد نـــادر •

من الصحفى ؟ أمالك الجريدة ؟ المحررون ؟ سكرتير التحرير ؟ المخبرون ؟ الموزعون ؟ تستطيع أن تطلق لقب الصحفى عـــلى كـل هؤلاء وكل من له صلة بصحيفة صلة مباشرة في صدورها • ولكن ذلك ـ ان كان صحيحا في بعض مذاهب القول ـ لا يصح في حقـل الحقيقة التى تنشد ايضاح السمات واقامة المعالم والحدود ، حتى لا يطغى شيء على آخر •

وصحفنا المحلية ما تزال وليدا ناشئا يحبو في مدارج الطفولة مع أن بينها ما يبلغ عمره ربع قرن أو أزيد •

ولست بسبيل البواعث التى دفعت أصحابها لاصدارهـا لان ذلك معروف عند أكثر القراء ، وهى بواعث لا تدعو الى قدرها الا في واحدا أو اثنـين حملهما الاخلاص للمبدأ والعقيدة عـلى الاشـــتغال بالصحافة ، فكان العناء من نصيبهما •

وان مما يؤسف له حقا في بعض من يملكون الصحف أن تجد بعضهم ينفى مزية بعض ، وهذا يدس على الآخر ويوقع به ، فيزعم أحدهم أن زميله لا يعرف الكتابة مع أن المتهم بجهلها أمضى اربعين سنه يحمل القلم ، وله رأى واســـتقلال وشـخصية ، وآخر يتحين الفرص بصاحبه حتى يوقع به ، ويشمت السليم بالمصاب وهكذا •

والـذى أعرفه ان صحافتنـا يجب أن تعمـل للدين والخلق ،

والصحيفة التى لا توجه الى الخير وتدعو اليه ، ولا تدين بمبدأ هى صحيفـــة خـــزى ٠

وما دامت صحفنا قد أدمج بعضها في بعض رغبة في تقويتهـــا وصحتها وتقويمها فان رجاء القراء أن تكون صحفنا مؤمنة بواجبها ، تؤديه على خير وجه حتى لا يلتوى بها القصد ٠

ولى اقتراح أرفعه الى رئيس الدولة رجاء أن يعنى به وهو رأى عن لى ، وهو ان اكتفاء كل مدينة بصحيفة يفقد القـراء ما ينتج من التنافس الشريف ، ويجعلهم تحت « دكتاتورية » صحيفة لا تخشى منافسا يحملها على التجويد ، أو يقفها عند الحد القوام اذا ند عنها الصواب أو خرجت عن الطريق المستقيم ، ويجعل الصحيفة قليلـة الاهتمام بما يدخل عليها التحسين والجمال والقوة ، لان هذا يكلف خزانتها مالا ٠

واذا اخطات الصحيفةثم احتجبتالى اجل مسمىأو غيرمسمىفما ذنب المدينة أن تخلو من صحيفة ؟ وما ذنب القراء ان يحرموا جريدة كانت تسعى اليهم بما يبتغون أو ببعض ما يرغبون ؟

وما دام دخل الصحيفة المتفردة مضمونا فلماذا تقلـله والقراء يجبرون على ارتياد مطعم لا يجدون غـــيره يحتـــكره فرد أو افراد يسيطرون على السوق ؟

نشرت بجريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ ٠

المعاصرون

فقدوا ذاكرة الحفظ

كان القدماء يمتازون بقــوة الذاكرة والحفظ ، لان التدوين كان قليلا ، ولان نسخ أى كتاب كانت معدودة ، فلما جاءت المطبعة ضعفت الذاكرة وقل الحفظ فلم نعد نحفظ كمـــا كان القدمـــاء يحفظون ، بل نعتمد على وجود الكتاب وسهولة الحصول عليه .

ومع ندرة الكتب في تلك الازمان كان الناس شديدى الحرص على الاطلاع عليها وشد الرحال من بلد الى بلد بحثا عن كتاب ، وندر في هذا الزمان من يصنع ذلـك ، وأصبـح القراء يقرأون للتسلية وتزجية الفراغ لا للتثقيف والافادة مما يقرأون الا نادرا .

ونحن نعد شعبا غير قارىء ، لان عدد من يقرأون قلة بالنسبة لعـدد المتعلمين ، فأضـــافوا الى فقــد الذاكرة وقلـة الحفــظ ندرة القراء والاطلاع .

وشبابنا المتعلم قليل القراءة نادر الحفظ ، ويشغل أوقـات فراغه باللهو واللعب ، أمـا القراءة فلا ، وأما الدراسة فتكاد تكون معدومة ، وقليـــل منهم من اطلـع عـلى الادب القديم وأمهـات ما ألـف فيـــه .

وليس في بلادنا ـ الآن ـ من يسمى حافظا أو صاحب ذاكرة علمية لان عقولنا لا تمسك بشىء بل تنسى بعـــد القراءة بدقائق ما قرأته ، بل تكاد تنسى السطر السابق .

واذا كان النسيان نعمة حينا فهو نقمة في احيان كثـيرة لانها تفقد الانسان ثروة ثقافية هو في حاجة اليها دائما .

روى الامام الصحابى الجليل أبو هريرة رضى الله عنه ٥٣٧٤ حديثا ونحن لا نروى الا يسيرا لا يذكر .

ورووا أن الامام البخارى ، ـ رضى الله عنه ـ كـــان يحفظ ثلاثمائة ألف حديث باسانيدها ، فهل بيننا في بلادنا من يحفظ ألف حديث بأسانيدهـــا ؟.

وكان الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يحفظ ستمائة ألف حديث ، والامام أبو زرعة رضى الله عنه يحفظ سبعمائة ألف حديث .

فأين في العالم كله أمثال هؤلاء اليوم .

وأملى الامام اللغوى العظيم ابن دريد كتابه « الجمهرة » من ذاكرته دون أن يرجع الى كتاب الا في الهمزة واللفيف ، وهذا من العجائب النادرة .

والامام الاصمعى كان يحفظ خمسة عشر ألف أرجوزة .

وتروى كتب الادب والتاريخ أعاجيب مدهشة عن حفاظ كانوا آية في الحفظ وقوة الذاكرة .

كان من يحفظ القصيدة الشعرية اذا سمعها مرة واحدة ، ويروون عن الشيخ ابن بليهد الكبير أنه كان أعجوبة في الحفظ وأنا أعرف الشاعر النجدى ، محمد بن بليهد ، وكان يحفظ شعرا كثيرا .

وكنت أنا نفسى أحفظ بعض الدواوين الشعرية ، بل أحفظ نصوصا كثيرة نثرية من كتب الادباء ، وكنت احفظ القصيدة اذا تليت أمامى مرتين ، وزملائى في الدراسة وأصدقائى يعرفون ذلك ، وما فقدت هذه الموهبة الا بعد سجن الرياض الذى استضافنى سبعة أشهر وعشرة أيام سنة ١٣٥٦ هـ

بل كنت وأنا في آخر عهد طلب العلم بالمعهد العلمى السعودى احفظ خطب الخطباء اذا سمعتها منهم ، وأعيدها كما هى .

وكان الشيخ أحمد بن الامين الشنقيطى ـ رحمه الله ـ معروفا بقوة الحفظ وصحو الذاكرة ، وكان يحفظ الشعر الجاهلى كله وشعر ابى العلاء كله ، ويحفظ دواوين والفيات ، وأملى كتابه « الوسيط في تراجم علماء وأدباء شنقيط » من ذاكرته وحفظه .

وفي الهند وباكستان وايران والعراق واليمن وشمال افريقية وغيرها أفراد قلائل يمتازون بالحفظ ، ففيهم من يحفظ صحيح البخارى ومسلم ، ومن يحفظ بضعة دواوين كبيرة ، ومن يحفظ متونا والفيات في مختلف العلوم والفنون .

ولم أسمع في بلادى كلها بحافظ ، عبقرى ، أما بين الشباب

فلا تجد من يحفظ يضع قصائد .

واذا تركت الحفظ واستثنيت الادباء الكبار لا أجد من جمع في قراءته بـين العـلوم الدينية والعربية والفلسفية والفنيـــة والادب العربى قديمه وحديثه والقصة والشعر وكل مايقرأ ، بل يقرأ عالم في الفقه الحنفى ـ مثلا ـ بضعة كتب لا يتجاوزها الى ســـواها ثم يخرج وكأنه امام فاذ ، وكذلك الامر في النحو والعربية .

هنا متعلمون يختلف بعضهم عن بعض في الكم ولكن المثقفـين ندرة ، والفارق كبير بين المتعلم والمثقف ، ولا تبنى المجتمعات الا على ســـواعد المثقفـــين .

ونحن فقدنا المثقفـين والعلماء المبتـكرين في جميع العـــلوم والفنون ، وفقدنا الذاكرة والحفظ ، ثم فقدنا القـراء ، وفقـــدنا الباحثين ، واغتررنا بقراءات محدودة ضيقة الحدود ضيئلة الجدوى قليلة المحصول ، ومع هذا نظن أنفسنا أننا بلغنا ، أو يظن كل منـــا أنه انتهى الى القمة حيث لا شىء الا السفح .

وان من الضعف الروحى ألا نشعر بالضعف الروحى ، بل من الضعف ألا نشعر بأننا في ضعف شديد ؟

نشرت في « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣ م) ←

أديب

مصرى ظريف

محمد مصطفى حمام ، الاديب المصرى الذى زارنا في بـــلادنا المقدسة في هذه الايام رجل كريم الاصـــل ، صافي القلب والنيــــة ، خفيف الظل ، محبوب ، صاحب « مقالب » تدخل السرور لا الحقد على النفس ، وهو من ذوى الدخل الكبير ، وطريق النقود الى جيبه ممهد ، ولكن جيبه ممزق لا يلبث فيه المال الكثـير ، وانه لاشـــبه بالقنطرة بين المال الكثير الذى يدخل اليه فينفذ منه في خفة وسرعة وبين من يمضى اليه ، وحمام ينظر الى هذا الشارد في ابتسام ٠

ان يد حمام تمسك كل شهر بمال كثير ، ولكنه كريم ، وكل أصحابه من طبقته المحتاجين الذين يظنون « الحمام » يبيض جواهر غالية ، فيقصدونه ويسترفدونه ، وهو لا يمنع ٠

هم على حق ، اذ يرون حماما في نقابــة الصحفيين ، له مكتب ضخم فخم كمكاتب الوزراء ، وهو ضخم الجثة ، وجسمه قابـل أن يظهر مثـــل « زيور باشا » محفظته منتفخة الاوداج لا بالورق النقد ولكن بالورق الذى يضم شعره ، فيظنون صاحب ملايين ، وما حمام الا ذو ملاليم ، ويرونه على صلة بالعظماء والاغنياء ، ويتذكر أولئك الفقراء المثل القاتل : « ان الطيور على أشكالها تقع » وحمــام يقوم بوظيفة « محصـــل » لبعض الادوات والافراد ، يسلمونه ـ لامانته البالغة ـ الشيكات ليتسلم لهم من البنوك نقودهــم ، فيظنون ثريا لانهم يرونهه كل يوم في بنك ٠

وحمام يستعمل كلمات العظماء والاغنياء ، ويرونه في الصباح يركب سيارة فخمة وفي الظهر يركب غـيرها ، وبالليل يبصرونه في سيارة غير التى رأوها في الصباح والظهر ، ويظنون غنيا من أغنياء الحرب ، يغير سياراته كما تغير النسوان الفساتين بين وقت وآخر٠ وتلك السيارة سيارات أصحابه من الملاك الكبار ٠

والانسان يحرص بطبيعته وغريزته عــلى التفوق والامتيــاز والسمو : وحمام انسان ، فهو لا يريد ان يظهر أمــام قاصديه أنه فقير معدم ، فيفرج كروب المحتاجـــين ، ولهذا تجد حمـــاما خالى الوفاض ، ولكنه غير بادى الانقاض •

وحمام صاحبى ، وهو وفي لاصدقائه ، لا يكون في جيبه غــير جنيــه أرسلته به أسرته يشترى لهـــا به بعض حاجات المنزل من الطعام فأقابله فيمسك بى ويدعونى الى مطعم اتناول فيه الغداء على حسابه ، فاذا أعتذرت له يكاد يبكى ، ولكنه يمسك بغيرى فيلبى ، ويمضى الى المطعـــم ويترك منزله المحتاج ينتظر « الحمام » الــذى أضاع طعام فراخه •

هذا الحمام الذى أمسك بخلق الله من الموتى والاحياء عـــلى السواء ووضعهم على المشرحة ، والمشرحة هنا الجرائد ، ولعلها أشنع من المشرحة ، بل هى حقا أشنع منها وأخذ ينزع منهم ملابسهم ليظهر بعض ما اختفى ، وأحمد الله على أنه لم ينزع الا الملابس الخارجية والا لهجر الناس القراءة •

لماذا لا نصنع مع حمام ما يصنعه مع غيره ، فننزع عنه بعض الملابس الخارجية • ولكن ليطمئن القراء ، اننا اذا نزعنا هذه الملابس عن حمام فانه سيبدو في مظهر الرياضى الذى يزينه ولا يشينه •

قابل حمام في دكان « فكهانى » ببلدته أمام مسجدها يشترى موزا فقشر واحدة وأكلها على ســبيل الذواق وألقى بقشرتها تحت أقدام حمام التى وطئها فكادت دوحته الضخمة تسقط لولا أنه أسرع في خفة الغزال وأمسك بفتاة كانت أمامه ولكن يده ــ لسوء حظه أو حسنه لا أدرى ولكن حماما يدرى ــ أمسكت بظهرها فاذا الفستان يسقط كله أو يكاد يطير لانه كان قائما على خيط من المطاط ما جاءت يد حمام عليه حتى تقطع فطار الثوب عن جسد فاتن •

واعتذر حمام بادب ، وما رأيت أحدا أبرع منه اعتذارا ، ونظر الى الشيخ الامام في صمت ، ورآه وهو يقلب العنب وكاد ان يشترى منه أقة فانبرى له حمام وبدأ حديثه معه بقوله : ياسيدنا الشيخ ، لماذا لم تشتر المــوز ؟ فاجابه : انه غـــير ناضج ، فتركه حتى اذا اشترى من العنب أقـــة بتسعة قروش قـــال له بعـــد ان صعد

دكـــة عالـــــة :

ياسيدنا الشيخ ، أين كانت حكمتك عندما اشتريت العنب ، ألم تقرأ ما كتبه جالينوس وسليمان عزمى باشــا عن أضراره ، ان العنب اذا اختمر في المعـــدة انقلب داء ؟ أنسيت أن العنب أساس الخمرة التى حرمها الاسلام ؟ وكيف غاب عنك وأنت الذكى العبقرى أن العنب لا يشعر بالوجاهة ، فالاقة التى اشتريتها منه الموضوعة في كيس صغـــير لا يعرف أحـــد غـــيرك مـــا بداخله ، ولكن لـــو اشـــتريت بطيخـــا لكان أحســـن ، فالبطيـــخ يحـــوى من أنواع الفيتـــامين ٩٦ نوعـــا ، وبـــه مـــن المـــواد الحـــديدية التى تقوى الجســـم ما لا يحصى ، ألا ترى أن كـــل من يأكل العنب يصبـــح خفيفا كالقرد ثم يهمد ، وسبب هذا انه لا يحتوى الا على شيء يسير من الكحول يطير ويأخذ معه بعض عقل آكله واتزانه . أما البطيخ فلكثرة ما يحتوى من المواد الحديدية يكاد آكله يصبح مكينا راسخا، فاذا نهض نهض قويـــا ، وفيه غناء عن كل طعـــام وشراب ، لانه يحويهما معـــــا .

ثم ان البطيخ يا مولانا أكثر مزايا من العنب ، بل لا مجـــال للتفضيل بينهما ، اذ من ذا يؤثر الخل الذى هو بعض مواليد العنب على العسل الذى تجده في البطيخ ، ثم انك لو اشتريت بطيخا لرأيت البائع يقف لك في اعتدال ويسلمك البطيخة في وقار ، وتقلبها بين يديك وتتمتع بمنظرها وجرمها وتربت عليها كما تربت عـــلى ظهر حسناء فيراك القاصى والدانى اللذان يريان البطيخة ويخطئان العنب لصغره واختفائه في الكيس ، ويقبل الناس اليك من كل حدب وصوب ينظرون اليك في احترام ، فاذا اشتريت البطيخة حملها لك الفكهانى أو خادمه أو احترام ، فاذا اشتريت البطيخة حملها لك الفـــكهانى أو خادمه أو أحد الناس ، ويمشى وراءك بين الانظـــار المعجبة والالسنة الهامسة بفضلك ، ويعلم الناس ان فضيلة الشيخ اشترى بطيخا ، وأين هذا كله من أقة العنب التى تاخذهـــا وتمضى في صمت ولا يشـــعر بـــك أحـــد .

وعندما تصل الى دارك تصرخ : يا ولد ، تعال ، وخذ البطيخة ،

فيهرع جيرانك الى النوافذ والابواب ، يرون ما أحضرت ، ثـــم اذا تسلم ولدك البطيخة صحت بمن يحملها لك : تفضل يا أخى ، والله لا بد أن تدخل وتتناول معى الغداء وأنت تعلم أنه لن يدخل ، فتبالغ في دعوته بصوتك الجهورى ، فيعلم الناس أى كريم أنت ، وأى رب أسرة يبر اسرته واولاده ، فتصبح في عين الجيران عظيما كريما .

ثم ثلج باب دارك فيلتف حولك أفراد الاسرة جميعا يحيونك ويشكرونك ، وعندما تقطعهـا ويطعمون منها ويذوقون حـــلاوتها يقبلون يدك شكرا ، ولا تنسى أنك لن تلقى بشيء من البطيخ ، فاللب اللصيق بالقشر تكشطه وتعمل به مخللا ، أما القشرة فتلقى بها الى غنمك ومواشيك ، وتبقى « البذور » تجمعها وتجففها ثـم تحمصها وتتسلى بها انت واولادك وتقضون اسبوعا سعيدا في التســلى بتلك البذور ، وكلكم غارق في السعادة والسرور .

فأين يامولاناكل هذا من أقة العنب ؟ ولا تنسى الفوائد الصحية والاقتصادية ، فان البطيخة مهما ضخمت جثتها وكبر جرمها أقــل من قيمة العنب .

وهكذا ألقى حمام على فضيلة الشيخ امام مسجد بلدته محاضرة استغرقت ساعة ما خانه فيها المنطق حتى آمن الشيخ بقول مصطفى حمام وشكره ووعد بالا يشترى غير البطيخ مادام حيـا ، واذا مات يوصى خلفه بـــه .

أيذكر الاستاذ حمام هذه القصة التى قصهاعلى كثـــير ممن حضروا حفلة تابين الشاعر المبدع عــــلى محمود طه الذى توفي في المنصورة مساء الخميس ١٣ جمادى الاول ســـنة ٣٦٩ (٢ مارس سنة ١٩٥٠) وذلك بعـد منصرفهم الى ضيعة الاســـتاذ الزيـــات قرب المنصـــورة ؟

ومن طرائف حمام أنه كتب مقالا عنوانه : « السرقات الادبية » في مجلة « الصباح » اتهم فيه كـل شــعراء مصر البــارزين ، وممن اتهمهم حمام الاستاذ الكبير عبـاس محمود العـــقاد ، اتهمه بسرقة قصيدة رائعة للشاعر التلعفرى وانه نسبها الى نفسه ونشرهــــا في

ديوانه ، فذهل العقاد من هذه « الحادثة » لانه أدرك أن هذا ليس من توارد الخواطر • واذاكان كذلك فلا لوم على من يتهمه بالسرقة • فبحث العقاد في مكتبته العظيمة فلم يعثر بديوان التلعفرى الـــذى اختفى لصغر حجمه بين المجلدات الكبيرة ، ومضى الى دار الكتب المصرية فاطلع على مطبوعه ومخطوطه فلما لم يجد ما ذكره حمام اتصل بـــه تلفونيا ودار بينهما الحوار الآتى :

العقاد : أأنت حمام ؟

حمام : نعم •

العقاد : كيف تزعم يا حمام اننى سرقت قصيدة التلعفرى ؟

حمام : نعم يا باشا •

العقاد : أسكت ، فلقد قرأت الديوان كله فلم أجد القصيدة •

حمام : يا باشا ، اطلع على نسخة دار الكتب المخطوطة •

العقاد : مخطوطة في عينك ، اطلعت عليها وأتعبتنى أتعبك الله!

حمام : هذه دعابة ، وأرجو أستاذنا الا يخبر أحدا من الشعراء فكل ما ذكرته واتهمتهم به كان دعابة •

هذه ألوان من دعابات حمام ، ولعلنا نذكر في الكلمة الآتية بعض هذه الدعابات اللطيفة التى اشتهر بها هذا الشاعر المصرى الظريف ؟

نشرت بجريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ

اديب

مصرى ظريف -٢-

محمد مصطفى حمام : الشاعر المصرى الذى تحدثنا عنه في كلمة سابقة يأبى الا أن نصاحبه في هذه الكلمة ، وحمام رواية يحفظ كثيرا ، وملكة الابتكار عنده خصبة حية تزداد خصبا كلما مرت الايام فهو يستطيع أن يخترع مئات القصص في جلسة واحدة ، وانه لقدير أن ينظم هو نفسه شعرا وينحله غيره من الشعراء فيخيل اليهم أنه شعرهم .

ونحمد الله أن مصطفى حمام لم يكن في العصر العباسى ، والا لاستطاع أن يخفت صوت حماد ، ولو كان في ذلك لوسعه أن ينحل الشعراء مئات القصائد ، بل لكان في وسعه أن يصل بعدد المعلقات السبع أو العشر الى المائة ، ولأوقع الدكتور طه حسين في حيرة من أمره حتى يحمله على نكران الشعر الجاهلى كله والشعر الاسلامى في القرنين الاولين للاسلام .

نحمد الله على أنه لم يكن في ذلك العصر وجاء في عصر نعيش معه فيه ونستطيع تمييز منحوله من الشعر .

نظم حمام قصيدة وطنية رائعة ونحلها الشاعر محمد الهراوى ، وذهب اليه بها وقال له : يا بك ، عثرت لك على قصيدة قديمة نظمتها قبل ست وثلاثين سنة ، ونشرتها احدى المجلات ونقلتها منها ، وهى عندى ولا أسلمك اياها الا بعد أن تعطينى خمسة جنيهات ثمنا لها ، فسر الهراوى وطلب اليه أن ينشد له المطلع فأنشده ، وسأله عن عدد أبياتها فأجابه حمام : ستون ، وسلمه اياها بعد أن تسلم خمسة الجنيهات ، وأخذ الهراوى يتلوها وحمله بناء القصيدة ومطابقة أسلوبها لاسلوبه أن يصدق ، ثم ان حمام أيد أقواله بايمان مغلظة ، ولما طلب اليه أن يذكر اسم الصحيفة زعم أنه نسيه .

وما علم الهراوى أن القصيدة من نظم حمام الا بعد أن تسامع الناس بالقصة وورووهـــا ٠

وبعث حمام قصيدة من الشعر تشبه الشعر اللبنانى الى مجلة الرسالة » واخترع أســماء كهذه الاسـماء اللبنانية : (بشرى ، صوفر ، بحمدون) لا وجود لهـا الا في مخيـلة حمـام ، مصحوبة بخطاب الى الاستاذ الزيات ، وجعل عنوان الشاعر « المخترع » بلدة نسيت اسمها الذى اخترعه حمام اختراعا كان ـ والشهادة لله ـ موفقا فيه كل التوفيق ، ووصف مرسل الخطاب هذه البلدة الخيالية وصفا شعريا رائعا ، ونسب فيه الى ياقوت والازهرى وابن خلدون اقوالا ما خطرت ببالهم ولا مرت بأقلامهم ٠

ونشرت القصيدة في « الرسالة » بمقدمة جميلة ، واتصل حمام بالزيات وهنأه على توفيقه لاكتشاف هــذا الشاعر العبقرى وساله بالتلفون عن أصله وفصله وبلدته ، فحدثه الزيات حديثا مشبعا عن كل ما سال حمام ، وحمام يضحك في نجاح « مقلبه » ٠

وبعد أيام بعث الى « الرسالة » قصيدة أخرى باسم الاستاذ الاسلامبولى صاحب مجلة « المعرفة » اختار حمام كلماتها من الالفاظ الغريبة والنوادر الحوشية وأضاف اليــها من مخترعاته ألفاظــا ابتكرها ابتكارا مثل : حكاظغ ، وحصباص ، ونفتاب ، وسكفام ، وقرشاق ، وفربيس ، وحنسوق ، وقصناح ، وقريحس ، وغيرها ، وبعد أيام اتصل حمام بالاستاذ الزيات مهنئا على طريقته ٠

وسال حمام مرة أحد الاساتذة الازهريين المشهورين بمعرفـة الفصحى عن معنى بيت من الشـــعر نظمه حمام وحشد فيه ألفاظا اخترعها من خياله الخصب ، والبيت لا معنى لــه ، وكان المجلس حافلا ، ومع حمام طائفة من أصدقائه صحبوه الى الازهرى ليشهدوا ويسمعوا ، فروى حمام البيت ونسبه الى شاعر اخترع اسمه وزعم أنه جاهلى ، وأخـذ الشـيخ المسئول يشرح المعـنى ويفسر الالفاظ اللغوية حتى اذا انتهى من ذلك تحدث عن الشاعر وترجـم لــه وحمام وزملاؤه الخبثاء يضحكون ٠

واحتاج حمام في أواخر رمضان ذات سنة الى بضعة جنيهات فمضى الى الاستاذ مصطفى القشاشي صاحب مجلة « الصباح » واستدانه فرضى القشاشي أن يدفع اليه الجنيهات المطلوبة تلقاء أن يقدم حمام حديثا بمناسبة العيد لاساطين الادب وزعماء الفكر ، فوعد حمام أن يتصل بهؤلاء ويسألهم ويدون أجوبتهم ، وأخذ بعض ما طلب على أن يأخذ ما بقي بعد تقديم الحديث .

وقبيل العيد بيومين جاء حمام باسطا جناحيه زهوا وقدم الحديث الى القشاشي وأعجب به وضاعف مكافأة حمام ، لانه زعم أنه احتمل بسبب هذا الحديث نفقات ، فقد سافر الى الاسكندرية خلف العقاد ، ومضى الى المازنى في دمنهور ، واتعبه طه حتى لقيه وأعطاه ، فقد أنفق في ركوب تاكسيات أكثر من مائة وخمسين قرشا مصريا في سبيل حديث طه .

قبض حمام مكافأة سخية وطار بها ، ونشر الحديث الذى أعجب به القراء وأعجبوا كل الاعجاب بحمام الذى وفق هذا التوفيق .

واتصل الاستاذ الزيات بحمام وسأله متى أخذ منه الحديث ، فأجابه : قبيل عيد السنة الماضية ، واستطاع حمام أن يوهم الزيات أن الحديث حديثه لانه رجع الى ما كتبه الزيات وغيره واقتطع من مقالاتهم ما يناسب المقام وأضاف من عنده ما يتفق مع أساليبهم .

ولحمام حوادث كثيرة مثل ما ذكرت ، ولو جمعها هو نفسه لكان بين يدينا كتاب جديد رائع نادر المثل في مكتبتنا العربية ، فهل يستجيب أم تراه مشغولا بالخطاب دون الكتاب ؟

وأحيي صديقي الاديب المصرى الظريف محمد مصطفى حمام وأدعوه أن يكون ضيفي بمنزلى بالطائف بضعة أيام ، وأرجو له الاقامة الهانئة السعيدة في بلادى العزيزة المقدسة .

نشرت في جريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) .

كتب جديدة

صدرت في الايام القريبة كتب سعودية جديرة بأن تلقى العناية والاهتمام من القراء والكتاب والنقاد ، وهى تدل على حركة نرجو أن تدوم ، ومن هذه الكتب التى صدرت « أحاديث » للدكتور محمد سعيد العوضى ٠

وهو مجموعة مقالات جيدة ، ولكن في الكتاب مجالا واسعا لمناقشة الكاتب ، وآراء لا نوافقه عليها ، بل تاريخ العلم والفلسفة يرى غير ما رآه ٠

فهو يقول في صفحة ٣٤ : « توما الاكوينى الذى تفخر به أوروبا وتعتبره منقذ المسيحية من ضلالات الفلسفة العربية ما هو الا فيلسوف اسلامى تمكن من التوفيق بين الغزالى وابن رشد الخ » ٠

ويقول في صفحة ٣٧ : « توما الاكوينى الذى تفخر به أوروبا وتعتبره منقذ المسيحية من ضلالات الفلسفة العربية ما هو الا فيلسوف اسلامى » ٠

ويقول في صفحة ٣٩ : « ان القارىء لكتبه ــ أى توما ــ يكاد يصعوبة يذكر أن الكاتب مسيحى لولا بعض الاشارات الى التثليث والتجسد » ٠

وما أدرى كيف يسوغ للدكتور أن يزعم أن توماس هذا ان هو الا فيلسوف اسلامى مع أن توما نفسه يقول عن نفسه : انه مسيحى ، والعالم كله يعرف أنه مسيحى وامام في المسيحية ، واكرمته المسيحية بأن رفعت قدره وذكره وجعلته من قديسيها العظماء ٠

أيجوز أن نسمى هذا الرجل فيلسوفا اسلاميا ؟

لو مشينا على نهج الدكتور لاستطعنا أن نجعل فلاسفة الارض وعباقرته مسلمين أو عربا ٠

فبرنارد شو على هذا مسلم لانه في كتابه « البربرية تبحث عن الله » أيد نظريات الاسلام ونظمه ، وكل المستشرقين ومن ألفوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم عرب أو مسلمون .

و « روجرز باكون » رائد المدرسة التجريبية ، وهو كاهن انجليزى في القرن الثالث عشر الميلادى مسلم أيضا .

والبطريرك جبرائيل الثامن مسلم ، والدليل على اسلامه انه وجه رسالة الى البابا أكليماندوس الثامن عام ١٦٠١ بشأن اتحاد الكنيستين المصرية والكاثوليكية مليئة بالعبارات الاسلامية التى يعتز بها المسلمون ويفخرون .

و « مكين » المؤرخ المسيحى في القرن الثالث عشر يعد مسلما على رأى الدكتور العوضى ، فله رواية مملوءة بالكلمات الدينية الاسلامية ، واستعمل عبارات المسلمين ، بل استعمل في غير موضع « بسم الله الرحمن الرحيم » مما جعل المستشرق فايتيه الذى ترجم رواية « مكين » يصفه بقوله : « من خصائص مكين أنه يتكلم بسذاجة عن كل ما يتناوله في كتابه حتى أن من يطلع على كتابه يعتقد أن « مكين » مسلم » .

ونستطيع أن نقول على منطق الدكتور العوضى : « أن أكبر الملحدين مسلم اذا جردنا كتابه من التحريف وانكار الاله » .

وتوما الاكوينى لم يقف أمام الفلسفة العربية ، بل وقف في وجه الفلسفة الاسلامية لانه وجدها خطرا على المسيحية والمسيحيين ، وكتابه « البرهان الاعلى على الامم » الذى ذكره الدكتور العوضى في صفحة ٣٨ من كتابه يدل على أنه وقف في وجه الفلسفة الاسلامية وفي وجه اليهود ، وتناول براهينهم ضد المسيحية بالنقد والتجريح ، وحاول اقناعهم واقناع القراء بصواب ما يراه وخطأ ما يراه غيره من فلاسفة المسلمين واليهود .

ويقول الدكتور في صفحة ٣٨ من كتابه : « والذى لا شك فيه أن توما الاكوينى كان كغالبية علماء عصره يجيد العربية ولا بد أنه رحل الى اسبانيا لطلب العلم » .

ويقول : « لم يعتمد في كتاباته وآرائه على المصادر الثانوية بل عاد الى الاصول وأطلع عليها في لغتها الاصلية لا الى تراجمها » •

والثابت أن توما لم يكن يعرف العربية ، أما الدليل الذى ساقه الدكتور العوضى فلا يصح أن يكون دليلا ، فعلماء عصره لم يكونوا جميعا يجيدون العربية ، بل كان فيهم من يجيدها •

واذا أخذنا بمنطق الدكتور العوضى فاننا نستطيع أن نجعل كثيرا من الغربيين وغيرهم ممن لا يعرفون كلمة في العربية يجيدونها لأن في كتبهم دراسات عن العرب وعن فلسفة الاسلام •

ونستطيع أن نزعم كالدكتور ونقول : ان ابن رشد كان يجيد اليونانية لأنه عرف ارسطو معرفة من قرأ نصوصه كما كتبها هو نفسه ، مع أن ابن رشد لم يكن يعرف اليونانية ، ومع هذا عرف ارسطو حق المعرفة وعرف الاوربيين به في القرون الوسطى ، ولم تكن آثار ارسطو حينئذ مترجمة الى اللغات الاروبية أو اللاتينية غير كتب المنطق •

فهل نقول : ان ابن رشد يعرف اليونانية •

نريد من الدكتور مصدرا يوثق به يدلنا على أن توماس يعرف العربية أو يجيدها ، أما نحن فننفى معرفة توما للعربية •

والموضوعات التى كتب فيها الدكتور العوضى موضوعات عظيمة ولكنه كان في بعضها عجلا مرتجلا مثل موضوعه « الفلسفة الاسلامية وأثرها في أوروبا » •

وخير ما كتبه : مشاكل الاقليات وطرق علاجها •

والكتاب في عمومه جيد ، ولكنه ليس آية على علم الدكتور ، فما عنده أعظم مما في الكتاب الذى أصدره بعد أن كتبه منجما ثم جمع ما تفرق منه وأصدره للقراء •

وكتاب « أحاديث » لا يدل على ثقافة الدكتور العوضى بقدر ما يدل عليها بحث يقفه لعلاج مشكلة من مشاكل الفلسفة الاسلامية أو غير الاسلامية •

وما دامت « الباكورة » ثمرة ناضجة فان ما بعدها سيكون

أشهى وأطيب .

أما الدكتور العوضى فكما علمت من كتاباته ومن غيرها شاب مثقف تفرغ للعلم ، وعندى أنه يرجح زملاءه الجامعيين في الثقافة والفهم ، فما كتبه ونشره يدل على أنه انسان ذو مواهب وثقافة ، وله ذهن وفكر ، وأكثر ما أقرؤه لغيره كلام أشبه بكلام العامة ، الا بضعة نفر يمتازون كما يمتاز العوضى مثل على فدعق في الاقتصاد والسياسة والادب .

وسيفيد وطننا من العوضى كثيرا ، فهو شاب عميق التدين كما سمعت ، ودراسته للفلسفة زادته ايمانا بعظمة الاسلام ، وتضلعه في العلم جعله متواضعا ، فالغصن المحمل بالزهر دائم النظر الى الارض، والعوضى هذا الغصن المثقل بالزهر والثمر .

وأن وطنه ليسعد به وبأمثاله ؟

* * *

توما الاكويني
لا يعرف العربية
وليس بفيلسوف اسلامى

اطلعت في أحد أعداد جريدة « البلاد » على ما كتبه الدكتور محمد سعيد العوضى في رده على بعض ما أخذته عليه حول آرائه في « توما الاكوينى » وقال في رده : « نحن لم نقل ان توما الاكوينى مسلم أو أنه دافع عن الاسلام ونافح عن عقـائده ولكننا قلنا انه فيلسوف اسلامى ، وشتان بين القولين » وقال : « فتوما الاكوينى ليس مسلما ولم يدافع عن الاسلام كما شاء الاسـتاذ أن يفهم من كلامنا ولكنه أحد تلامذة المفكرين الاسلاميين » .

وأنا لم أزعم أن الدكتور قال ان توماس مسلم أو دافع عن الاسلام ، ولم أفهم من كلامه ما شاء هو نفسه أن ينسبه الى علـى كراهية منى ، ولو فهمت من كلامه ما نسبه الى لكان لى عذر ، لان قوله الذى أبدأ فيه وأعاد غير مرة يحتمل هذا الفهم .

وما أدرى ما الذى نفهمه من قولـه : « ان تومـا ان هو الا فيلسوف اسلامى » اذا لم نفهم أنه مسلم ، ان اللغة العربية أو أى لغة تترجم اليها كلمة الدكتور لا تسمح الا بهذه الدلالة .

اذا وصفنا مسيحيا من أئمة المسيحيين بأنه فيلسوف اسلامى فبماذا نصف الغزالى وابن تيمية ؟

ما دمنا نبحث في الفلسفة الاسلامية فلا بد أن نقول في وصف الفيلسوف المسلم أنه فيلسوف اسلامى ، لان العلم يكره أن يقول : فلسفة مسلمية نسبة الى المسلم ، وان كان في وسعنا أن نقول : فيلسوف مسلم ، ما دام يعتنق الاسـلام .

لدينا فلسفة اسلامية يمثلـها فلاسـفة المسـلمين ، ولدى المسيحيين فلسفة مسيحية يمثلها فلاسفة المسيحية ، أو كما يقول الدكتور ابراهيم بيومى مدكور : « تقابل المدرسة الفلسفية العربية

في الشرق المدرسة اللاتينية في الغرب ، ومن هاتين الفلسفتين مضافا اليهما الدراسات اليهودية يتكون تاريخ البحث النظرى في القرون الوسطى » .

اذاقلنا : ان فلانا فيلسوف اسلامى ، فان من المقطوع به أن يكون (هذا الفلان) أحد فلاسفة المسلمين الذين يتخذون الاسلام دينا ، ولا يمكن أن يكون فيلسوف اسلامى مسيحيا أو يهوديا أو غير معتنق للاسلام .

وقد قيل عن فلاسفة المسلمين أو الفلاسفة الاسلاميين : انهم فلاسفة عرب ، لان فلسفة الاسلام كانت مكتوبة بلغة العرب ، واذا رجع الدكتور الى ما كتبه رينان ودرهايم فانه سيجد انهما يسميان الفلسفة الاسلامية الفلسفة العربية ، وكثير ممن كتبوا من الغربيين عن الفلسفة الاسلامية ـ أو العربية ـ وتاريخها جعلوهما شيئا واحدا أو اسمين على مسمى واحد ، مما يدل على أن سبب التسمية منظور فيه الى الدين الذى يعتنقه هؤلاء المشتغلون بالفلسفة أو الى اللغة التى كتبت بها .

واذا لم يكن مثل هذا التفريق قائما لاختلطت حدود الفلسفات بعضها ببعض ، ولاستغنى عن الاسماء التى تعد العلاقة الفارقة التى تميز كل فلسفة عن أختها .

ولهذا قلت في نقدى لما كتب الدكتور ونشره في كتابه « أحاديث » : « وما أدرى كيف يسوغ للدكتور أن يزعم أن توماس هذا ان هو الا فيلسوف اسلامى مع أن توما نفسه يقول عن نفسه : انه مسيحى ، والعالم كله يعرف أنه مسيحى وامام في المسيحية وأكرمته المسيحية بأن رفعت قدره وذكره وجعلته من قديسيها العظماء » .

وأنا أنفى كل النفى أن توما فيلسوف اسلامى ، وان كان الدكتور كرر قوله غير مرة ، وبناه على الاثبات القاطع الذى تدل عليه « أن » النافية .

ولئن قلت في نقدى : أيجوز أن نسمي هذا الرجل فيلسوفا

اسلاميا ؟ فانني أجدني مضطرا أن أقول في ردى هذا ان توما ليس فيلسوفا اسلاميا ولا يصح ـ مطلقا ـ أن يوصف بهــذا الوصف الذى يختص به المسلم المشتغل بالفلسفة ، لان كلمة « اسلامى » جيء بها للتفريق بين المسيحى والمسلم ، أو بين المســلم وغيره من معتنقى الديانات السماوية أو المذاهب الارضية ٠

ولم يكن الخلاف بينى وبين الدكتور على أن توما الاكوينى مسلم يشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، بل كان قائما حول دعواه أنــه فيلسوف اســلامى ٠

واذا كان وصف انسان بكلمة اســلامى لا يعطى السامع أو القارىء أن الموصوف به ينتسب الى الاســلام فما أحرانا أن نلعب باللغة كما نريد وأن نلغى الادراك والحجى ٠

ويقول الدكتور : « نحن لم نقل أن توما الاكوينى مسلم أو أنه دافع عن الاسلام أو نافح عن عقائده ، ولكننا قلنا انه فيلسوف اسلامى » وهو بهذا الكلام يوهم القارىء أننى قولته اياه ، ومعاذ الله أن اقوله ما لم يقل ، وأنا انفى أننى زعمت ذلك ، ولكنى أسأل: انقول عن انسان انه فيلسوف اسلامى وهو لا يدافع عن الاسلام ولو في بعض ما جاء به ؟ ان توما ـ كما يعترف الدكتور ـ لا يدافع عن الاسلام ولا ينافح عن عقائده فكيف نصفه بأنه فيلسوف اسلامى ؟

ان الدكتور يسعفنا بالجواب فيقول في رده علينا : « تومــا الاكوينى قد دافع عن العقائد المسيحية ضد الاســلام والعقــائد الاخرى ، وقد برع في الدفاع عنها حتى كرمته الكنيسة » ٠

ويقول : « ظهر توما الاكوينى على حقيقته ناقلا لآراء أبى حامد الغزالى في التصوف والاعتقــادات وفلســفة ابن رشد في التوفيق بـين الحــكمة والشريعة » ٠

ويقول : « هو في تعصبه لبراهينه المستقاة من مفكرى المسلمين لم يتردد في ان ينتقد فلسفة سانت أوغسطين الذى يعتبر أول واضع لاسس الفلسفة المسيحية لا لشىء الا لانه يخالف الآراء التى اعتنقها توما الاكوينى والتى استقاها من مجارى الفكر الاسلامى » ٠

هذه هي القواعد التى أقام عليها جوابه على سؤالنا ، ولو أمعن فيها الدكتور نظره الثاقب لوجد الرد البليغ على زعمه أن توما دافع عن المسيحية ضد الاسلام ، وأن الكنيسة كرمته ، والدكتور يعلم أن الكنيسة في العصور الوسطى كانت شديدة التعصب ، وما كانت لتكرم أحد أبنائها اذا كان فيلسوفا اسلاميا ، وما أدرى كيف يصفه الدكتور بهذا الوصف وهو يعترف بأن توما كـــان ضد الاسلام ؟ أيصح أن يكون خصم الاسلام فيلسوفا اســـلاميا ؟ أمـا أنا فأنكر ذلـــك كــل الانكار •

وما أظن أحدا وصف تومـــا بأنــه فيلســـوف اســـلامى غير الدكتور العوضى •

ولعل الدكتور يعلم ان اشـــتغال تومـــا بكتب الغزالى لم يكن سببه « اسلامية » الغزالى ، بل هناك أسباب كثيرة منها : صبوة توما الى الفلسفة الاسلامية رغبة في العلم والتزود مـن المعرفة حتى يتعلم من أصحابها استعمال الاسلحة في حرب الاسلام ، ومنها اتفاق الغزالى مع القديس أوغسطين اتفاقا يكاد يكون عجيبا •

وأنا أعتقد أن الدكتور العوضى لا يجهل أن توما كان تلميذا للقديس أوغسطين ، ولما رأى أن الغزالى يتفق مع استاذه في كثــير من الآراء تضيفه ، ولولا ذلك لما اشتغل بكتب الغزالى •

بل كان الاتفاق تاما الا في العقيدة ، فأوغسطين كان شاكا ثم انتهى الى اليقين وكذلك الغزالى ، وكان أوغسطين في آخر حيـــاته متصوفا مثل الغزالى المحسوب في طليعـــة المتصوفين من المسلمين ، وكان أوغسطين انتهى من دراسة المنطق والفلسفة الى الزهد حيث وجد فيه السعادة ، وهذا هو نفسه ما حدث للغزالى •

بل ذهب بعض العلماء الى أبعد من هذا ــ وهم على حق ــ ان الاتفاق بين الفيلسوفين كان عجيبا في الشخصية وأسلوب الدراسة وطريقة الحياة واختيار العلوم ، بل كانـــا متشـــابهين في أسلوب التأليف والفكرة حتى أن طريقتهـما واحـــدة في تدوين آرائهما ، والموضوعات التى عالجها كل منهما كانت واحدة •

فكتاب « العقائد » لاوغسطين هو نفســه كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالى مع فارق غير كبير ٠

وان من المدهش حقاأن يكشف المستشرق فريك ذلك الاتفاق بحيث أثبت ان التشابه جد عظيم بين الاثنين في كتابيهما هذين ، الموضوعات في المنقذ هى نفسها في العقائد ، والبراهـين التى أقامها كل منهما واحدة ، وطريقة العرض عند أوغسطين هى نفســها عند الغزالى ، وكذلك القول في الترتيـب وتسلســل الافكار والفصول ، ومزاج الرجلين واحد ، بل أن العبارات واحدة في كثير من المواضع والموضوعات ، مما دعا بعضــهم الى أن يزعمـوا أن الغزالى وقـف عــلى مــا كتبه أوغسطين ٠

هما متفقـان الا في الـدين والزمن ، فأوغســطين مسيحى ، والغزالى مسلم ، وبين الاول والثانى حوالى سبعمائة سنة ٠

ومن الثابت ان توما كان تلميذا لاوغسطين ، واطلع على كــل ما أنتجه ، ثم اطلع على كتب الغزالى وأثره في غــيره ، لان توما رأى الفيلسوف العربى على غرار الفيلسوف المســيحى فأفـاد منـه ، ولم يقف تأثر توما على الغزالى وحده بل تجاوزه الى ارسطو وابن سينا٠

ويذكر الدكتور اسم أوغسطين هكذا : « سانت أوغسطين » والذى أعرفه هو « أوريليو أوغسطين » ٠

وما زلت في عجب من أمر الدكتور الذى يصر على أن توماس فيلســوف اســلامى ٠

واذا كان الرجل الذى يهجم على الاسلام هجوما عنيفا ويركبه بالسخرية والازدراء فيلسوفا اسلاميا فان من العدل والحق والواجب أن نصف الكتاب والفلاسفة الذين هم على وفاق مع الاسلام ، والذين هم يبجلونه ويرفعون من قدره مثل من ذكرناهم في نقدنا السابق ، اســلاميين خــيرا من تومــا ٠

والنقطة الثانية التى وقف عندها الدكتور هى دعواه أن توما يجيد العربية وأبدأ القول فيها وأعاد وساق ما حسبه أدلـة تؤيده فيما ادعاه ، ونحن نرد اليه تلك الادلة لاننــا نكره أشد الكره أن يسوقها الدكتـور العوضى مســاق المكابرة وهو من نعرف خلقـا واضطلاعــا بأمانة العـلم ٠

وأدلته هى : أن توما صديق ريموند لول ، وهذا يجيد العربية وأن توما فهم فلسفة الغزالى وابن رشد ، وانه عاش في عصر سيادة العربية ، وأن فهم توما للغزالى وابن رشد مبنى على اطلاعه على المصادر الاصيلة ، وأن المصادر التاريخية لم تنف معرفته للعربية .

هذه أدلته وأضاف اليها دليلا آخر يتصل بى وهو : انني لم أسق دليلا على جهل توما بالعربية ، وتناسى الاستاذ الفاضل أنني سقت بعض الادلة ومنها :

١ - ان علماء عصر توما وزملاءه ما كانوا جميعا يجيدون العربية ، وكان فيهم من يعرفها .

٢ - ان في استطاعتنا - على طريقة الدكتور - أن نجعل كل الغربيين وغيرهم ممن لا يعرفون العربية يجيدونها لان في كتبهم دراسات عن العرب وعن الاسلام وفلاسفة المسلمين .

٣ - ان ابن رشد ما كان يجيد اليونانية مع أنه عرف أرسطو وترجم بعض كتبه وآرائه وفلسفته اليونانية .

٤ - ان مصدرا من المصادر لم يذكر معرفة توما للعربية .

هذه الادلة سقتها في نقدى ، ولكن الدكتور تجاهلها وزعم أنني لم أقدم دليلا ، ولعلها أقوى من أدلته التى سردها في كتابه ثم أعاد ذكرها في رده وزاد دليلا واحدا ألا وهو أن المصادر لم تنف معرفة توما للعربية .

وهذه مغالطة ما كنا نحب من الدكتور أن يتخذها مطيته ، لانه يعرف أن المصادر لا تنفى شيئا لم يدع أحد وجوده ، لم يدع أحد أن توما يعرف العربية حتى ينبرى المؤرخون لتحقيق ذلك ، أما وأنه لم يعرفها فقد سكتت المصادر .

والدكتور يذكر أن ريموند لول كان يجيد العربية فلماذا لم تذكر المصادر ذلك عن توما مع أنه أشهر من لول وأعظم ، وان التاريخ ذكر عن كثير لم يبلغوا درجة توما اجادتهم للعربية ، ولو أن توما كان يجيدها أو يعرفها حقا لما أغفلت المصادر التى لم تغفل ذكر كل من كان يجيدها من الاوروبيين البارزين ، فاذا أغفل التاريخ

ذكر توما بين المجيدين فان ذلك يثبت جهله بالعربية ٠

وذكرت الروايات أن توما كان يعتمد في معرفته الفلسفة العربية وكتب المسلمين على الترجمات اللاتينية ، ولولا بعدى عن خزانة كتبى لاشرت للدكتور الى المصادر التى تثبت جهله بالعربية ، كما أننى لم أجد في الطائف مكتبة عامة أو خاصة تعيننى بالمراجع ، ولكنى أذكر أن الدكتور توفيق الطويل أشار في بعض كتبه الى عدم معرفة توما للعربية ، لانه يذكر أنه اطلع على كتب الغزالى وابن رشد وابن سينا عن طريق الترجمات ٠

ولعل الدكتور العوضى واجد ما يثبت قولنا اذا رجع الى معجم لاروس ، والى كتاب « تراث الاسلام » والى Z.D.M.G. في Theodor Noldek, Hittl P' 432 عدد ٤٨ سنة ١٨٩٤ م ص ٤٥ وما بعدها ٠

ولعل تشسترتون الانجليزى أشار الى عدم معرفة توما للعربية في كتابه الذى ألفه بالانجليزية عن توما ، وتشسترتون من مواليد ١٨٧٤ م وتوفي منذ عشر سنين ، ولولا بعد العهد لاكدت له ما جاء بهذا الكتاب ٠

ومالى أذهب بعيدا وهذا الاب فردينان توتل يذكر في صراحة : « ان توما اطلع على آراء ابن سينا والغزالى وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية » وكلمة الاب فردينال تثبت بما لا يدع للشك أى مجال أن توما ما كان يعرف العربية والا ما احتاج في الاطلاع على آراء هؤلاء الفلاسفة العرب أو المسلمين الى الترجمات اللاتينية ٠

وما أدرى ما الذى يدفعنى الى محاولة ازالة ما علق بذهن الدكتور العوضى من وهم حيال توما الذى يبالغ الدكتور في اضافة مفاجر وهمية اليه فيزعم انه يجيد العربية وهو لا يعرفها ٠

واذا كان الدكتور العوضى ـ بعد هذا ـ مصرا على ما ادعى فما نملك ما نرده به الى الحق ٠

وأظن أن الدكتور العوضي في حاجة الى مصادر جديدة حتى يطفىء ظمأه اللاهب الى المعرفة ، ويحملني على هذا قوله : « ... اشارة الى احدى عقائد المسيحية وهذا كتابه « البرهان الاعلى في الدين » وليس « البرهان الاعلى على الامم » كما ذكر الاستاذ خطأ » .

والذى قلته هو : ان توما وقف في وجه الفلسفة الاسلامية لانه وجدها خطرا على المسيحية والمسيحيين ، وكتابه « البرهان الاعلى على الامم » الذى ذكره الدكتور العوضي في صفحة ٣٨ من كتابه يدل على أنه وقف في وجه الفلسفة الاسلامية وفي وجه اليهود ، فقد رد على فلاسفة المسلمين واليهود وتناول براهينهم ضد المسيحية بالنقد والتجريح ، وحاول اقناعهم واقناع القراء بصواب ما يراه وخطأ ما يراه غيره من فلاسفة المسلمين واليهود » .

وأعيذ الدكتور العوضي من التسرع والقاء القول على عواهنه وتخطئة الصواب بالغالط الشنيع فأنا عندما ذكرت كتاب « البرهان الاعلى على الامم » ذكرت فكرته ، ولكن الدكتور زعم أنني أخطأت عندما أشرت اليه وصوب الخطأ بأن زعم أن الصحيح هو كتاب « البرهان الاعلى في الدين » وأظن أن الدكتور لم يطلع على هذين الكتابين أو هو بعيد العهد بهما والا ما خطأ الصواب الذى ظنه غالطا .

انني لم أرد كتاب « البرهان الاعلى في الدين » وهذا هو الاسم الذى اختاره الدكتور لكتاب توما الذى ترجمه كثير من المتمكنين في العربية ب « الخلاصة اللاهوتية » ولكني أردت كتاب « البرهان الاعلى على الامم » وهو غير الكتاب الاول اسما وموضوعا ، ويسميه بعض من كتبوا عن توما أو ترجموا بعض مؤلفاته الخلاصة ضد الامم » .

وذكرى لفكرة الكتاب يقطع بأنني لم أرد الكتاب الذى أراده الدكتور ، لان كتاب « الخلاصة اللاهوتية » أو « البرهان الاعلى في الدين » كما سماه الدكتور لم يكن هو المقصود ، لان البحث لم يستدعه ، بل استدعى كتاب « الخلاصة ضد الامم » أو « البرهان الاعلى على الامم » كما سماه الدكتور ، لانني كنت بصدد ذكر وقوف

توما في وجه الفلسفة الاسلامية وفي وجه اليهودية ، وفي دفـاعه عن المعتقد المسيحى ضد الآراء التى شاعت في أوروبا الغربيـة بعد ترجمتها الى اللاتينية من شارحى أرسطو العرب لا سيما ابن سينا وابن رشـد ٠

أما الخلاصة اللاهوتية (البرهان الاعلى في الدين) فمبحثه خـاص بالتفـكير المسـيحى ، ويحتـوى أهم المسـائل اللاهوتيه والفلسـفية والاخلاقيـة ، وهو من أمهات الكتب للتعليم الكاثوليكى كمـا يقـول توتـل ٠

وما كنت بصدد هذا الكتاب لاننى لم أكن بحاجة اليه بل الى غيره وهو الكتاب الآخر الذى خصصته بالذكر ، ومع هذا يخطئنى الدكتور مع أنه هو الخاطىء في هذه المسألة ٠

ويذكر الدكتور أنه لا يدرى ان كانت هناك ترجمات عربية لكتب توما لارجع اليها أنا والقراء لنصدر حكمنا ان كنا نستطيع تمييز كتابات توما عن كتابات الغزالى في بعض الموضوعات ٠

والدكتور قال ذلك لاننى لا أعرف الانجليزية ولا غيرها مـن اللغات الاوروبية الحية ، وهو على حق ، ولكنه لم يكن مصيبا عندما عطف القراء على لان فيهم من يعرف الانجليزية وغيرها ، ومع هـذا أقول له : ان كتاب « البرهان الاعلى في الدين » و « البرهان الاعلى على الامم » ترجما الى اللغة العربية ، الاول تحت عنوان « الخـلاصة اللاهوتية » وترجمه المطران بولس عواد المتوفي سنة ١٩٠٨ م والثانى باسم « الردود عـلى الخوارج » ترجمة المطران نعمة الله أبو كرم المتـوفي سـنة ١٩٣١ م ٠

ولعل فيما ذكرت مقنعا لمن ألقى السمع وهو شهيد ؟

نشرت في جريدة « البلاد » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩) ٠

هذا الرغيف

لعل الخبز الطعام الوحيد الذى تشترك فيه الامم جميعا ، وهو وحده بين الاطعمة الطعام الذى لا تخلو منه مائدة ، واذا كانت معرفة الانسان النار واستعماله اياها نقلاه من الهمجية الى الاخذ بأعظم سبب من أسباب الحضارة فان الخبز الخطوة الثانية اليها ، ولعله كان ثمرة تفكير لا وليد مصادفة كاكتشاف النار .

بل الخبز آية على انتقال الانسان من الهمجية الى الحضارة حقا ، فهو لا يأتى الا عن ادراك ومعرفة .

كان الخبز أول وسيلة لرد عادية الجوع عن الانسان عندما يمنعه البرد عن السعى الى الرزق .

لم يكن الانسان القديم يعرف الادخار ، بل كان يأكل ما وجد الجوع والطعام ، فاذا جاء الشتاء التمس رزقه فاذا هو يقل ، والبحث عنه يضنى ، فلما عرف الخبز ادخره ووجد ما يتكىء عليه عند اشتداد الازمة والكرب ، وأقصد بادخار الخبز ادخار الحنطة أو الدقيق .

ولا شك أن اهتداء الانسان الى الخبز تم بعد أن خطا في الحضارة وبناء المجتمع البدائى خطوات بعيدة ، لان الخبز لم يصل اليه الانسان اعتباطا ومصادفة بل انتهى اليه بعد جهد عقلى وزمن ، فهو اهتدى الى الحبوب واتخذها طعاما ، ثم اهتدى الى سحقه وعجنه وتجفيفه بالشمس ثم بالنار .

وكل هذا لا يتم بيسر وسهولة ، بل لعله تم في مراحل أكثر طولا وتعقيدا من قنبلة الذرة والهيدروجين ومن الصاروخ ومراكب الفضاء ، وهو لا يقل عبقرية عن اختراع هذه الاشياء اذا قيس عقل أولئك البدائيين على هؤلاء العلماء العباقرة .

وتطور الخبز مع تطور الانسان حتى انتهى الى ما انتهى اليه

في عصور الحضارة والمدنية والعلوم والآداب والفنون ٠

وكان الخبز من صناعة النساء كما ذكر هوميروس ، بـل ما يزال حتى الآن من صنـاعتهن في القرى التى تفتـقر الى المخـابز ، وأدركنا عهداقريبا كان فيه أكثر بيوت مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ تعمل الخبز ، ولم يكن في مكة كلها الا أفران صغيرة ٠

واقدم خبز اكتشفه أبناء هذا العصر كان من العصر الحجرى ، فقد اكتشف المنقبون في بعض جهات بحيرات سويسرا « خبزا » من العصر الحجرى ، وهو من القمح المكسور وغيره ٠

ووجد في قبور الفراعنة خبز من دقيق الذرة مصنوع ارغفة مستديرة محدبة ، ويظهر أن المصريين في ذلـــك العهـد لم يعرفوا الفرن ، فكانوا يخبزونه على حجارة محدبـــة يلقونها في النار حتى تحمى ، ولكن المصريين واليهود والكلدانيين عرفوا « المخابز » العامة ، وبرع المصريون في صناعة الخبز كما أشار هيرودتس ٠

وفي سفر ارمياء (٣٧ ـ ٣١) ما يفهم منه وجود مخابز عامة اذ جاء فيه « فأمر الملك « حدقيا » أن يضعوا أرمياء في دار السجن وان يعطى كل يوم رغيف خبز من سوق الخبازين » ٠

وكان المصريون يعجنــون بالارجـل ، وعلمت أن هــذه العادة المصرية وفدت الى مكة فكان بعض الخبازين يعجنون بالارجل ٠

ولما عرف الناس المخابز العامة كانوا يلقون العنت من غش الخبازين وما يزالون يلقونه ، فسنت الحكومات قوانين شديدة ، بل كان « الاعدام » في بعض البلدان جزاء الخباز الذى يغش أو الـذى يتلاعب بالاسعار فيغلو في الثمن ٠

ففى تركيا في القرن الثامن عشر كانت حكومتها تشنق الخباز الذى يثبت عليه أنـــه يغـلى الاســـعار ٠

أما في مصر فكانوا يأتون بالخبـــاز الغشـــاش ويسـمرون أذنيه في بـــاب دكـــانه ٠

وعندنا يجازى « الفران » بمصادرة خبزه المغشوش ومعاقبته بالغرامة اليسيرة أو الاغلاق الى أجل يسير محدود ٠ وهو عقـــاب

يسـير غـير رادع .

وفي بلد يعادي العرب ويعادونه سمعت في اذاعته قضية خباز وجد ببعض أرغفة من مخبزه قطع زجاج ، ولشد ماأعجبني أن المحكمة المستعجلة حكمت عليه بالسجن شهورا وبالاغلاق مدة طويلة .

وأفضل أنواعه صحيا الخبز الاسمر ، أما الابيض الذى يصنع من دقيق « الفينو » المعروف لدينا فهو أقل نفعا من الاسمر صحيا .

هذا الرغيف الذى يقوم عليه كيان البشرية هو سبب مشاكل الفرد والجماعة والمجتمع والعالم أجمع ، وبسببه يعتبر « الضمير » سلعة من السلع ، ومع أن المسيح عليه الصلاة والسلام قال : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » فان الناس يسرفون في سبيل الحصول عليه مهما كلفهم الامر .

وأبشع ما في ذلك التنكر للدين وخنق الضمير وقذف المبادىء والمثل والقيم بعيدا من أجل هذا الرغيف الذى استعبد الاحرار .

وفي الحديث الشريف : « الولد مجبنة مبخلة مجهلة » وهو حق ، وما كان الولد كذلك لولا هذا الرغيف الذى يحمل على الذل والنفاق والرياء حتى يستبدل الانسان الجبن بالشجاعة ويؤثر الجهل على العلم والبخل على الكرم من أجل لقمة العيش .

بل استطاع هذا الرغيف أن يتحكم في الانسان شر التحكيم ويزوى دينه وضميره ويخنق المثل والمبادىء ، فتجد من يمد يده الى حرام ناسيا أن هناك بعثا ونشورا وحسابا ، فاذا تخطاه عقاب الانسان فلن يخطئه عقاب الله ، وهو ـ بعد ـ لا يبالى ربه وما أعد من ثواب وعقاب فيمعن في جمع الحرام ويسرف فيه اسرافا .

وفي الفتوحات المكية :

اذا عاينت ذا سير حثيث
فذاك السير في طلب الرغيف
له صلوا وصاموا واستباحوا
دم الكفار والبر العفيف
له تسعى الطيور مع المواشي
له يسعى القوى مع الضعيف

وقال الامام الشافعي : لا تستشيروا أحدا لا يكون في بيته

دقيق ، فان عقله زائل .

وقال معاصر (ولعله العقاد) :

والحيـــاة التى انطـــويت عليهـــا
تنطـــوى بانطـــواء نصف رغيـــف

ولابن هانىء الاندلسى :

ولـــذا صـــار كـــل ليـــث هزبـــر
قـــانعـــا مـــن زمانـــه بالرغيـــف

وقال مالك بن أنس : والله ما اقتتلوا الا على الثريد الاعفر .

وقال ابراهيم بن سيابة : اذا كانت في جيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة فان المصيبة عندك أكبر منها عند القوم ، وبيتك أولى بالمأتم من بيتهم .

وقال أبو الدرداء الكلوذانى : الدنيا تدور على ثلاث مدورات : الدنيا ، والدرهم ، والرغيف ، ولو قال : عـلى مدورتـين : الدرهم والرغيـف لكان أخصر .

ليت شعرى أهكذا أصبح الرغيف فتنة الناس ، لا يتورعون في سبيل الحصول عليه أن يعصوا الله ويخـالفوا أمره ويرتكبوا شر الموبقـــات .

اذا كان الامام الحسن البصرى ، رضى الله عنه ــ وعصره خير من عصرنا ــ يتمنى أن لو وجد رغيفا حلالا لجففه واتخذ منه ذرورا فما نقول نحن المساكين ؟!

ان فتنتنا بالمـال صرفتنا عن الله فأحببنا الحرام حبا جمـــا وأكلناه أكلا لما ، ونعوذ بالله من فتنة المحيا والممات .

(اعتمدنا في كتابة هذا المقال على بعض الكتب والصحف ، وبخاصة مجلة الهلال في عدد صدر منذ ثلاثين سنة ، ونشرت في جريدة « الندوة » بمكة سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م) .

العقاد الضائع

لست أدرى أين قرأت مقالا لحلمى ســـلام منذ اسابيع نقلته احدى صحفنا ، ذكر فيه أن الادباء الكبار في كل بلد ينعمون أعظم مما ينعم الاثرياء الكبار ، فمنهم من يملك « يختا » فخما ، ومنهم من يملك قصرا في « الريفييرا » الا أدباء العرب ، وذكر أن العقاد كاتب العربية الاكبر الذى تجاوز السبعين من عمره يسكن في « شـــقة » متواضعة ، وما يزال حتى اليوم يعيش من كد قلمه .

وشكرا لحلمى سلام ، وعفـاء على القراء العرب الذين يعدون بالمئـات أو ببضعة آلاف ، ولا يستطيعون أن يعملوا شـيئا لاديب فيلسوف عالم كالعقاد .

ان « سومرست موم » الاديب الانجليزى استطاع من دخـل كتبه ان يصبح صاحب ملايين ، وينعم في آخر حياته ، أما دخل كتب العقاد فلم يمكنه الا من عيش الكفاف ، لان العرب لا يقرأون ، واذا قرأوا فعددهم في كل بقاع الدنيا لا يتجاوز بضعة آلاف .

ولو كان قراء العربية واحدا من كل مئة لكان عندنا ٦٠٠ر٠٠٠ قارىء اذا كان تعداد العرب ستين مليونا ، واذا كانوا واحدا من كل ألف لكانوا ستين ألفا .

ومع هذا نزعم لانفسنا في وقتنا الحاضر مفاخر !

ان كل نهضة وليدة القراءة لان القراءة آيـة صحو الملـكات ويقظة القرائح والفهوم ، والامة الاكثر قراءة من غـيرها هى الامـة الاكثر تقدما في جميع الميادين .

منذ أيام قامت مصر باحصاء دقيق للقراء ، فظهر أن بها منهم واحدا في المئة ، وهؤلاء الذين يجتمعون من هـذا الواحد يفترقون فخمسة وثلاثون منهم يقرأون مجلة « سمير » للاطفال ، وقراء الادب الرفيع والعلوم لا يبلغون واحدا في كل عشرة آلاف كما أظن .

فكيف نريد للعقاد أن يحيا بعد السبعين كما يحيا زملاؤه في أوروبا وامريكا وروسيا ؟ لو كان هناك لكان له شأن أى شأن ؟

ان العقاد من القلائل في العالم ، فهو موسوعة ضخمة ، وقابلت أكابر من مختلفى الاجناس لم أر منهم من يدانى العقاد ثقافة واطلاعا، والمختصون بجانبه طـلاب ٠

وان من العار ـ كل العار ـ أن يعمـل العقاد ليل نهار وهو فوق السـبعين ببضع سنين من أجـل لقمة العيش التى يلاحقها ويجرى اليها جرى الشريف ٠

لقد اتيحت للعقاد فرص نادرة ترفع عليها فلم ينتهزها ، ولو انتهزها لكان اليوم من أصحاب الملايين ، ولكن العقاد الذى قال منذ ثـلاثين سـنة : اننى مسـتعد في سـبيل الحـق أن أدوس أكبر رأس في البلـد !!٠

ودفع ضريبة هذه الـكلمة تسعة شـهور قضاها في السجن ليخرج منه رافع الرأس شامخ البنيان لا يدين لغير الله بفضل ٠

وأنا من أعرف الناس في الدنيا بالعقاد وعظمته واباثه وترفعه ونزاهته ، وما مثله بين كل حملة الاقلام العرب في هذا العصر ٠

وعندما كتبت مقدمة كتاب « الشيوعية والانسانية » للعقـاد (الذى طبع في مصر وصدر سـنة ١٩٥٦ م) قلت ما أنقله بنصه :

« ان قلم العقاد حر نبيل ، لم يخط حرفـا طمعا في مال ، ولم يتوار خشية من طغيان ، ويدل على نزاهته « المثالية » أنه ما يزال أفقر كاتب كبير في العالم كله برغم « الفرص » التى مرت به ، وكان في بعض الاحزاب القديمة من المجلين ، وكان في وسعه ان يكون له في البنوك رصيد ضخم يتكىء عليه عند الحاجة ، ويستعـين به في تقليل كده الذى لا تطيقه عصبة أولوا قوة ، وأن تكون لـه معـارج يظهر عليهـا ، وضيـاع عامرة يفىء اليها في أخريات عمره ، ولكنه ـ مع بروزه ولمعان اسمه وقدرته القادرة على الكسب وارباء الدخل ـ لم يستغل قلمه ولم يدعه مستغلا من أحدا ٠ وكل رصيد العقاد هو ستر الله ، وأكرم به من رصيد لا يفنى عندما تفنى أرصدة الاموال

والاعمال والاعمـار » .

فالعقاد فقير لانه نبيـل كـل النبـل ، ولان قراء العربيـة لا يتجاوزون بضعة آلاف ، ولو أراد أن يكون من أصحـاب الملايين لكان سهلا كل السهولة ، فقد طلب اليـه الوفد أن يصدر جريدة « المصرى » قبل أن يعطى امتيازها محمود أبو الفتح فاعتذر ، وقيل له : بوسعه أن يفيد من الورق فاعتذر .

وللعقاد دخل كبير من قلمه يبلغ ٣٠٠ أو ٤٠٠ جنيه كل شهر ولكنه لا يكفيه ، فهو ينفق عـلى نفسـه في بيته حوالى ٢٠٠ جنيه ، وينفق على خمس أسر ، ويبر أصدقاءه وطلبته ومن يعرفونه .

حدثنى محمد عبـد الرحمن الذى كـان مديرا لدار مجـلة « الرسالة » : ان « الرسالة » عطلت ، والزيات باع المطبعة ، وأصبح محمد عبد الرحمن بلا عمل ، فسأل عنه العقاد واستزاره في منزله ، وأعطاه « ظرفا » مختوما ، فلما خرج الى الشارع وجد به خمسـة وعشرين جنيـها .

وعرضت على العقاد أن أقاسمه مالى في مصر ، وكانت لى بهـا « مطبعة » كبيرة وبعض مال فاعتذر ، وحاولت فأصر على الاعتذار .

وآخر مرة قابلته فيها منذ ثلاث سنوات ، وكان العقاد قد بلغ من الكبر عتيا ، والقلم يهتز في يده كل الاهتزاز ، فاضطر أن يملى ، ولا يملك العقاد رصيدا في بنك ، وكل ما يملكه « مكتبة » أنفق فيها عمره ، ولكن لن تبلغ ألف جنيه في سوق البيع .

واول مرة عرفت فيها العقاد معرفة شخصية كان سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٦ م) زرته في منزله وكان قد انشق عن الوفد وخرج عـلى النحاس باشا ، ورأيت لديه بغرفة الجلوس « بساطا » وامتدت به صداقتى الخالصة ، وبقى البساط من سـنة ١٩٣٦م حتى سـنة ١٩٥٧ م وحال لونها فاهديته بساطا أخضر جميلا ، واحتلت عليه في قبولها ، وقلت له : انه من مـكة المكرمة ـ حرسها الله ـ وقبـل الهدية ، وزرته بعد أيام فقال العقاد : لقد « صرفت » بساطك بأثنين وهاهوذا أحدهما في غرفة الجلوس ، والآخر بغرفة النوم .

ويقضى العقاد أيامه هذه وهو يجاهد من أجـــل قوته وقوت الاسر التى يتولى الانفاق عليها ، ويعلم الله أننى ادعو له من صميم قلبى بطول العمر حتى يحقق أمنية لى هى أمنية كـل مسلم مخلص مثقف ، وهذه الامنية تاليف تفسير للقرآن الكريم •

حدثت العقاد عن التفسير ووافق ان يقوم به ، والرجل يحبنى ويعجب بى كثيرا ، ولا يساومنى ، ويقبل منى القليل ، ووافق عـلى أن يفرغ سنتين أو سنة ليقوم بتفسير القرآن واتفقت معه عـلى أن ادفع له خمسة آلاف جنيه مكافأة رمزية على هذا العمل الاســـلامى الأجـــــل •

ولكن انى لى خمسة آلاف جنيه ؟! وعرضت منزلى الذى اسكنه للبيع فاقضى ديونى ، وما يبقى بعد ذلك اقتطـــع منه خمسة آلاف جنيه أدفعها مكافأة احتسابا لوجه الله • ولكن لم أجد راغبا فيه •

وكل خشيتى أن يموت العقاد ـ لا قـدر الله ـ فيموت ذلك التفسير الذى اعتقد انه سيكون خير تفسير يرضى المسلمين وغـــير المسلمـــين لانه تفســـير يعتمـد عـــلى المنطق والتجربه العلميـة والحق والواقـــع •

وما ادرى الى من أتجه ؟!

أعاد الاسلام غريبا ؟ لا ، ما يزال الاسلام بخير ! فمن يتقدم من الاغنياء في بلادنا ؟ •

نشرت هذا المقال في جريدة « عكاظ » بعددها الصادر في ٢٣ـ١١ـ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) كما نشرت في جريدة « المدينة المنورة » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) مقالا عن تفسير القرآن الكريم يقوم به العقاد ، ولكن وقع مـــا خشيت ، فقد مات العقاد ولم استطع ان احمـله عـــلى تاليف التفسير لاننى لم استطع ان احقق امنيتى في جمع المبلغ الذى قررت تقديمه له حتى يتفرغ لتاليف التفسير ، رحمه الله رحمة واسعة •

مؤلفات العقاد

الاذاعات والصحف التى كتبت عن الاستاذ العقاد بعد وفاته اختلفت في عدد مؤلفاته ، فمنها ما قال : انها بلغت السبعين ، ومنها : انها وصلت الى الرابعة والسبعين ، وأوصلها بعض الصحف الى أكثر من ذلك ومنها جريدة « المدينة » في عددها الصادر في ٧ـ١١ـ٨٣ الى ٧٩ وقـالت :

« بلغت مؤلفاته ٧٩ كتابا .. كان أولها « خلاصة اليومية » الذى أصدره في عام ١٩١٢ » .

وفي خزانة كتبى ثمانون كتابا من مؤلفاته ، وأذكر أكثر من الثمانين مما مر بى اسمه ، وبعضها طبع أكثر من عشر مرات مثل « عبقرية محمد » صلى الله عليه وسلم .

وكان من حظى أن سميت أنا نفسي بعضـــها أو أنا دافعه الى تأليفه ، مثل كتاب « الشيوعية والانسانية » و « اللغة الشاعرة » .

فالاول كتبت مقدمته برغبة الاستاذ الكبير رحمه الله ، والآخر كنت في رمضان سنة ١٣٧٩ بالقاهرة أستعد لاصدار « عكاظ » ، فطلبت الى الاستاذ أن يكتب فيها ، فطـــلب أن أقترح الموضوع ، فقلت له : اللغة الشاعرة ، فأعجب الاستاذ العقاد بالعنوان وقال : هذا ـ والله ـ عنوان كتـــاب .

وخلال أيام بعث الى مع الاستاذ عامر أحمد العقاد ابن شقيقه ـ وأنا بمصر ـ أربع مقالات من « اللغة الشاعرة » نشرت في «عكاظ» في سنتها الاولى ، وما تزال أصولها بخط العقاد عندى .

واقترحت عليه أن يكتب للقرآن تفسيرا ، فسر وابتهج وكتبت في جريدة « المدينة المنورة » منـــذ ســـبع ســـنوات مقالا بعنوان : « تفسير القرآن الكريم للاستاذ عباس محمود العقاد » وطلبت الى القراء في هذه البلاد أن يكون لهم شرف كتابة العقاد هذا التفسير ، وان يتبرع كل قارىء بما يستطيع حتى نجمع خمسة آلاف جنيه مصرى ندفعها كمكافأة له حتى يتفرغ للكتابة .

ثم نشرت في « عكاظ » أستحث القراء وذكرت أنني عرضت منزلي للبيع ، ونشرت عن ذلك اعلانا في جريدة « الندوة » لادفع أنا خمسة الآلاف ، ولكنني لم أجد راغبا فيه ، فلم يتحقق أملي .

ومنذ شهور دعيت الى منزل الاستاذ باشميل ولقيت فيه كراما منهم الشيخ سالم بالاعمش مدير مكتب باخشب باشا والاستاذ عبد الرحمن القصاب ، وتحدثت عن هذا التفسير ، وبلغت بنا الحماسة كل مبلغ واستعد الشيخ سالم بالاعمش أن يدفع هو جزءا كبيرا من نفقات هذا التفسير ، وتعهد بأن يدفع الشيخ محمد أبو بكر باخشب جانبا عظيما من النفقات .

ولكن رحمة الله على العقاد ، وأسفي على هذا التفسير غير محدود .

وأعود الى مؤلفاته وأقول : انها تجاوزت المئة ، ومنها :

١ ـ يقظة الصباح .

٢ ـ وهج الظهيرة .

٣ ـ أشباح الاصيل .

٤ ـ أشجان الليل .

٥ ـ وحي الاربعين .

٦ ـ هدية الكروان .

٧ ـ عابر سبيل .

٨ ـ أعاصير مغرب .

٩ ـ بعد الاعاصير .

١٠ ـ ما بعد البعد (ديوان من دواوين) .

وكل هذه دواوين شعر .

١١ ـ خلاصة اليومية ، وهو أول كتاب طبع للعقاد وذلك سنة ١٩١٢ ويسميه العقاد « شهادة ميلاد » لانه يعتبر هذا الكتاب شهادة ميلاده الادبي .

١٢ ـ الانسان الثاني ، وطبعه سنة ١٩١٢ م .

١٣ ـ الشذور .

١٤ ـ مجمع الاحياء ٠
١٥ ـ الفصـــول ٠
١٦ ـ مطالعات في الكتب والحياة ٠
١٧ ـ مراجعات في الآداب والفنون ٠
١٨ ـ ساعات بين الكتب ٠
١٩ ـ مطالعات ٠ وهذا غير « مطالعات في الكتب والحياة » الذى طبع سنة ١٩٢٤ أما « مطالعات » فقد طبعته الاذاعة المصرية سنة ١٩٥٦ وهو مجموعة بعض أحاديثه الادبية في الاذاعة ٠
٢٠ ـ هتـــلر في الميزان ٠
٢١ ـ عـــلى الاثـــير ٠
٢٢ ـ بين الكتب والناس ٠
٢٣ ـ يســـألونك ٠
٢٤ ـ في بيـــتى ٠
٢٥ ـ جميل بثينـــة ٠
٢٦ ـ الشيوعية والانسانية ٠
٢٧ ـ الشيوعية والاسلام ، بالاشتراك مع أحمد عبد الغفور عطـــــار ٠
٢٨ ـ عبقرية محـــمد ٠
٢٩ ـ عبقرية الصديق ٠
٣٠ ـ عبقرية عمر ٠
٣١ ـ ذو النورين ٠
٣٢ ـ عبقرية الامـــام ٠
٣٣ ـ عبقرية المســـيح ، ونشرت في طبعـــة اخرى باســـم « حيـــاة المســـيح » ٠
٣٤ ـ عبقرية خـــالد ٠
٣٥ ـ عمرو بن العـــاص ٠
٣٦ ـ أبو الشـــهداء ٠
٣٧ ـ داعى الســـماء ٠

٣٨ ـ الصديقة بنت الصديق •

٣٩ ـ فاطمة الزهراء •

٤٠ ـ أبو الانبيـــاء •

٤١ ـ معاوية بن أبى سفيان •

٤٢ ـ القائد الاعظم محمد على جناح •

٤٣ ـ سن ياتسن •

٤٤ ـ ابن رشـــد •

٤٥ ـ أبو نواس •

٤٦ ـ ابليس •

٤٧ ـ جحا الضاحك المضحك •

٤٨ ـ بنيامين فرنكلين •

٤٩ ـ الرحالة كاف « عبد الرحمن الكواكبى » •

٥٠ ـ فلســفة الغزالى ، محــاضرة ألقاهــا في القاعــة الكبرى بالازهر •

٥١ ـ شاعر أندلسى وجائزة عالمية •

٥٢ ـ على الاثير •

٥٣ ـ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين •

٥٤ ـ ساعات بين الكتب ، الجزء الثانى ، صدر سنة ١٩٤٥ م أما الجزء الاول فقــد صــدر ســنة ١٩٢٧ م وظهر الجزآن معـا ســنة ١٩٤٧ م •

٥٥ ـ التعريف بشكسبير •

٥٦ ـ الاسلام والاستعمار •

٥٧ ـ لا شيوعية ولا استعمار •

٥٨ ـ هــذه الشــجرة •

٥٩ ـ المرأة في القرآن الكريم •

٦٠ ـ اللغة الشاعرة •

٦١ ـ الانسان في القرآن الكريم •

٦٢ ـ القرن العشرون ما كان وما سيكون •

٦٣ ـ حقائق الاسلام وأباطيل خصومه •
٦٤ ـ أفيون الشعوب •
٦٥ ـ الصهيونية العالمية •
٦٦ ـ الاسلام في القرن العشرين •
٦٧ ـ مطلع النور •
٦٨ ـ ألوان من القصة القصيرة في الادب الامريكى •
٦٩ ـ في عالم السدود والقيود •
٧٠ ـ شعراء مصر وبيئاتهم •
٧١ ـ الديمقراطية في الاسلام •
٧٢ ـ الديوان (بالاشتراك مع المازنى) •
٧٣ ـ الحكم المطلق في القرن العشرين •
٧٤ ـ اليد القوية في مصر ، وطبع سنة ١٩٢٨ م •
٧٥ ـ ابن الرومى ، حياته من شعره •
٧٦ ـ النازية والاديان •
٧٧ ـ رجعة أبى العلاء •
٧٨ ـ قمبيز في الميزان •
٧٩ ـ سارة •
٨٠ ـ شاعر الغزل •
٨١ ـ سعد زغلول : سيرة وتحية •
٨٢ ـ تذكار جيتى ، طبع مرة ثانية بعنوان « عبقرية جيتى » •
٨٣ ـ عرائس وشياطين •
٨٤ ـ فرنسيس باكون •
٨٥ ـ أثر العرب في الحضارة الاوربية •
٨٦ ـ الشيخ الرئيس •
٨٧ ـ الله •
٨٨ ـ الفلسفة القرآنية •
٨٩ ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين •
٩٠ ـ برنارد شو •

٩١ ـ روح عظيم (المهاتما غاندى) •

٩٢ ـ ١١ يوليو وضرب الاسـكندرية •

٩٣ ـ فلاسفة الحكم في العصر الحديث •

٩٤ ـ التفكير فريضة اسلامية ، وقد ألفه سنة ١٩٥٧ م وسلمه المؤتمر الاسلامي بالقاهرة لانه ألفه بطلبه ولم يطبع الا أخيرا •

٩٥ ـ رجال عرفتهم ، ذكره الاستاذ عزت ابراهيم في مقالـه بجريدة « المدينـة » •

وله كتب مطبوعة غير ما ذكرت لم تحتفظ ذاكرتي بأسمائها وهي التي صدرت منذ سنة ١٩٦١ حتى الآن ، لان ماأحصيته في هذا المقال قبل هذا التاريخ •

تصحيح أوهـام

وما دمنا مع العقاد ومع جريدة « المدينـة المنـورة » فان من الحق أن نصحح أوهاما وردت في جريدة « المدينة المنورة » بالصفحة التي خصصتها للعقاد ـ رحمه الله ـ :

قالت في العمود الثاني : « ونادى ابن أخيه طالبـا منـه أن ينـادى على أخيـه عامر » •

وليس للعقاد أخ اسمه عامر ، وعامر هو ابن شقيق الاستاذ العقاد ، وهو ابن أحمد محمود العقـاد ، وأعرفـه وأعرف أبـاه مد الله في عمرهما •

وفي هذه الجملة خطأ لغوى وهو « ينادى على » وهو يتعـدى بنفسه كما جاء في أول الجملة « ونادى ابن أخيه » •

وقالت في العمود الثامن : « وكان يقول : انه قرأ ألف كتاب » والعقاد لم يقل هذا القول ، لان ما قرأه العقاد يعد بعشرات الآلاف ، وما يقرأه العقاد في سنة يزيد على الالف ، بل مر بى أنا نفسى قراءة ألف كتاب في السنة حينما كنت متفرغا للادب والعلم •

ولا يفتخر العقاد بأنه قرأ ألف كتاب لانه يقرأ هذا العدد في سنة ، وفي أقل من سـنة •

وذكرت جريدة « المدينة » الغراء في العمود الثامن : « يتقن اللغات : الانجليزية والالمانية والفرنسـية • وقـد تعلم الاخيرة في

السجن » ، والذى أعرفه انه لم يكن على معرفة بالالمانية وقد قال الاستاذ العقاد ذلك عن نفسه في كتابه « بين الكتب والناس » صفحة ٣٩٤ في بحث عنوانه « الصمد » .

قال العقاد رحمه الله : « وقد حار المترجمون في نقل الكلمة العربية الى كلمة تقاربها من اللغة الانجليزية أو الفرنسية مع حرصهم الشديد على الدقة الحرفية في ترجمة آيات الكتاب ثم أجمعوا ما عدا المسلمين منهم على ترجمتها الابدى الازلى ، كما فعل جورج سيل وريتشارد بل وبالمرورد ، وبل من المترجمين الانجليز ، كما فعل ادوارد مونتيه من المترجمين الفرنسيين ، وعلمت ممن اطلعوا على الترجمات الالمانية انها ترجمت بهذه الدلالة في أكثر من نسخة » .

وهذا يدل على أنه لم يكن يعرف الالمانية .

وتستحق جريدة « المدينة المنورة » الشكر لانها أفردت صفحة خاصة للعقاد ، وكنت أود أن تفرد كل جريدة عددا كاملا بالعقاد تحية له وتكريما .

رحم الله العقاد وجزاه عن العروبة والاسلام والادب والخلائق الانسانية الفاضلة خير الجزاء ؟

نشرت بجريدة « الندوة » سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤ م) .

العقاد يبدأ

من حيث ينتهي الائمة الاعــلام

عجب كثير من الناس أنني لم أكتب في العقاد كلمة وأنا أحد اصدقائه الخلص ومريديه المقربين ، وحق لهم أن يعجبوا ، وكان ردي : كنت أوثر لعكاظ أن تكتب عنــه مــا لا يعرف عن العقاد الا ندرة من الناس أنا في طليعتهم ، ورجت « الندوة » بوساطـة بعض مؤسسيها ومنهم الاستاذ الكبير حسين عرب أن أكتب فاستمهلت ٠

ورجت جريدة « البلاد » وألحت في الرجاء ٠

كنت أوثر لعكاظ أن تصدر عددا خاصا في « العقاد » تتناول جوانبه الشخصية والفنية والادبية والعلمية ، ولكن مؤسستها مــا تزال في ضمير الغد ، وقال لى من يشرفون على الصحف : ان كلها عكاظ ، فقلت : حقــا ٠

وأنا أقترح على صحفنا أن تصدر كل منها عددا خاصـــا في العقاد تكريما للرجل الذى كرم بلادنا وأعـــلى كلمة ربنا وذاد عن الاسلام وترجم لرسولنا ولخلفائه وبعض صحـــابته وجـدد الادب العربى تجـــديدا انتشر أثره في كـــل بلـد ينطـق بالضـــاد ، ونحن أولى بالعقـــاد ٠

ولعل جريدة « البلاد » وأكثر مؤسسيها تلامذة العقاد وكلهم احباؤه تبادر بتخصيص عدد منها للعقاد تحيى ذكراه ٠

أما العقاد فقد بلغ في علمه أنه يبدأ حيث ينتهى الاعلام ، وتجد لديه ما تفقده في الكتب والصحف والائمة الاقطاب ٠

كنت بسبيل طبع كتـــابى « الصحـــاح ومدارس المعجمات العربية » مقدمة « صحـــاح الجوهرى » وهو خـلاصة دراســاتى للمعجمات عشرين سنة وبحثت مع الاستاذ العقـــاد فاذا هو يمدنى بما لم أجد عند أحد من الاعلام بل وجدتنى في البحث الذى انفقت

فيه عشرين عاما « طالبا » بالنسبة للعقاد الذى أعجبه البحث فكتب مقدمته الرائعة التى استهلها بقوله :

« هذه مقدمة الصحاح للجوهرى ، أول مقدمة من نوعها في تاريخ معجماتنا العربية ، اذ لم يسبق تقديم معجم عربى بمقدمة مثلها في استقصائها لتاريخ المعجمات في لغتنا والمامها بتاريخ المعجمات في اللغات الاخرى ، وقد أفرد فيها الكاتب الباحث نبذة حسنة لترجمة الجوهرى صاحب الصحاح ـ فيما عدا هذه النبذة ـ تصلح أن تكون مقدمة تامة للصحاح ولسائر المعجمات العربية في جملتها ، لانها تغنى القارىء بما اشتملت عليه من المعلومات والآراء فيما يتحراه من التوسع والافاضة اذا شاء .

وقيمة المقدمة بالآراء التى اشتملت عليها لا تقل عن قيمتها بالمعلومات الوافية عن الصحاح وما عداه من الموسوعات المعجمية » الخ .

وان كل من تخصصوا فيما صمدت له من بحثى قصر علمهم على ما في الكتب مما استدبرته قبل سنوات ، ولم أظفر لديهم بجديد يضيف الى ما لدى من علم في هذا السبيل ، الا العقاد فانه بدأ معى من حيث انتهيت وانتهى قبلى الائمة الاعلام .

وكان صديقى الدكتور عبد العزيز عامر مؤلف كتاب « التعزير في الشريعة الاسلامية » يسمع منى ثناء جما طيبا في العقاد وعلمه فود أن يزوره بصحبتى ، واصطحب معه نسخة من كتابه « الطبعة الثانية » وقدمته للعقاد فرحب به ، ولما قدمه اليه قال العقاد : أشكرك ، وانى قرأته ، فقال الدكتور عامر : انه الطبعة الثانية ، وقال العقاد : قرأته ، وقال عامر : صدر منذ أسبوع ، قال العقاد : قرأته .

ونادى العقاد الاستاذ طاهر الجبلاوى ـ أحد مريديه وتلامذته المقربين ـ وطلب اليه أن يحضر له « التعزير » في طبعتيه ، فأحضر الطبعتين فاذا كل طبعة مجلدة ، فدهش الدكتور عامر ، ودار البحث في التعزير وقال العقاد كلاما كثيرا لم يجده الدكتور لدى أحد من

الفقهاء أو في كتاب وعندما غادرنا مجلس العقاد قال الدكتور عامر : انني شعرت أمام علمه كأنني تلميذ ٠

والدكتور عامر تفرغ لدراسة « التعزير في الشريعة الاسلامية » أكثر من عشرين سنة ، وتقـدم بكتابه الى الجـامعة ونـال بـه اجـازة الدكتـوراه ٠

والعقاد لا يقرأ كتابا الا بعد أن يجلده ٠

وبدأت صحبتي للعقاد سـنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) وزادت وثوقـا منـذ سنة ١٩٥٣ م وكنت أزوره كل جمعة أحضر ندوته الاسبوعية العامة ، كما كنت أزوره في غير يوم الجمعة بوعد سابق ، لان العقاد لا يقابل في غير الجمعة أحدا الا بوعد ٠

وما شهدت قط كالعقاد في علمه ، فاذا تحدث في علم من العلوم حسبته العلم الذى اختص به وبرز فيه أعظم تبريز ، وكان في نقاشه مع العلماء المختصين يظهر عليهم ويفوقهم حتى لكأنهم تلامذة عنده ٠

كتب العقاد في « يوميـات » جريدة « الاخبـار » منذ سبع سنوات ـ كما أظن ـ كلمة في مسألة من مسائل الفلك ، فتصدى له استاذ مختص في الفلك بجامعة القاهرة وأراد تخطئة العقـاد وذكر ما زعمه أنه آخر المراجع في علم الفلك ، وقال استاذ الجامعة : « لعل الاستاذ العقاد يدهش عندما أذكر له ٠٠٠ الخ » ٠

ولشد ما كانت دهشة الناس ـ وبخاصة العلماء ـ بالغة غاية مداها ان العقاد ذكر أن النظرية التى يشير اليها ناقده قد أشـار اليها قبل أن يولد الاستاذ الجامعى ، ونقل من كتابه « المطالعات » نصا يثبت سبقه اياه بأكثر من أربعين سنة ٠

وتزداد دهشة القراء عنـدما رأوا أن « آخر المراجع في علم الفلك » لدى الاستاذ الجامعى ليست كما ذكر ، لان بمكتبة الاستاذ العقاد مراجع في علم الفلك أحدث منها حتى تصبح مراجع الاستاذ الجامعى الكبير قديمة أكل الدهر عليها وشرب ، وبدا وكأنه تلميذ بـين يدى العقـاد ٠

وكانت له ذاكرة وفيـة لا تنسى ، حتى لكأن معجمات اللغـة

مدونة فيها لا تختفى من رحابها كلمة شاردة ، فقد كنت بمجلسه وسأل سائل : ما معنى عفلق ؟ فأشار له الاستاذ العقاد الى وقال : هذا امام من أئمة اللغة العربية وهو يجيبك ، وكان الله كريما معى أكثر مما أستحق ومرت بى الكلمة وثبت معناها في ذاكرتى الخؤون ، وقلت : العفلق : المرأة الخرقاء ، وهو أيضا متاعها الواسع .

وقال الاستاذ العقاد : هذا معنى عفلق ، ثم زاد : الخرقاء السيئة قولا وعملا ، ومتاعها الواسع الرخو .

ولما عدت الى منزلى رجعت الى المعجمات الكبيرة فاذا هى تذكر ما ذكر العقاد .

وسألنى بمجلسه سائل عن معنى « ارتهس » فأجبته : اضطرب ، وقال العقاد : في حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « يوشك أن يكون خير مال المسلم شاء بين مكة والمدينة ترعى فوق رؤوس الضراب وتأكل من ورق القتاد والبشام يأكل أهلها من لحمانها ويشربون من ألبانها وجراثيم العرب ترتهس بالفتنة » .

ثم أخذ يذكر معانى «ارتهس» ويؤكد مايذهب اليه بشواهد من الشعر والنثر حتى أدهشنى بسعة اطلاعه وغزارة علمه وحضور بديهته وقوة ذاكرته .

واذا كان أحدنا يفزع الى المراجع التى مر بها ليثبت ما يرى فان العقاد كان في غنى عنها لانها مدونة في ذاكرته بالنص أو بقريب منه .

كتب الدكتور طه حسين في مجلة « الثقافة » كلمة ممتازة عن كتاب « رجعة أبى العلاء » للعقاد وذكر من جملة نقده ما أنقله بنصه.

قال الدكتور طه حسين : « وقد جرى على لسان التلميذ وعلى لسان الشيخ كلام أهمل فيه النحو بعض الاهمال ، وما أظن أبا العلاء كان ينصب أو يجر حيث يجب الرفع ، وما أظن أنه كان يقبل من تلميذه أن يضع « من » مكان « ما » وما أشك في أن هذا من خطأ المطبعة ولكنه خليق أن ينبه اليه » .

وأشار الدكتور طه في نقده الى ص ١٨٩ و ٢٣٣ من كتاب العقاد حيث ورد فيهما ما حسبه الدكتور خطأ ٠

وقال العقاد من الذاكرة قبل أن ينشر رده ان الدكتور طه يؤاخذني في قولي : والمساكين المستضعفين » ولم يسبق الكلمتين عامل مذكور وهو يرى الرفع ، والمسألة مبنية على التقدير مثل قول الشاعر :

أخاك أخاك ان من لا أخا له
كساع الى الهيجا بغير سلاح

فالشاعر لم يقل أخوك أخوك لان الكلمة واقعة في الابتداء بل قال : أخاك أخاك ، على تقدير : اذكر أخاك أو استعن أخاك ٠

وأما « من » التى استعملها الاستاذ العقاد في مكان « ما » فهي في هذه الجملة من كتابه « رجعة الى أبي العلاء » ص ٢٢٣ : « لو أن الاستاذ شهد أسراب الطير وهي تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود الى الهجرة ولا تخاف الموت » ٠

ورد الاستاذ العقاد على هذا المأخذ قائلا : « ان « من » تستعمل مكان « ما » في أفصح الكلام ، قال الله تعالى : « ومنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على أربع » و « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة » والكلام عن الاصنام هنا ، وقال الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه
لعلي الى من قد هويت أطير

وذكر شواهد أخرى من الشعر المحتج به ٠

ومنذ ست وثلاثين سنة نقد الاب انستاس ماري الكرملي ديوانا للعقاد في مجلته « لغة العرب » نقدا لغويا ، وكان الاب انستاس معروفا بأنه من أئمة اللغة والنحو والصرف ، ولم يعرف عن العقاد ذلك ، ولكن برهن العقاد أنه أدق في فهم اللغة وقواعدها من الاب انستاس وأكثر منه اطلاعا على فصحها ونوادرها ، وهاك

نماذج من نقد انستاس ورد العقاد ، ومنهما تدرك قيمة كل منهما في ميدان اللغة ، جاء في ديوان العقاد قوله :

واسلمت كفى كفه فأعادها
وقلبى فهلا أرجع القلب ثانيا

وينقده الاب انستاس بقوله « ان أسلم لا يتعدى الى مفعولين ».
ويقول العقاد :

أنى نؤجله الحساب الى غد

وينقده انستاس بقوله : « وأجل لا تتعدى الى مفعولين » .
ويرد العقاد عليه بقوله المنشور في مجلة « البلاغة الاسبوعى » الصادر في ٢٠ يوليه ١٩٢٨ :

ـ المفعول به ايضا .. لكأن اللغة العربية لا تشتمل على غير المفعول به ، أو كان الافعال لا عمل لها الا التعدية ، ويخيل اليك ان الرجل لكثرة ترديده هذا المفعول قد حفظه واستقصى بابه فلا يفوته حكم من احكامه ولا موقع من مواقعه ، ولكن اتراه قرأ شرح الالفية لابن ناظمها وهى من اوليات الكتب النحوية ؟ لو انه قرأ لرأى فيه صفحة ١٢٧ من طبعة دمشق : « يحذف حرف الجر وينصب مجروره توسعا في الفعل واجراء له مجرى المتعدى .. وقد يفعل نحو هذا بالمتعدى الى واحد فيصير متعديا الى اثنين كقولهم في كلت لزيد طعامه ووزنت له مالى ، تقديره : كلت زيدا طعامه ووزنته ماله ، فلا خطأ في قولنا : « اشكوه ما يجنى » ولا في قولنا : « اسلمت كفى كفه » ولا في قولنا : « نؤجله الحساب » وانما الخطأ والجهل في تخطئة هذا الصواب المجمع عليه وهو قاعدة من القواعد المحفوظة » .

وللعقاد في كل علم من العلوم راية وبخاصة في علوم الدين والعربية والفلسفة والآداب ، ولم تعرف العربية كاتبا كالعقاد في شموله وتبحره وتضلعه الا نادرا ، بل تاريخ الانسان يندر فيه امثال العقاد .

ويعلم الله ان فجيعتى فيه غير محتملة ، فقد كان لى الصديق والاخ والاستاذ ، وتقلبت في نعماء من بره ، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه الجنة ، وانعم عليه بالمغفرة والرضوان ، انه سميع مجيب الدعاء .

نشرت في جريدة « البلاد » سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤ م) .

تدين العقاد

قد يكون الانسان باحثا في الدين وهو غير متدين ، وقد يكتب عن الرسل والمصلحين من رجال الدين وهو بعيد عن طريقهم في العقيدة والدعوة والاصلاح ، فهل كان العقاد من هؤلاء الباحثين الكاتبين ؟

ان العقاد كتب في الاسلام ، وأبان حقائقه وناضل عن أصوله وجوهره وكشف شبهات خصومه وأباطيله ، وكان له بمثابة الحارس اليقظ لمن يتجنى عليه أو يقتحم أسواره العاليه ، وصور « شخصيات » الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وبعض صحابته المقربين صورة يلتقى في الاعجاب بها كل الناس لانه تناول « انسانيتهم » التى يتفق في الاعجاب بها المسلم وغير المسلم ٠

والحق ان مكتبة العقاد الاسلامية التى طبعت وظهرت في شكل كتب مكتبة نادرة ، لان العقاد تناول فيها الاسلام وما يتصل به من قريب أو بعيد بأسلوبه الذى تفرد به دون كل من حمل قلما من بنى الاسلام منذ كان حتى اليوم ٠

فكتبه الاسلامية مكتبة حافلة بالاعاجيب من الجمال والقوة والحق ، اجتمع له فيها البيان المعجز والبرهان الدامغ والمنطق الغلاب مع الحق الذى لا مراء فيه ولا اختلاف ٠

ونعود الى السؤال : أكان العقاد من أولئك الذين كتبوا في الاسلام وهم غير متدينين ، وفي الرسل والمصلحين وحقيقة الباحثين تخالف حقيقة من كتبوا فيهم ؟!

والجواب الذى يؤيده واقع العقاد وبيئته وأسرته وسيرته هو ان الرجل كان شديد التدين بفطرته ونشأته ٠

فأبواه كانا مسلمين مؤمنين ، أمه شريفة من آل بيت النبوة ، وأبوه من الصالحين ، وكانا شديدى التمسك بالاسلام يؤديان

فرائض الله في دقة وحرص ، فنشأ بينهما وهو يشهد الدين في بيته وفي أعمال أبويه ، وكلما كبر العقاد كبر معه شعوره الدينى حتى أصبح من الراسخين في الدين عقلا وقلبا ..

وكتبه ومقالاته الدينية تدل على عقيدة راسخة سليمة تنبىء عن ايمان صحيح ينهض على اساس الفهم السليم للاسلام في ينبوعه الصافي وجوهره الاصيل .

وصحبتى للعقاد أكثر من ربع قرن من الزمان وقفتنى على تدينه البعيد عن الزيف والرياء لان العقاد لا يتهم بهما ، ولا تركبه تهمة كهذه .

نعم ، تفرد العقاد بأسلوبه الذى لا أجد له شبها بين أساليب من جندوا أنفسهم لخدمة الاسلام فأنت لا تجد فيه فضلة يستغنى عنها ، ولا يسع أى مقتدر بليغ أن يوجز كتابا من كتب العقاد أو بحثا من بحوثه ، لان العقاد يكتب ويؤلف بأسلوب الايجاز (المضغوط) الى الحد الذى لا ايجاز بعده ، ولكن في الوسع شرح مقال موجز له في رسالة أو كتاب .

زرته ذات مرة بعد أذان المغرب بعشر دقائق ، وقلت له : أخاف أن تفوتنى الصلاة اذا اشتغلنا بالحديث ، فدخل حجرة نومه واحضر لى « سجادة » قديمة حال لونها من مر السنين وكثرة الاستعمال فبدأ على غير اللون الاصيل ، وفرشها العقاد ، ورأيت في موضع القدمين والجبهة بللا دلنى على أن العقاد سبقنى عليها بصلاة المغرب

وفي حجرة نوم العقاد « مصحف » ليس للزينة ولكن للتلاوة والتأمل والبحث والدراسة والتفكير ، ولعله يستظهره أو يستظهر أكثره ، لانه يستشهد في اللغة وبعض العلوم في ندوته الاسبوعية بآيات كثيرة ، وكان يستفتح يومه بتلاوة القرآن الكريم .

وكنت ذات يوم عند العقاد قبيل الظهر وكان معى الاستاذان محمد طاهر الجبلاوى وعبد اللطيف أبو السمح ، مضينا اليه ليتأكد من تصحيح « ملزمتين » من كتابه « الشيوعية والانسانية » الذى

كان يطبع بمطبعتى في القاهرة ، وكان الاستاذ الجبلاوى مندوب العقاد في التصحيح ، وابو السمح مصحح المطبعة .

وتناولنا غداءنا على مائدة العقاد الحافلة ، ثم انتقلنا للشاى وكان الحديث في « عناية الله » فقال العقاد :

« عندما يعجز العلم يقدم لك الدين ما تطمئن اليه النفس » .

وقال :

« ليقل لنا العلم : لماذا لم يضرب الالمان القاهرة وفيها قوات الحلفاء وقياداتهم ؟ ان العلم لا يستطيع أن يجيب الجواب الصحيح ولكن الدين قادر على الجواب : انه عناية الله » .

ثم قال العقاد : سأريكم عناية الله التى ما يزال أثرها قائما حتى الآن ، واقتادنا الى غرفة مكتبه وأرانا بابا يفتح على شرفة صغيرة وفي زجاجها ثقب مستدير على حافتيه ما يشبه الضباب ، وقال : هذا ثقب أحدثته رصاصة !

وعجبنا ، وبدا على وجوهنا سؤال أدركه فقال :

دق جرس التلفون بعد صلاة العشاء ـ والتلفون بغرفة المكتب ـ ولم أكن بها ، فأقبلت عليها وأضأتها ، ولم يكن باب الشرفة الخشبى مغلقا ، والذى كان مغلقا هو الباب الزجاجى . ورفعت سماعة التلفون بيدى اليسرى ، وكان جنبى الشمال على باب الزجاج ، وهذا الحوار الذى دار في التلفون :

ـ الاستاذ العقاد ؟

ـ نعم .

ـ سيدى ، أنا من المعجبين بك ولم يكن لى شرف زيارتكم . وعندى مسألة علمية أرجو أن يتسع صدركم لى ، الخ .

وقال العقاد : وبينما أنا في الحديث سقط هذا المصحف (وأشار الى مصحف فوق « دولاب كتب ») فملكنى الذعر وأردت أن أدركه قبل السقوط وانحنيت فاذا رصاصة تخترق الزجاج وتنفذ منه ، واستلقيت على أرض الغرفة وحملت المصحف بيدى وزحفت الى مكان تدرعت به .

وقال العقاد : لو تأخرت ثانية واحـــدة عن الانحنـاء لادراك المصحف لنفذ الرصاص الى قلبى ٠

ووقف العقاد بجانب الباب الزجاجى ، فاذا الثقب الذى فيه يواجه مكان القلب ، مما يدل على مهارة الرامى ٠

وقال العقاد : ان الجناة درسوا مكان سكنى ، وعرفوا طريقة محادثتى ليلا في التليفون ما دمت يقظا ، عرفوا أننى لا أجلس عـلى الكرسى ، بل أقف أمامه لان وقوفي لن يطول ، واذا أردت الجلوس على الكرسى تكلفت ، لاننى أجتاز كتبا ورفوف كتب ، وألفت الوقوف بجوار باب الشرفة لانه أقرب مكان الى التليفون ٠

وقال العقاد : ان الجناة عرفوا أننى سأرفع سماعة التليفون بيسراى ، فاستهدفوا موضع القـــلب ، واختـــاروا راميـا مسددا لا يخـــطىء هدفـــه ٠

وقال العقاد : أليس هذا عناية الله ؟ ان كل علوم الدنيـــا لا تستطيع أن تفسر لى وتعطينى جواب أسـئلتى : لمـــاذا لا يســقط المصحف الا في هذه اللحظة ؟ وما الذى أسقطه ؟ لا فيران في منزلى ، واذا كانت فيه فلماذا لا تختار غير هذه اللحظة فتلقى بالمصحف ؟ وما سبب سقوط المصحف في هذا الوقت نفسه وما أكثر ما وقفت موقفى هذا ؟ ومن أدرى هذا المتسبب أن العقاد سيملكه الفزع من سقوط المصحف فيسقطه لابادر بالانحناء لاتلقـــاه قبل سقوطه ؟ أسئلة كثيرة لا جواب لها الا « عناية الله » ٠

وبدا العقاد أمامنا في ايمانه العميق وليـــا من أوليـاء الله الصالحين ، وبدا ايمانه كايمان العجـــائز ، ذلك الايمان الممعن في عمقه الى حد غير منظور ٠

والروح الدينية متغلغلة في العقاد لانها نشأت معه منذ تكوينه ، فلما خرج الى الوجود أخذت تنتشر في أرجاء نفسه وفي كل أقطار كيانه ، فطابق ظاهره باطنه ، وكان من فواتح قلمه حينما بدأ يكتب هو البحث في كتاب الله ، ففى سنة ١٩١٤ نشر بصحيفة « الرجاء » مقالا أعاد نشره في كتـــابه « الفصول » المطبـوع ســـنة ١٣٤١ هـ

(١٩٢٢ م) وهو بعنوان « الوضوح والغموض في الاساليب الشعرية » فتح فيه بابا جديدا من أبواب البحث الفنى في القرآن الكريم أوحى الى الاستاذ الكبير الامام سيد قطب أن يؤلف كتابه العظيم « التصوير الفنى في القرآن الكريم » و « مشاهد القيامة في القرآن » •

وفي كتاب الفصول ص ٢٤٦ مقال بعنوان « ضروب الالحاد » كتبه العقاد وهو شاب حمل فيه على الملحدين بالمنطق والعقل والبرهان ، ورفع للايمان مكانا عليا ، ومن كلماته في هذا المقال ، « اذا لم تكن النفس من التمكن من ينبوع الوجود بحيث يسرى اليها الايمان به من داخلها كما يسرى عصير الحياة الى الشجرة اليانعة من مغرسها ، فسريان الايمان اليها من الخارج مستحيل » •

و « انما الايمان الذى يبنى على غير تقدير من النفس كالاعجاب الذى يبنى على السماع ، وكالحب الذى يبنى على الوهم ، كلها شعور فارغ لا يصدر عن صميم النفس ولا يدل على عطف بعيد الغور ، ولكنه عبث وقشور ، وتعالى الله أن يرضى من احد بالعبث والقشور » •

وفيما كتبه نشهد الايمان الوجدانى العقلى العلمى بارزا ، ولا نخطىء هذا الايمان في أعماله وبدوات لسانه وفلتات قلمه وفي كل أدوار حياته حتى فارق هذه الحياة وهو مطمئن النفس الى أنه ينتقل الى ربه الذى آمن به ايمانا ينبثق من داخل النفس فيفيض على حياته أمنا وطمانينة وسلاما ؟

دهاء العقاد

يقال : ان القصير ماكر داهية ، والطويل ساذج ، ويروون قصصا ونوادر لاثبات هذا الرأى منتزعة من الواقع ، ومن ذلك : ان قصيرا جاء يشكو الى حاكم اعتداء وقع عليه فطرده الحاكم لانه واثق أن القصير لن يكون مظلوما ، وواثق أنه ماكر ظلوم ، وقال القصير : ان من ظلمنى – يا مولاى – أقصر منى ، فسمع منه وأنصفه .

وجواب هذا القصير دهاء أمدته به بديهته الحاضرة حتى أصاخ له الحاكم بعد اباء .

وأكاد أظن أن ما قيل في القصار لا يبعد عن الصواب ، ولكن لكل قاعدة شذوذا ، فهناك طوال عرفوا بالدهاء والمكر .

ولكن المازنى – رحمه الله – يقول : لا شذوذ في القاعدة ، فالناس يتهموننى بالمكر لاننى قصير بالنسبة للاستاذ العقاد الطويل العملاق ، والواقع أن العقاد قصيران ، أحدهما فوق الآخر ، ولهذا لا يذكر مكرى بجانب مكره .

وقول المازنى صحيح الى حد ، فالعقاد – على رأيه – قصيران أحدهما فوق الآخر ، ولكنه كان سليم القلب كبيره متفتحه للخير كالمازنى .

وان مكر العقاد لا يصدر عن خبث أو سوء نية وطوية ، ويحسن أن يسمى دهاء ، وهو عنده سلاح يستعمل للدفاع لا للهجوم ، ولم يؤثر عنه أنه بدأ أحدا بهجوم أو سبقه الى تجن وعدوان ، وما يروى عن حوادث مكره أو أعلمه لطول صحبتى اياه يدل على رغبته في احقاق الحق وازهاق الباطل ، ولم يكن العكس .

كان في أحد أقاليم الصعيد مدير شديد الضراوة والفتك بالوفديين هناك ، وشكوا الى الوفد ما يلقون ، وكان الوفد عاجزا عن انقاذ أنصاره لانه خارج الحكم ولا جاه له ، فرجع الى العقاد

يرجوه أن ينقـــذه •

وهداه تفكيره الى أن يكتب مقالا في احدى الصحف ، وأثنى فيه على انسانية المدير الغاشم العسوف في أسلوب لبق حكيم •

وهنا ثارت ثائرة الحكام على المدير ، واعتقدوا أنه من انصار الوفد ومحبيه وان كان يتظاهر بعداوته ، اعتقدوا ذلك عندما نهض العقاد كاتب الوفد الاول يثنى عليه ، ولولا يقين العقاد أن المدير وفدى في باطنه وحقيقته لما أطراه •

هكذا ظنوا ، وفصلوا المدير ، وأراح الله الوفديين من شره وعسفه وظلمه ، بل آذوا هذا المدير شر ايذاء لاعتقادهم أنه خائن •

فالعقاد ــ هنا ــ لا يمكر بصاحب حق أو نبيـــل عادل ، بل يمكر بظالم شرير وفق لابعاده وكف أذاه عن الابرياء ، فهو ــ اذن ــ منقذ ، اتخذ المكر سلاحا يدافع به عن الحق والعدل •

وعندما ألف العقاد كتابه « أبو نواس » ودفعه الى المطبعـــة خاف أن يعبث قلم الرقيب به فيحذف و « يشطب » تظاهرا منـــه بالغيرة على الآداب العامة وما يخدش الحيـــاء ، فاستشهد بأبيات نواسية غاية في المجون والخلاعة بثها في أكثر صفحات الكتاب ولم تكن فيه ، فاذا حذفها الرقيب عاد الكتاب الى صورته الاولى كمـــا رضى العقاد عنها عند تأليفه اياه •

وقد حدث ما توقعه العقاد ، فقد شطب الرقيب بقلمه الاحمر على الابيات الشنيعة ، فسلم الكتاب وظهر للناس كما أراد العقـاد وألفه ، ولولا هذا الدهاء لمسخ الرقيب الكتاب وشوهه •

وشـــكوت للاســـتاذ العقـــاد مـا نلقى من « المبـــاحث » عندمـا كنت أملك في مصر مطبعة كبـــيرة وأطبـع فيهـا كتـــابه « الشيوعية والانسانية » •

وجاء « المباحثى » والاستاذ العقاد عندى بالمطبعة فقدمته له ، وطلبت له فنجان قهوة ، وهنا قال لى العقاد : أوه ، تذكرت ، أرجو أن تطلب لى وزير الداخلية لامر هام •

واذا « المباحثى » يتغير ، وقبل أن تمتـــد يدى الى التليفون

استأذن وخرج ، وقال العقاد : لا أريد الوزير ، ولكنى أردت أن يفهم أن الوزير ليس بعيدا عنا اذا أردناه ، وما دام قد علم أن لنا صلة بالوزير فانه لن يعود اليك ولن يضايقك مرة أخرى .

وهكذا خلصنى الاستاذ العقاد من مضايقات هذا المباحثى فلم يعد الى مطبعتى حتى تخلصت منها هى نفسها كما نصحنى .

ليس مكر العقاد ناشئا من الضعف فما عرف في تاريخه كله أنه كان ضعيفا ، وكان دائما يختار القوة التى تحمى ولا تظلم أو تعتدى ، وما خير بين موقفين الا اختار الموقف القوى ولو كان فيه ضرره ما دام موقف الشرف والنخوة .

وفي وسعنا أن نسمى مكر العقـــاد دهـاء ـ كما قلت ـ وفي وسعنا أن نسميه حكمة أيضا ، وهو ـ بعد ـ ليس بالمكر السيء ، لانـــه مكر يراد منـــه الخـــير ودفع الشر ، ومـــن هنا يجوز لنا أن نسميه دهـــاء وحكمة ؟

★ ★

اقبـــال

المولد والنشأة والتعليم

(سيرة وتحية بمناسبة ذكرى اقبال)

في أواخر ذى الحجة سنة ١٢٨٩ للهجرة الشريفة ولد اقبـال ببلدة « سيالكوت » من البنجاب ، فـكفله والداه ، وعنيـا بتربيته حتى اذا بلغ الثالثة من عمره كان يتاسى بهما في صلاتهما ، ويقلدهما وهما يقرآن كتاب الله ، ويختلف مـع أبيه الى المسجد يصلى مـــع المصلين ، ويصغى الى الدروس مع المصغين ، وان كان لا يعي ما يقال.

وفي الخامسة كـان اقبـــال يقرأ آيات الله ويؤدى الصلوات الخمس ، وينصت الى القصص الدينى والصـــوفي الـذى كان والداه وعمه يتحفونه به ، وكان يشعر بلذة وسرور وسـعادة ، ويستغرق فيما يشبه الرؤى اللطيفة .

وكانت أسرته تعنى به أعظم العناية ، فكان ابوه يقوم بتعليمه حتى استظهر جانبا غير يسير من القرآن الكريم وكانت أمه تشارك أباه في تربيته الدينية حتى كان اقبـــال في طفولته صالحا متدينـا خـاشــــعا .

ورأى أبوه ان وقته الذى ينفقه في عمله يشغله عن تعليم ابنه فبعثه الى « كتاب » يتلقى فيه القرآن ، وفي ساعات فراغه كان يقوم هو نفسه بتعليمه ، الا أن اقبالا انتهى من الكتـاب واســـتوعب في طفولته ما كان فيه من علم يسير ، فأفضى الى ابيه بذات نفسه فذهب بـه الى مدرســة البعثة الاســكتلندية Scoottish Mission School في سيالكوت ، وكان مير حسن صديق والده هو الذى أشار له بها ، فوكل اليه أن يتعهد ابنه ويربيه ويلقنه القرآن والعلم .

و « مـير » في اللغـة الاردية : السيد ، والسيد من يتصل في نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان السيد حسن ممن صفا نسبه وزكا حسبه وحسنت صفاته وخـلائقه ، وكان موضع التجلة

من زملائه العلماء وأهل بلده وتلامذته ، اذ كان عالما جليــلا وشهما نبيلا ، وسيدا كريما ، وبلغ في تقواه وعلمه واخلاصه ما لم يبلغه الا أفراد معدودون من أمثالـه العظماء حقـا ، وحسبه أنـه كان يلقب بشمس العلماء لعلمه وفضله •

وكان مير حسن من الراسخين في العربية حتى كان استاذها في كلية سيالكوت أما الادب الفارسى فكان من أشــد المبرزين علمــا به واســـتيعابا لـــه •

كان مير حسن هو معلم اقبال ومربيه ، وكـان اقبال سعيدا فخورا باستاذه ، ورأى في المدرسة جوا غريبا غير جو بيته وغير جو المسجد والكتاب ، ورأى مظاهر لم يشهدهافي كتابه الصغـــير ولدى معلمه ، وكانت في اقبال رغبة في العلم وصبوة الى المعرفة وظمـأ الى الدرس فكان من أسبق الطلبة واشدهم ذكاء وأحسنهم خلقا ، حتى استأثر بجوائز المدرسة وقدر اساتيذه اياه حق القدر ، وفاق لداته وأقرانه ، وظهرت عليه أمارات العبقرية الباكرة حتى ادهش مـــير حسن وسائر مربيه •

عاتبه اســتاذه ذات مرة ـ وكان في العاشرة ـ على تأخره عــن موعد حضور التلامذة فقـــال : الاقبال لا يأتى الا متأخرا ، فأعجب الاستاذ بتلميذه ، وعلم ان سيكون لهذا الطفل شأن اذا اراد الله ، وسيكون لذكائه اثر كبــير في حياة امته وبلده ، وما يلحظ طفـــل المفارقات اللفظية والفكرية والفنية ، بل يخطىء الكبــار ادراكها الا الذين ارود لهم صعب العقل ورهف منهم الاحساس •

فاقبال الطفل يدرك ببديهته الواعية اللماحة معنى اســـمه ، ويفيد من المشاهدة اذ لا يرى الحظ مبتسما الا لمن شاب رأسه ولا يأتيه الا متأخرا •

واذ عوتب ذكر في دفاعه اللطيف مـا جعل أســـتاذه مبهورا دهشا من حسن الاعتذار مع مصادفته لصدق الواقع •

وكانت حياة اقبال المدرسية تمتاز بعبقريةجعلته بارزا مشهورا بين صفوف زملائه ، فقد كان في الكتاب ثم المدرسة الابتدائية ثــم

الثانوية مثـلا رائعـا للتلميذ النجيب ، حتى أن لمحاته الفنية كانت جديدة على اساتيذه وفيهم أئمة الادب والعلم واللغة والثقافة .

ولمـــا انتهى الى الـكلية الاسكتلدية كان قد كملت له تجارب شعورية وفكرية كثيرة ، فنال شهادتها العليا بتفوق ، الا أن عهـد الطلب في الـكلية الحكومية بلاهور التى انتقـل اليهـا بعد الـكلية الاسكتلندية امتـاز بنضج العقـــل وصدق التجربة وحفول حياته بالدراسة والبحث ، وتكشفت له ضلالات الحياة من خـلال دراسة الجامعة للفكر الشرقى والفكر الغربى .

وكان سير توماس ارنولد المستشرق الانجليزى المعروف استاذا بالكلية الحكومية بلاهور وكان عليما بالفلسفة الاســلامية ، معتدل الرأى ، يحب الاســلام والمسلمين ويذكر لهم فضلهم عـلى الانسان ، فتوثقت صلة اقبال به ، اذ وجد فيه طلبته واستعانه في تزويد نفسه بما هى في حاجة اليه من العلم والثقافة والفن والادب ممـا لا يجده عند غيره من أساتذته الاعلام ، وأفاد اقبـال من استاذه الانكليزى كثيرا حتى دفعه الوفاء والحب الى نظم قصيدة رائعه في وداع استاذه وصديقه عند ما أزمع العودة الى بريطانيا ، كما أهداه كتابه « تطور الميتافيزيقا في فارس » وهو الذى حصل به اعلى اجازة الدكتوراه من جامعة ميونيـــــخ .

وحصل عـلى درجة B. A. M. A من الـكلية الحكومية بلاهور بتفوق أناله بعض جوائزها الرفيعة .

وأراد ان يلتمس سبيل العمل في مناصب الدولة غير أن قيود العمـــل كانت تمنع من « التوظيف » مـن كان نظره ضعيفا ، فلم يستطيع لضعف في عينيه أن يتخذ الى الحـكومة سبيلا ، فبقى حيث أراد الله له أن يبقى بعيدا عن هـذا المجال ، وأراد الله أن يشتغل بالتدريس فصار استاذ التاريخ والفلسفة بالكلية الشرقية بلاهور ، ثم مدرس الفلسفة واللغة الانكليزية بكلية الحكومة .

وكانت المدة التى أقامها اقبـال بلاهور عشر سنـــين قضاها طالبا وأستاذا ، فاحدث في محافلها الادبية والفكرية دويا شـديدا ،

وكان باعث نشاط عظيم فيها ، وعرف بين الناس شاعرا مجددا في الشعر والادب ، فقد نقل الشعر من أسلوبه القديـــم الى أســلوب جديد ، وتطلع الى معان لم تكن مطروقة من قبل ٠

ثم دفعه الشوق الى المزيد من المعرفة ، فرأى أن يطلب العلـم في أوروبا فسافر اليها سنة ١٩٠٥ م ، وكان عمره اذ ذاك اثنتـين وثلاثين سنة ، ولما وصل الى دهـلى في طريقه الى أوروبا زار ضريح الشيخ نظام الدين اوليا ونظم قصيدة القاها بين يدى الضريح تحية للولى قال فيها :

« سحرتنى كأس المعرفة فتركت وطنى المحبوب
اننى كشجرة برية تحيـا من كرم السحــاب
غير ناظرة أن يسـقيها « الفـلاح » المــاء ٠

فاقبال لم يرحل الى أوروبا للمتعة واللهو ، بـل مضى مجذوبا بكأس المعرفـة ، ينشد ضالتــه من العلم في ربوعها الآهلـة بدوره وجامعاته ، فالتحق بجامعة كمبردج يدرس الفلسفة ، وظفر منهـا بدرجة جامعية في « فلسفة الاخلاق » ٠

ثم زادت صبوته الى المعرفة التى هام بها حبا فمضى الى ألمانيـا وانتسب الى جامعت هيدلبرج ثم ميونيخ ، وتعلم الالمانية في شهور قراءة وكتابة ، وألف رسالة عنوانها « تطور الميتافيزيقا في فارس » واجيز من أجلها بشهادة الدكتوراه ٠

ثم عاد الى لندن وعكف على دراسة القانون ونال شهادة الاشتغال بالمحاماه ، كمـــا قضى زمنا بمدرسة العلوم السياسية ، ثـم قـام بالتدريس بجامعة لندن ثلاثة شهور ، نائبا عن سير توماس أرنولد الذى كان استاذا بها ، وانقطع عنها لمرض ألم به فأناب تلميذه الذى بز استاذه فعرف له تفوقه وعبقريته فاختاره أن يكون نائبه ٠

قضى اقبال ثلاث سنوات في أوروبـا بـين ألمانيـــا وبريطانيا وغيرهما ، ولم يكن له عمل غير التزود من المعرفـة ، وكـان لا يقنع بالجامعة وحدها فكان يرود المكتبات في نهم شديد يلتهم ما يروقــه فيها من الاسفار الضخمة العظيمة حتى تضلع من المعرفة ، كما أفاد

من صلاته بأقطاب الفكر والفلسفة في أوروبا في تزويد نفسه بما يصبو اليه .

ودرس اقبال الفلسفة الحديثة والقديمة ومذاهبها وأحاط بها ، كما وقفته دراسته للقانون على مزايا الفقه الاسلامى الذى كان فيه من البارزين المبرزين ، وزادته ايمانا بعظمة التشريع الاسلامى .

وأفادته اقامته بأوروبا كثيرا فقد عرف أسرارها وما تستعد له من الانهيار والدمار اللذين تسوق نفسها اليهما سوقا عنيفا ان لم ينقذها دين وخلق يمنعانها من التردى في الهاوية الملتهبة التى فغرت فاها لتلتهمها .

واقبال لا يعادى الغرب ولكن يشفق عليه لانه مسلم ، والمسلم لا يعادى انسانا لان نبيه رحمة للعالمين ، ولكن اقبالا كان شديد الخوف على أوروبا ، كثير الاشفاق عليها من الردى الذى تندفع اليه من تلقاء نفسها حتى قال في حزن وأسف : « يا أهل الغرب ، ان حضارتكم ستقتل نفسها بخنجرها ، فثوبوا الى الرشد ، فما حسبتموه مغنما ليس الا غرما ، وما ظننتموه ثابت الاركان انما هو عش أقيم على غصن هش » .

وحذر الغرب ـ وهو طالب يدرس بجامعاتها ـ من التمادى فيما هو منصرف اليه ، وبصره بما يضمن له بقاء حضارته ولم يكن اقبال في تحذيره للغرب حاقدا عليه كأتباع الماركسية المسخرين .

وفي سنة ١٩٠٨ م عاد اقبال الى وطنه ليبدأ جهاده الفكرى والادبى والدينى والانسانى ، عاد ليفكر في تغيير مجرى حياة الامة الاسلامية التى تقطن القارة الهندية ، عاد ليصنع لها تاريخا جديدا ، ويقود الحركة الاسلامية وسائر الحركات الفكرية والادبية ليدفعها جميعها الى التقدم في طريق مستقيم .

وقد وفق الله اقبالا لان يحقق ما كان يصبو اليه من انشاء أرض الطهر « باكستان » التى مهد لها ووضع خططها وعبأ لها القوى وجند من أجلها كل ما في القارة من نشاط اسلامى حتى اذا انتقل الى ربه تسلم خلفاؤه الامانة ، فكان حلم اقبال واقعا مشهودا .

لقد انتهت حياة اقبـال ولكن ثمرات جهـاده لا تنتهى ، فهى تنبت كل يوم لتعطى جديدا ، وتقدم للانسانية الغذاء الذى يحفـظ لها صحة العقل والذوق والشعور والوجدان .

لقد بنى الشاعر الفيلسوف دولـــة فاضلة تدين بالاســلام ، وتعمل للانسانية ، بنى اقبــال دولـة تعمــل مـا عمل اقبـال : ايمان بالله ، وحب للانسانية .

فاذا ذكرنا نحن العرب هذا الشاعر الفيلســوف فانما نذكر شاعر الرسالة المحمدية وفيلسوف الاسلام ، نذكر رجلا عظيما من أعظم أئمة المسلمين في العصر الحديث ، نذكر رجلا ما قدر أحدا من الناس قدره للعرب ، فمن العرفان لجميل اقبال أن نحيى ذكراه ، وندعو الله أن يجزيه عن الاســـلام خير الجزاء ، فلقد كان مسلما مؤمنا محسنا ، يعبد الله وكأنه يراه .

رحم الله اقبالا رحمة واسعة وحفظ باكستان وكل الشعوب الاســـلامية وأعز الاســـلام والمســـلمين آمـين ؟

نشرت في جريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)

محمد اقبـــال

في اللغة العربية

من فضل الدكتور عبد الوهاب عزام أنه عرف العالم العربى بشاعر الاسلام محمد اقبال ووقف العرب على بعض آثاره ، ولكن اقبال ما زال مجهولا برغم كل ما ترجم له عزام من شعر أو نثر ٠

ومنذ ثلاث سنوات دعانى الدكتور عزام في بيته بحلوان وأنشد لى بعض ما ترجم من شعر اقبال ، وكان عزام فخورا بذلك كما كان معتزا بقصيدة اقبال التى عنوانها « حادى الحجاز » وأنشدهـــا لى عزام ، وسألنى رأيى فقلت : حقا : ان « اقبال » شاعر الاسلام غير مدافع ، ولم تنجب لغات المسلمين شاعرا مثله ٠

ثم قلت له : ان ترجمته لشعر اقبال لم تكن ترجمة فنية ٠

وقرأت كل ما ترجم الدكتور عزام من شـــعر اقبال فلم أقرأ شعر اقبال ، لان لهذا الشاعر الاسلامى الاكبر نفسا أفقده في كـل شعراء الاسلام ، ولم يستطع عزام أن ينقله لنا بروحه ومعناه فمـا نقرؤه منسوبا الى اقبال لا يصح أن ينسب اليـــه ، بل عزام أولى بـــه لانه بـــه أشـــبه ٠

شعر اقبال نمط خاص في الشـــعر الانســـانى ، وهو شعر الاشواق الانسانية العليا ، شعر الروح الامثل ٠

ترجم عزام قصيدة « حادى الحجاز » وجعل اللازمة هذا البيت ـ وهو من ترجمة عزام ـ :

حثى الخـــطى قليـــلا   منزلنـــــا قريـب

وهى ترجمة غير فنيـــة لبيت اقبـــال ، وان خلـــلا في ترجمة كلمـة واحدة يشوه صورة القصيدة كلها ، وان كلمة واحدة تجعل للقصيدة معنى حيث تقلبها من الصنعة والتكلف الى الطبيعة والصدق ٠

ان اقبال لم يقل :

حثى الخـــطى قليـــلا   منزلنـــــا قريـب

بل الذى قاله هـو : « حثى الخطى قليـــلا ، منزلى ليس ببعيد »
وفرق بين ترجمة اقبال وترجمتنا وظن عزام ـ رحمه الله ـ أن نفى
البعد هو اثبـــات القرب ، فترجم : منزلى ليس ببعيـد ، بقوله :
منزلنـــــا قريب .

ووجه الخطأ ، أن المنزل اذا كان قريبا فلماذا يحث الخطى ؟!
ولكنه يحث الخطى اذا كان بعيدا ، واقبال يريد نفى البعد لا اثبات
القرب ، وعزام يخبر بقرب المنزل .

وكل ما ترجم لاقبال من شعر سواء أكان بقلم عزام أم غيره
كالصاوى شعلان أو الزبيرى اليمنى ترجمة لا تصور شعر اقبال .

ولو ترجم المازنى رحمه الله شعر اقبال لأرانا الروعة وذوقنا
الفن الشعرى الذى لا مثيل لـــه .

نقل رباعيات الخيام شعراء كثيرون مثل الزهاوى والصـــافي
والسباعى ورامى وغيرهم ، وترجم بعضها المازنى ، وبعض مترجمى
الرباعيات نقلوا عن الفارسية ، أما المازنى فقد ترجمها من الانجليزية
عن « فتزجرالد » ومع هذا كان ما ترجمه المازنى نظما شعرا رائعا
يثبت أن الخيام ناظمه ، أما غيره فلم يوفقوا توفيقـــه وان كانوا
مـــن المجـــودين .

وآخر من ترجم الرباعيات عبد الحق فاضل أحد العراقيـــين
الذين يشتغلون في الســـلك الدبلوماسى ، وكـــانت ترجمته خـــير
الترجمات التى سبقته باستثناء المـــازنى في الرباعيات المعدودات
التى ترجمهـــــا .

ولو ترجم شعر اقبال كما ترجم المازنى أو فاضل شعر الخيام
لرأينا المعجب المطرب .

والمترجم هو المؤلف الثانى ، فاذا كـــان بارعـــا فنـــانا أصيلا
استطاع أن ينقل لنا الشعر نقلا يثير الاعجاب والا قضى على الصورة
الشعرية والمعـــــانى الشـــعرية .

وبراعة المترجم قد تجعل الترجمة ـ أحيانا ـ خيرا من الاصل ،
وتحيـــل تراب المعـــنى ذهبـــا ، مثال ذلـــك ان الشـــاعر الانجليزى

« جيمس رسل لويل » قال في قصيدة له : « أتى الارض في الربيع فتى جميل » ٠

وترجم المازنى ـ رحمه الله ـ هذا البيت شعرا فقال :

غشى الارض في شباب الزمان
رائع الحسن من بنى الانسان

وأحال المازنى بيت « لويل » العادى الى شعر رائع جميل ، وفرق بين « أتى » و « غشى » وبين « الربيع » و « شباب الزمان » وبين « فتى جميل » و « رائع الحسن » وكلمته « غشى » جعلت الصورة الشعرية رائعة ٠

وقرأت كل ما كتبه الدكتور عزام عن اقبال فلم يزدنى به معرفة ، فكما أنه لم يوفق في ترجمة شعره فان التوفيق قد خانه عندما كتب فصلا تحت عنوان « فلسفة اقبال » في كتابه الذى ألفه عنه ٠

وقد زارنى ذات مرة سفير باكستان الاستاذ الكبير المجاهد على أكبر شودرى بمنزلى ، وكان بصحبته الاستاذ الفاضل أحمد الحسنى الملحق الثقافي بسفارة باكستان ، وتذاكرنا شعر اقبال وفنه وفلسفته وآراءه ، وطلب الى أن أؤلف عن اقبال ما دمت على جانب كبير من العلم بحياته وجهاده ، فوعدت خيرا ٠

وكنت اظن أن بضعة شهور تكفى لتاليف كتاب صغير عنه ولكنى عندما بدأت دراسته وكتابة بعض الفصول وجدتنى وكأننى اخوض البحر ، كل ما ابتعدت عن الساحل وجدت السعة والامتلاء ، فعدت الى الساحل مرة أخرى ، وقلت : ان الذى يريد تأليف كتاب عن اقبال مكلف أن يستعد ويتفرغ لهذه الرحلة الفكرية العظيمة كل الاستعداد ، ورأيتنى في حاجة الى سنة أتفرغ فيها عن كل عمل حتى يكون تأليفى عنه بحثا علميا أدبيا حقا ، ولعلى أستطيع ان شاء الله ٠

وعرفت سبب اخفاق عزام في كتابه عن اقبال ، وهو أنه غير متفرغ ، فقد كان عزام مشغولا بمناصب وأعمال تأكل وقته وتصرفه عن اقبال صرفا ، وهناك أسباب أخرى ، أما اخفاقه في ترجمة شعر

اقبال فمرده انه لم يكن هو نفسه شاعرا مبدعا ولا فنانا أصيـــلا ، فترجم الشعر ترجمة بعيدة عن الشعر .

ولعلى أتناول بعض قصائد اقبال التى ترجمها عزام وأعارضها بترجمات لها حتى يقف القـــارىء على الفرق بين الترجمتين ليعرف أن الدكتور عزام مع مابذل من جهود لم يوفق في ترجمة شعر اقبال ؟

★ ★

الاســـلام

يســـطع في بيت اقبـــال

دخل اقبال مسجد قرطبة فلم يرعه منه بناؤه وفنه ، بل ذكره بمجد الاسلام ، وغرق في سبحات وتأملات شهد فيها جلال الله ونوره فناجى مسجد قرطبة بقصيدة من الشعر تكاد تكون أروع ما نظم في الشعر الاسلامي ، ومما جاء فيها قوله :

« يا حرم قرطبة
عشقت فدام بقاؤك
والعشق كأس يذوب فيها الزمن
لا فرق بين رسم ونحت ونقش
لا فرق بين لون وصخر وحجر
القيثارة والحرف والصوت سواء
وان قطرة دم الكبد تحيل الصخر قلبا نابضا
لان بها مكمن الحرقة والطرب والسرور
ان يكن فضاؤك نورا يسطع في القلب
فان صوتي نشيج حرقة الصدر
بك اقتراب القلب وبي ابتعاده
فقبضة التراب تتطلع الى القبة الزرقاء
واذا وسع المخلوق من النور أن يسجد
ففي وسع مخلوق الطين أن يهيم من الوجد والاحتراق
أنا الكافر الهندي فانظر الى شوقي وذوقي
في قلبي صلاة وسلام
وبشفتي صلاة وسلام
وغنائي شوقي وفي قلبي هيام
وفي لحمي ودمي كلمة الذكر :
« الله حي »

ويقول اقبال :

« أيسعد الكافر الهندى المقال
اذ يخاطب أمراء العرب في اجلال »

ويقـــول :

« طينتى مجبولة من برهمى »

ويقـــول :

« لن ترى في الهند من سلالة برهمى
واقفا على أسرار الاسلام غيرى »

وفي شعره أشارات كثيره الى مثـل هذا ، فهو تارة « الـكافر الهنـدى » وتارة أخرى « سليل البراهمة » وهـو « تبيـع اللات ووليـد منـاة » •

وهو اذ يذكر أنه الكافر الهندى الذى كان من نسل البراهمة وسليل الوثنية لا يريد أن يفخر بماضيه وأجداده الوثنيين ، ولكنه يريد أن يتحدث في فخر واعتزاز عن نعمة الله الكبرى اذ جعله مسلما من صلب مسلم •

وان من الفخر حقا ـ بل من المفارقات ـ انبثاق نور الايمان من ظلمة الكفر ، فاذا أزهى اقبـال مفتخرا بأنه مسـلم من سليل وثنيين فانما يزهيه أنه خرج من أصلاب كفرة ففهم الاسلام فهما ندر أن نجد مثله فيمن خرجوا من أصلاب مسلمة عريقة ، وشعر بالدين شعورا جعله دائم الوجد بخالق الارض والسماء ، فان تعجب فاعجب بسليل الوثنيين يرقى درجات العلياء حتى ينتهى الى الذروة الشماء•

ونفهم من شعر اقبال نفسه انه لم يكن في أصوله من سـلالة مسلمة ، بل كان من أصلاب غير مؤمنة ولا موحدة ، وتاريخ أسرته يذكر انها كانت ـ منذ ثلاثة قرون مضين ـ من احدى الاسر البرهمية في بنجاب بكشمير ، وفي عهد الامبراطور المغولى (أكبر) اعتنق احـد أجـداده الاسـلام •

وأول من أعتنق الاسـلام من أجداده لم يعتنقه طمعا في دنيـا

يصيبها ، بل كان كما يقول اقبال : « حب محمد لربه حمله على حرب عمه أبى لهب » فجده لم يكن من عامة الناس ، بل كان مفكرا باحثا ، درس الاديان الصحيحة كما درس البوذية وغيرها ، وخلص من دراساته وتاملاته الى أن الاسلام هو الدين الحق الذى يتم فيه لقاء المسجد بالسوق ، والدنيا بالآخرة ، وفي ذلك كمال الانسانية التى رفعها الاسلام الى عمارة الارض مع العروج الى السماء •

وآية سمو هذا الجد العظيم أنه كان على صلة بالامام الكريم شاه همدانى » وما تكون الصلات الا بين الاقران والنظراء ، أحدهما بارز من كبار البراهمة ، والآخر قطب من أقطاب الاسلام ، جمعت بينهما الانسانية فكانا صديقين ، والاسلام انسانية فاضلة ، ومحمد لم يأت الا رحمة للعالمين : انسا وجنا ، ومؤمنين وملاحدة ، مسلمين وكفارا ، ومن هنا كان اجتماع البرهمى الكبير بالمسلم الخطير •

وأثمرت الصداقة بين الرجلين أن أسلم جد اقبال على يد صديقه « شاه همدانى » عن فقه وبصيرة ، لانه رأى الاسلام دين الانسانية القوام ، يقبل على الحياة كل الاقبال ، ولكنه يسمو عليها حتى تكون الدنيا أصغر همه وأدنى من أن ينصرف اليها انصرافا ينسى معه القيم الاخلاقية والمثل الانسانية والايمان الحق بالبعث والنشور •

وايمان جد اقبال ايمان علمى قائم على أساس البرهان والتجربة والمشاهدة ، ولم يكن هذا الجد فقيرا يتخذ الاسلام سلما الى الثراء ، ولا نكرة ينتهى به الى المعرفة ، فقد كانت أسرته تشتغل بالزراعة في قرية « لوهار » بكشمير ، وكانت الحياة رخية تمر به رضية هانئة لا قاطبة ولا هازئة ، ولم يكن مقيتا في أهل ملته ونحلته فيتركهم الى دين جديد رجاء أن يجد عند أهله الترحاب والاحتفال ، ولا متوجسا خيفة من أهل بلده أو قريته فيدع دينه الى الاسلام ليمتنع في ظل عزته كما صنع اليهودى أبو « كارل ماركس » عندما ترك يهوديته الى النصرانية طمعا ولؤما واستغلالا •

ترك جد اقبال البرهمية الى الاسلام لانه رأى بينهما بونا شاسعا ، فالبرهمية تنبذ الحياة وتلقى على العالم نظرة تشاؤم تمسخ كل مطالع الكون ومباهجه وجماله ، وتزدرى المال والجاه ، وتسرف في البعد عن الملذات ، وتقصى الخاطىء من البراهمة عن حظيرة الرضا أبد الدهر ، فلا توبة ترحض الذنوب ، بل يكفى للسقوط الابدى هنة هينة فيكتب عليه صك الحرمان ، وفقدان المنزلة الرفيعة ، وقطيعة طائفته اياه .

أما الاسلام فيقبل على الدنيا لانها جسر الآخرة ، يقبل على الدنيا دون أن تستعبده أو يعبدها ، وأن الدنيا خلقت للمسلم الحق الذى خلق للآخرة .

خلق المسلم للدنيا فأبيح له أن يلذ بالمطعوم والمشروب وبكل ما وسعه ما لم يكن عدوانا على حق أو مسخا لجمال أو تشويها لحسن .

والاسلام ـ دائما ـ مفتح الابواب أمام الخطائين التائبين ، لان الله رحيم عفو كريم يفرح بتوبة عبده ، فهو بالتوبة يملأ القلب بالامل الذى لا يخبو ضوءه المتجدد في قلبه المعمور بالايمان .

وهكذا كان هذا الرجل ـ جد اقبال ـ الذى تخلص من البرهمية الى الاسلام فكان أول من أسلم من أجداده ، وبذلك دخلت في الاسلام أسرة أعز الله بها دينه في تلك الربوع كما أعزها الاسلام فكان أفرادها من الصالحين المصلحين الاخيار .

فاذا أشار اقبال الى هذا الحادث الجلل وأكثر الاشارة حتى أنه سمى نفسه في بعض شعره « الكافر الهندى » لم يكن الا راغبا في التذكر الدائم لنعم الله عليه وعلى أسرته حتى يعلم أين كان والى أين صار ! اذ لولا هداية الله وتوفيقه لجده لكان هو وذريته من المحرومين من أعظم نعم الله طرا ، ألا وهى الاسلام .

ومن هنا كانت سعادة اقبال التى جعلته يكرر هذا المعنى حتى يتجدد شعوره بما أنعم به الله عليه وعلى جده الذى أسلم فخرج من أصلابه هؤلاء المؤمنون البررة الكرام .

ومنذ اسلام جد اقبال لم يؤثر عن أى فرد من هذه الاسرة انحراف أو استهتار ، بل كانوا جميعا أمثلة رفيعة ممتازة للمسلم المؤمن المحسن ، حتى اذا قربت مسافة الاسرة من اقبال زاد توهج ضيائها فكانت الانبثاقة العظمى التى تجلت بميـــلاد أكبر دولة اسلامية في العصر الحديث ، تلك الدولة التى كانت حلم شـــاعر وتصميم فيلسوف وبنـــاء عـــالم ·

انـه محمد اقبـــال الـذى أعز الله بـه الاســـلام في الهند قبـل التقســيم وبعـده ؟

* * *

الوطنيـــة
عنـد اقبـــال

كل صفة من صفات اقبال نموذج متخـــير في عـالم الصفات الانسانية المثلى ، بل أدنى صفاته أكبر من أكبر الخلائق في كثير من الائمة والعباقرة ، تلـــك الخـــلائق التى تشـــهد لاصحـــابها بالســموق والتفرد .

وأبرز صفاته : الايمان بالله ذلك الايمان الذى يصغر بجانبه كل كبير غير الله ، فاذا كان هناك كبـــير من النـــاس أو الحوادث فايمانه يشعره أن هناك « أكبر » من كل كبير .

وايمانه مبنى على أسس من العلم ، وهو الذى جعله يستصغر كبار الامور حتى يمتطى ذراها ، ودفعه الى الثقة بنفسه ورأيه حتى ما يكاد ينحرف عن طريقه مهمـــا عرض له من ثانيـــات العزائم وحاطمـــات القوى .

يقول محمد على جناح : « كان اقبال في أشد الاوقات التى مرت بالرابطة الاسلامية وأحلك ساعاتها طودا راسخا ، مـــا تزلزل قط أمام ما يجابهنا من خطر قوى غلاب » .

و « الرابطة الاسلامية » كان أقوى حزب اسلامى وأكبره في الهند كلها ، وكان هذا الحزب أمام حزب « المؤتمر » الذى يضم كبار الهنود وبعض كبار المسلمين ، وكان حزب الرابطة يجابه قوى جبارة كقوة بريطانيا وقوة حزب المؤتمر .

ومرت بالرابطة الاسلامية أزمـــات طاحنـة لا قبـــل لاحـد باحتمالها ، وكان حريا ببعضها أن تعصف بهـــا عصفا لولا ثبات اقبـــال الذى حمل محمد عـلى جنـاح رئيس الرابطة أن يصفـه بأنه كان طودا راسخا ، ويشهد له أنه ما تزلزل قط .

ومرد هذا الثبوت الراسخ الى ايمانه العجيب النادر ، فكلـما نهضت أزمة مبيدة وقف اقبال وحده تجاهها حتى يفتتها ، فينهض

بعد ذلك معه زملاؤه معجبين بقوته وفهمه وايمانه داعين له بدوام نجحه وتوفيقه .

وهذا الايمان العجيب جعله يناهض حقائق كبرى عاشت في الاذهان ومـا زالت تعيش فيها وجعله ايمانه القوى لا يبالى أن يكون وحده في الميدان .

منذ الحرب الاولى وصوت الوطنية يدوى في كل مكان كما تدوى في أيامنا هذه القومية في كل قطر ، فوقف اقبال في المؤتمر الاسلامى ـ وكان قد رأس اجتماعه السنوى ـ يقول : « ان الوطنية التى هتفت بها أوروبا وطنية زائفة ، فأنا أقاومها ولا أرضى عنها ، وما انكارى اياها خوفا على مصالح المسلمين أن يلحقها الاذى ، بل أحاربها لانها تحمل ريح المادية الملحدة التى تنتسب الى الارض وتجحد السماء ، ان هذه الوطنية خطر جد كبير على القيم الانسانية جمعاء ، اذ تفقد الانسان مثله ومبادئه وايمانه » .

وقال : « وأنا لا أنسى للوطنية آثارها في سلوك الفرد والمجتمع، ولكنى لا أضع مقدسات الانسانية تحت سيطرة هذه الهتفة ينفثها الشيطان ليبعدنا عن الدين ، بل لا بد أن نستبدل بالوطنية ما هو أعظم وأبقى ، ألا وهو أن يجعل الايمان والثقافة والسنن التاريخية والمثل مقومات الحياة الانسانية التى نريد أن نحياها لانها هى وحدها الجديرة بأن يعيش لها الانسان أو يموت من أجلها ، لا من أجل أرض اضطرب فيها الجسد الآدمى عفوا » .

حمل اقبال على الوطنية وهى أشد ما تكون غليانا واضطرابا وقوة وسيطرة على الاذهان والقلوب والاقلام ، حمل عليها وهو اعظم مفكرى القارة الهندية حماسة وجهادا من أجل استقلال الهند عن الاستعمار ، ثم استقلال المسلمين عن غيرهم بحيث تقسم القارة الهندية قسمة تفرضها روابط الدين ثم الجنس واللغة .

وليس في هذا التقسيم مـا يناقض حملته على الوطنية ، فالوطنية عبودية للجنس ، وكلتاهما خطر على القيم الانسانية ، والتقسيم يراد منه استقلال الاسرة حتى لا تفقد مزاياها الخاصة أو

تحرم من حقوقها وحريتها في خضم الاكثرية .

وهو اذ يحمل على الوطنية فانما يريد خير الانسانية ، لان الوطنية - في بعض اتجاهاتها - تعصب ينطوى على ما يناقض « عمومية » الرسالة المحمدية وتعارض انسانية هذه الرسالة التى جاءت لتنظيم العالم كله حتى تكون أسرة انسانية كبيرة ، ولتتخذ من الوجود وطنا انسانيا كبيرا .

والمخلصون من هؤلاء الدعاة يزعمون ان الوطنية خطوة أولى الى الانسانية .

وما أدرى كم من القرون نحتاج اليها حتى نخطو هذه الخطوة ؟

واذا قيل : لنعن بالفرد وحده مجردا من المجتمع مفصولا من الاسرة حتى اذا أعددناه اعدادا صالحا للحياة الفاضلة وأعددنا معه أفرادا آخرين فقد وفقنا لاقامة مجتمع مثالى أفيصح مثل هذا القول ؟! ان الواقع ينكره .

وان الاسلام لا يعرف الوطنية التى نادى بها الغرب ، وتلك فريته الكبرى ، وجاءت الشيوعية وزعمت أنها لا تعرف الوطنية أيضا ، ولكن شتان ما هما ، فالشيوعية تنكر الوطنية على طريقتها الخاصة في انكار المثل والقيم الانسانية جميعها لتجعل من بنى الانسان قطيعا لا ارادة له ولا حرية عنده ، أما الاسلام فينكر الوطنية على طريقته الانسانية في انكار ما يفرق الجماعة الصالحة وما يؤذى الكيان الانسانى العام ، والشيوعية عندما تنكر الوطنية تريد أن تجعل من الاوطان وطنا واحدا حتى يسهل عليها قيادة الجماهير وتوجيهها للتدمير أو دمار نفسها ، والاسلام يريد أن يجعل من شتيت الاوطان وطنا جميعا حتى تعم المساواة وينعم الناس على اختلاف أرضهم ولغتهم وألوانهم بالحرية والرخاء والانسانية .

فاذا أنكر اقبال الوطنية فانه ينكرها على طريقة الاسلام ، ينكر ما فيها من تعصب ومن اختراع لامجاد زائفة ، وينكر ما فيها من سوق الامة الى ما يشغلها عن الانسانية والرسالة الخالدة بدعوة اقليمية تفكك الروابط وتسىء الى السلام والوئام .

ان الاسلام لا يعرف الوطنية كما يعرفها الغرب المستعمر ، بل يحاربها ولا يعترف بالمزايا الانسانية الفاضلة ، ولكنه لا يتجاهل أثر البيئة والارض في الامة ، فيجعل الفروع مما يجوز فيه الخلاف الذى يتبطن الرحمة والتسهيل لا الخلاف الذى يؤجج نار الخصومة والبغضاء ، أما الاصول فواحدة في الاوطان جميعها ٠

وايمان اقبال بربه ايمانا قويا جعله يستخف بالهتافين وهم اقوياء فيحمل على خصومه دون أن يجرؤ أحد باتهامه في وطنيته أو يطعن اخلاصه لامته ، ولكن اخلاصه لوطنه لا يحمله على معاداة الاوطان الاخرى ، واخلاصه لامته لا يجعله يزرى بالامم الاخرى أو يعمل على استعبادها ، بل لكل أمة الحق في الحياة الكريمة حتى يعيش الناس جميعا أخوة متحابين ٠

ودعاة الوطنية والجنسية اليوم يتجاهلون الاسلام بل يعملون على زيه ، وهذا مكمن الخطر ومبعثه ، لان عبودية الجنس مما ينكره الاسلام انكارا شديدا ، وتفوق الجنس أمر لا يقره الاسلام ، لانه مما يناقض دعوته الانسانية العامة الشاملة ، ومن براعة استهلال هذا الدين أن يحمله الاحرار والعبيد على السواء ، لانهم أكفاء في الحقوق وسواء في الواجب ، وأن يحمله العربى والفارسي والحبشي والرومي ٠

وفي الضجيج الذى ملأ الآفاق وسيطر على العقول ــ حتى المثقفة ــ كاد صوت الاسلام يخفت ، وهذا ما يؤسف له وما خشي منه اقبال ٠

ان باكستان ــ مثلا ــ حريصة أعظم الحرص على « الاسلامية » وهي عقيدة مؤسسها الروحي وواضع أساسها الراسخ « محمد اقبال » وصحبه الموفقين الاخيار ٠

وما حب باكستان أو اقبال للعرب الا لان الاسلام ظهر على أيديهم ، والقرآن نزل بلغتهم ، ورسول الاسلام عليه الصلاة والسلام من العرب ، فالعرب يستطيعون أن يتسلموا قيادة الشعوب الاسلامية التى تدين لها بالمحبة والتقدير وعرفان الجميل ٠

وباكستان حريصة على الاسلام كل الحرص وأعظمه ، وفائدة العرب من باكستان لا تقوم ولا تحد ، وكذلك القول في الشعوب الاسلامية .

وكأن اقبال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ نظر من خلال الغيب الى ما سيحدث ، وكان ملهما عندما قال : « يخيل الى أن الله جل جلاله ينير السبل أمامنا تدريجيا حتى نرى الاسلام ليس فتحا ولا استعمارا وانما هو رابطة أمم تسلم بما بينها من حدود مصنوعة وتشعر بما بينها من فوارق جنسية قصد بها تسهيل التعارف على كل شعب ، لا تقييد الافق الاجتماعي لاعضاء هذه الرابطة » .

والاسلام عندما أرسى قواعد المجتمع الانسانى على أساس وحدانية الله أزال الفوارق الجنسية ومحا الحواجز الجغرافية اذ دعا الى الاخوة الانسانية » .

وقال اقبال : « الحياة الطائفية ضيقة ، وتزداد ضيقا اذا جعلت الطائفة اهتمامها وفقا على مصالحها الضيقة ، وفصلتها عن المصالح الانسانية التى لا تتغير ، أما المصالح الطائفية فموقوتة ، وقد تزول بزوال ما يدعو اليها ، واذا كان الفرد يعجز عن الانطلاق الى الذروة الا اذا ربط مصيره بمصير المجتمع فان الامم والاقوام أجدر بالسعى لتحقيق المصالح الانسانية الكبرى حتى تصبح قادرة على التطور الروحى والاخلاقى » .

وقال : « ان القومية تقوم على مصالح الطائفة ، متجاهلة الحياة الانسانية الكاملة ، ولهذا يجب أن نسمو فوق الروح القومية الاقليمية الضيقة » .

ونشوء فكرة باكستان عند اقبال لا يناقض انكاره للوطنية ، فهو لم يرد من انشاء باكستان احياء الوطنية أو الاعتزال عن أمم الاسلام أو الارض ، بل أراد أن ينشىء دولة نموذجية تعبىء أفرادها لخير الانسان ، لان رسالة الاسلام لا تستسلم للحياة في حدود الفردية الضيقة ولا تحيا في محيط الاقليمية ، لان اله المسلمين هو رب العالمين ، ونبى الاسلام رحمة للعالمين ، والمسلم مأمور من الرسول

عليه الصلاة والسلام أن يتخلق بأخلاق الله ، فهو ـ اذن ـ مكلف تكليفا أن يعمل على بناء مجتمع انساني يتسع لبني الانسان جميعا .

والوطنية يجب ألا تغدو دعوة ضيقة ينبو الاسلام على ربوعها والا استحالت مبعث الشر والنقـــمة ، بل يجب أن تكون الوطنية دعوة الى الخير وتنمية المزايا الخاصة في قوم ليشاركوا غيرهـم في عمارة الارض وتمدين الانسان ورفاهة العيش ونشر السلام والمحبة والرحمة ، فاذا كانت كذلك فان اقبالا لا يخاصمها بل يدعو اليها لانها تبشر بالاسلام نفسه .

والوطنية والقومية ـ على هذا الاساس ـ هما اللتان كانتا في حساب اقبال عندما فكر في انشاء أرض الطهر « باكستان » .

رحم الله اقبالا رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام خيرا ؟

* *

أرني الله

تأليف : توفيق الحكيم

أصدر صديقنا الاستاذ توفيق الحكيم مجموعة قصص نحوى ثماني عشر قصة أطلق عليها اسم « أرنى الله » وهو عنوان احدى قصص هذه المجموعة الجديدة .

والمستوى الفنى لهذه المجموعة أقل مما سبقها من مجموعات القصص التى صدرت للاستاذ الحكيم ، ولكن عليها طابع فنه ، ونجد فيها فن القصة وجوها وأسلوبها ، الا أن الافتعال يظهر في بعض فن هذه القصص فيفقدها كثيرا من الروعة وجلال الفن وسحره .

وأعزو المآخذ التى بمجموعته هذه أن الاستاذ الحكيم كان يريد أن يملأ فراغا أجبر على ملئه ، والمطبعة لا ترحم ، و « المقاولة » ظلوم ، والصحيفة قهارة لا تنتظر ، ومواعيدها يجب أن تحترم ، فهو مجبر على الكتابة قبل أن تجتمع لديه دوافع الكتابة وتضطرب في نفسه الخلجات وتكمل التجربة الشعورية فتخرج الاجنة قبل مدتها .

والفن لا يخضع لسلطات المطبعة والمقاولة والصحيفة ، ولا يخضع للدوافع التى تولد خارج النفس وتبقى بعيدة عن التمثيل الشعورى ، بل لا بد في الفن من دوافع تضطرب داخل النفس وتتحرك في شعور الفنان وتحيا خلاله .

وفن الاستاذ الحكيم المعروف فن أصيل نابع من القلب ، ودوافعه تنبثق من أعماق النفس ، ولكنه كان في هذه المجموعة (أرنى الله) مخالفا طبيعته ، نادا عن طريقته الفنية ، مضطربا بين الفن والمنفعة ، مكتفيا بالدوافع الخارجية قبل ان تنضج وتصبح شعورا .

وانا لا انكر على الفنان الدوافع الخارجية ولا انكرها في عالم الفن ، بل اريد — كما يريد الفن — ان تصبح كالغذاء الذى يتناوله

الانسان فيتمثله لكي يستحيل دما يغذى جسمه وأعصابه وعقله وقلبه وروحه ٠

ان الغذاء شيء خارج عن النفس والجسم ، ولكن عندما يتناوله الانسان لا يبقى على حاله ومادته ، بل يستحيل شيئا مغايرا له ، وكذلك الدوافع التي تولد خارج نفس الفنان ، فهي عندما تأخذ طريقها الى الفنان تستحيل بعد التمثيل الشعورى تجارب شعورية٠

واكثر قصص الحكيم في هذه المجموعة (ارنى الله) لم يكمل لها التمثيل الشعورى ، ففقدت كثيرا من خصائص فن توفيق الحكيم ٠

وعلى سبيل المثال نعرض قصة « امرأة غلبت الشيطان » فهي تشبه « الى حد كبير فكرة « فاوست » للشاعر الالمانى الكبير جيتى ٠

وموجز القصة : ان امرأة دميمة عجوزا اتصلت بالشيطان واتفقت معه على ان يهبها خلابة الجسد وصباه ، وحلاوة القسمات وصباحة الوجه وحسن القوام ويعيدها « فينوس » ويمنحها القدرة على المتاع الجسدى عشر سنين ، وتدفع له تلقاء كل هذا ثمنا رضى به اللعين ، وهذا الثمن أن يملك روحها بعد السنوات العشر ويسوقها الى الجحيم ٠

اتفق الطرفان ــ المرأة والشيطان ــ على ما قدمت ، ودون اتفاقهما في وثيقة مكتوبة بدم المرأة ٠

واستحالت المرأة بعد شيخوختها الفانية ودمامتها الفظيعة شابة مثلا في الصبا والجمال وخفة الروح والخلابة والحسن ، وتهالكت على المتع تعب من ينابيعها المختلفة وتنهل من كؤوسها المترعة ، وتلتهم موائدها التي تضم ألذ ما تشتهى النفس وأشهى ما تنطلق نحوه الامانى الطافرة ، حتى اذا ارتوى جسمها الظامىء وامتلأت نفسها الفارغة فلم يبق فيها مغرز ابره تنزلها لذة أو متعة ، وانتهى من السنين العشر اكثرها ولم يبقى الا شهران زهدت في متاع الجسد ، ورغبت في متعة الروح ، ونادت الرجيم وطلبت اليه أن يمنحها المتعة الجديدة ٠

وذهب الشيطان للرغبة الجديدة ولم يجد بدا من الوفاء على غير عادته ومنحها ما طلبته .

ومتعة الروح عند هذه المرأة أن تتجه الى الله حق الاتجاه ، وتعبده حق العبادة .

وانطلقت المرأة الى الله تائبة نادمة مستغفرة ، وطهر قلبها من الرجس ، وجسدها من الدنس ، وروحها من الاثم ، واندفعت الى أنهار المتعة الروحية والاشـــواق الفاضلة تعب منها أكثر مما عبت مـن الخطيئة حتى أصبحت مثلا في الصلاح والزهد والتقوى .

وانتهى الشهران المتممان لعشر السنين فحضر الشيطان فرحا مستبشرا وطلب اليها تنفيذ « الاتفاق » فوفت له ، وقبض روحهـا وسلك اللعين به سبيل الجحيم حتى اذا كان منها قاب قوسين أو أدنى تراجعت ألسنة النار اللاهبة الممتدة كاذناب الشهب المنقضة وابتعدت عن روح المرأة .

وبينا الشيطان الرجيم كذلك حضرت ملائكة الجنة تدعى في هذه الروح الطاهرة الطيبة ، وتريد أن تصطحـــبها الى الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين .

واشتد الجدل العنيف بين الشيطان والملائكة ، كل يدافع عن « وجهة نظره » بما وهب من منطق وبيـــان ، وانضمـت المرأة الى الشيطان ليقذف بروحها الى الجحيم لتظهر له أنها مثل رفيـع في الوفاء ، وترضى بالنار وتقول للشيطان بعد أن اتهمها بالخداع أمـام الملائكة : لم أخـدعك ! انى وفيـة بعهدى خـــذنى الى الجحيم . دعونى أيهـــا الملائكة أذهب الى الجحيم ! هكذا وعـــدت ..! ومن الفضيلة أن أبر بوعدى ولا أنكث عهدى ولو مع الشيطان .

فيقـول الشـــيطان للملائكة : أسـمعتم ؟ انهـــا لى !. دعوهـــا تلحق بى !

فيجذبها الملائكة الى الجنة وهم يقولون : لو تنكرت لك الساعة وتنصلت لدفعنا بها اليك !

وتتوسل المرأة الى حماتها الملائكة وتقول : انهـــا جريمة أن

أنكص عن الوفاء ، دعوني بربكم أذهب اليه وأكفر عن ذنوبي الاولى •
فتقول الملائكة ليس لك ذنوب أولى ، لقد ذابت في نور طهرك الاخير !
وينهزم الشيطان وتنتصر الملائكة وتمضي المرأة الى الجنة •

هذا موجز القصة ، والفكرة جميلة رائعة والسياق حسن لولا بعض الفضول والحواشي ، وهي تقوم على فكرة الحديث النبوى الشريف : « ان أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » •

ووجه المؤاخذة في هذه القصة الافتعال في الخاتمة ، وذلك عندما أراد الشيطان أن يقودها الى النار انقادت له وعندما وجدت من يريد أن يسوقها الى الجنة رفضت وصممت العزم على الوفاء للشيطان والمضي الى النار تكفيرا عن ذنوبها الاولى ، وأبت أن تخون وان كان من تخونه اللعين نفسه ، بل تمضي القصة الى الحد الذى يجعل المرأة تعد عدم الوفاء للشيطان ذنبا جديدا ، وتذكر الملائكة بأن المطل في الوفاء لصك واجب الوفاء ذنب •

وهذه الخاتمة ليست طبيعية بل تقوم على حوار مفتعل أفقد القصة نهايتها الطبيعية ، فتشبث المرأة بالوفاء للشيطان بعد تطهرها الروحي والجسدى وتوبتها الصادقة النصوح أمر لا يتفق مع عمل أهل الجنة الذى وفقها الله له •

لعل الاستاذ الحكيم نسى أنه لا وفاء في معصية ، وموقف المرأة في اللحظات الحاسمة موقف شاذ ، فهي تنضم الى الشيطان وتريد أن توفي له أو للصك ولا تبالى النار ما دام الوفاء قائدها الى الجحيم •

هنا خالف الاستاذ الطبيعة وند عن طريقها القوام ، وأسره سحر المنطق والفكرة فاخذ يفتعل الحوار ظنا منه أنه يقدم البطلة في صورة رائعة المثال عندما يحملها على الاصرار على الوفاء والتشبث وهي أمام أبواب الجحيم وملائكة الجنة تمسك بها لتأخذها الى الجنة •

نعم ، أخذت الاستاذ الحكيم فكرة الصورة المثالية للوفاء

فجعل المرأة تتمسك بصك « الاتفاق » تمسكا شاذا تنسى فيه عذاب النار ونعيم الجنة وتنسى نفسها وكل شيء الا الوفاء ·

ان تشبث المرأة هنا حماقة ، والوفاء فضيلة فعلا وحقا ولكن يستحيل في هذا الموقف جنونا ورعونة ولا يحسب في مزاياها ، هذا اذا زعمنا ان الطبيعة المستقيمة تسيغ موقف المرأة الشاذ ·

ولو مشى الاستاذ الحكيم على طريقته في الفن وطبيعته في القصة ولم يتحكم فيه المنطق والفكر لاكتفى بأن يجد المرأة في نهاية الشهرين امرأة تقية طاهرة نقية لا سلطان للشيطان عليها فينهزم ، والله يقول في محكم كتابه : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » ·

وما دام الاستاذ الحكيم جعل المرأة تتوب توبة صادقة نصوحا وتنتهى الى هذه الخاتمة السعيدة التى يسودها جو الايمان فان مما لا يتفق مع هذه الخاتمة السعيدة تشبثها برمز الشر ، ومما يتناقض مع هذا الايمان فهمها معنى الوفاء لوعد قطعته للشيطان بعد أن « غدرت » بالشر حينما لاذت برحاب التوبة وحرم الصلاح ·

ثم ننتقل الى قصة أخرى لنبين الافتعال فيها ونشير الى اللعب بالالفاظ واستيفاء الاشكال ·

هذه القصة هى « مؤتمر الحب » الذى عقده الاستاذ الحكيم بين صحفى وشاعر وموسيقى وامرأة ، وأنطق كلا من هؤلاء الاربعة بكلام قائم على أسس غير فنية تلك هى أسس الصنعة والافتعال ، والبعد عن الطبيعة الفنية والصدق الفنى ، واللعب بالالفاظ واستيفاء الاشكال التى لا صلة لها بالتجارب الشعورية ·

فهو يقول على لسان الصحفى : « الحب هو « خبر » يستقى من القلب ويسأل فيه العقل فيكذبه ولكن القلب يؤمن به ويجازف باعلانه متحملا وحده مسؤولية النشر » ·

ومن المعروف أن هذه الالفاظ التى استعملها الاستاذ الحكيم على لسان الصحفى مصطلحات صحفية مبتذلة وعلى الاخص هذه الكلمات : خبر ، ويستقى ، ويسأل ، ويكذب ، واعلان ، ومسؤولية النشر ،فان عليها طابع الصحافة · وفي سطرين يفسر الاستاذ المؤلف

نفسه على حشد هذا العديد من الالفاظ ويفتعل التعبير الذى يخضعه للتكلف الواضح ظنا منه انه بهذه الصناعة المفتعلة المتكلفة يحتفظ باصالة الصحفى وفنه وطابعه ، ناسيا ان « الحب » ليس لعبا ولا صاغرا لمثل هذه التعبيرات التى يلدها اللهو لا الجد •

واذا جعلنا هذا الصحفى يصدر من سجيته الانسانية ويعبر عن تجربته الشعورية لما استطاع أن يحشد الالفاظ المتصلة بمهنته هذا الحشد المصنوع المتكلف لان الطبيعة الانسانية في غمرة الحب لا تخضع للعب بالالفاظ •

وانى أعتقد أن مؤتمر الحب الذى عقـــده الحكيم كان أشبه بجلسة من جلسات المتندرين الذين يتكلفون التعبير كما تكلفه هذا الصحفى ، واننا لنرى مثل هذا اللعب في الصحف الهزلية فنضحك ونتسلى ، اما أن يكون ذلك عند توفيق الحكيم فلا ، لانه لم يقدم لنا قصته في مجال الهزل والتندر والفكاهة • وان تفرغ الاســـتاذ الحكيم واجهاده نفسه ليسوق جيشا من الالفاظ التى تعيش في حقول الصحافة على لسان صحفى لا يدل على أن الصحفى يمثل بيئته بقدر ما يدل على الافتعال الكريه والصنعة ، وكـان في وسع الحكيم أن يستغنى عن هذا اللعب بالالفاظ ويبتعد عنه ما دام بعيدا عن جـو التندر والمجون ، فليس « الحب خبرا يســـتقى من القلب » وليس بعملية صحفية أو ريبورتاج صحفى •

وليستوفي الاستاذ الحكيم الاشكال صنع مع الموسيقى ومع الشاعر ما صنع مع الصحفى ، فهو يقول على لسان الموسيقى عندما يعرف الحب : « الحب لحن يعزف على أوتار القلب وكلما قطع القلب منه وترا زاد اللحن طربا » • ويقول على لسان الشاعر : « الحب قصيدة تتفجر مـن القـــلب معانيهـا ••• وتخبـو روعتـــها اذا وضـع العـقل أوزانها » •

وهذه القصة « مؤتمر الحب » ليست في نظرى قصة بل حكاية من الحكايات التى نقرؤها في البعكوكة والاثنين •

وقبل أن أترك هذه النـــاحية أود أن أعــود الى الوراء قليلا

وأسأل : ما الخبر الذى يستقى من القلب ؟ ومـــا مسؤولية النشر التى يتحملها القلب وحده ؟

لست أدرى وأخال الاستاذ الحكيم لا يدرى أيضا .

وفي هذه المجموعة بضع قصص يمكننا أن نسلكها في ســمط الفن القصصى الجيد ، ومن خيرها قصته التى كتبــها تحت عنوان : « معجزات وكرامات » ففيها كل خصائص القصة الفنية ، فالجـــو القصصى مهيأ ، والحبكة الفنية قوية ، والتساوق الموسيقى مطرد ، ورسم الشخصية واضح دقيق ، والحادثة طريفة ، والنهاية رائعة ، والسخرية لطيفة .

وأود أن أشرك المستمع الكريم في هذه المتعة الفنية فأقـــدم له موجز قصة « معجزات وكرامات » فهى الى استكمالها خصائص القصة العصرية الحديثة تشتمل حـــادثة فيـــها كثير من اللطف والسخرية والطرافة .

كان القسيس أمام كنيسته يسقى بعض شجيرات حديقتـــها الصغيرة في رفق وحنان ، واذا جماعة تحييه ويرجوه أحد أفرادهـــا أن يصحبه الى القرية ليبارك امرأته التى تحتضر ولم يترك له فرصة للاعتذار وقرب له حمارا فارها وحمله على ظهره فمضى مع الجماعة حتى اذا وصلوا القرية ودخل أحد بيوتها رأى امرأة تحتضر عـــلى فراش الموت وبصرها شاخص الى السماء .

نظر القسيس الى المحتضرة واستنزل عليها البركة والرحمة ، ولم يكد يفرغ من ذلـــك حتى لفظت المرأة آهـة طويلة أصحبتـــها بشهيق عميق وسألت : أين أنا ؟ فأجابها القسيس دهشا : أنت في دارك . وطلبت المرأة ماء ثم طعاما ، وطعمت وشربت والحاضرون في دهشة ، واذا هى تغادر فراشها وتمشى في الدار صحيحة الخطى كأن لم تكن منذ دقائق تحتضر .

وعندئذ خر القوم على يد القسيس ورجليه لثما وصاحوا : أيها الرجل المبارك ، لقد حلت بركتك في الدار وأحيت بركتك الميتة .

وأفردوا للقسيس غرفة وأضافوه ثلاثة أيام ، وعنـدما تهيأ

للعودة أثقلوا له الحمار بالهـــدايا ونفحـوه خمســـة جنيهـــات لصندوق الكنيسة .

وما كاد يستقر على ظهر الحمار الفاره حتى أقبل رجل يلهث وارتمى على قدم القسيس يتوسل اليه ويقول له في ذلة وانكسار وبكاء : أيها الاب الرحيم ، حديث معجزتك بلغ القرى المجاورة ولي عم في مقام أبي على فراش الموت . وهو يأمـــل بركتك فلا تترك روحه قبـــل أن تبـــاركه .

واستسلم القسيس لرجائه ومشى معه حتى وصل القريـــة المجاورة ودخل دارا كالدار الاولى ، وهنـــاك رأى في غرفة مريضا موشكا على الموت وحوله أهله يتقلبون بين الرجاء واليأس ، فما ان دنا منه القسيس ولمسه حتى انتفض المريض الهالك وامتلأ عافيـة وصحة ونهض من فراشه وهو أشد ما يكون صحة ورواء .

وهتف الحضور باســم القسيس وهنـــأوه واستبشروا بـه وفرحوا واضافوه ثلاثة أيام وقدموا اليه الهدايا والنذور .

وعندما أراد الرجوع أقبل رجل يبكي ويتوسل : يا أبانا بارك قريتنا ولو للحظات فقد انتشر حديث معجزاتك فلا تحرمنا بركتك .

وما كاد يحل القرية ويدخل بيت الرجل حتى رأى غلامـــا كســـيحا ، وتمــت المعــجزة الثـــالثة ، فقـــد نهض الغلام يجرى ، ولبث القســـيس ثلاثـــة أيـــام في القريـــة بـــين التـــكريم والترحاب والهتـــاف باســـمه .

وعاد القسيس الى بلده وما كاد يصل الى الكنيسة حتى التف به ذووه واخوانه فرحين مستبشرين ، واخبروه بأن عصـــابة من اللصوص خطفته ولـــم يعيـــدوه الا بعـــد أن افتـــدته الكنيسة بخســـمائة جنيـــه .

وهكذا لم تكن المعجزات التى جرت عـــلى يديـــه الا تمثيـــلا كلف الكنيسة مـــالا طائلا ؟

حديث اذيع مـــن راديو مكة في حلقتـــين
في ١٣٧٣/٨/١٧ هـ وفي ١٣٧٣/٨/٢٥ هـ

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضـــوع

كتب المؤلف

أ ـ الكتب التى نفدت :

١ ـ كتــابى
٢ ـ محمد بن عبد الوهاب (طبع مرتين)
٣ ـ أريد أن أرى الله (قصص)
٤ ـ الهوى والشباب (شعر)
٥ ـ صقر الجزيرة ٣ أجزاء
٦ ـ الخرج والشرائع
٧ ـ سـعود
٨ ـ المنصـور
٩ ـ المقـالات
١٠ ـ البيـان
١١ ـ الهجرة (مسرحية قصيرة)
١٢ ـ المقدمة
١٣ ـ حرب الأكاذيب
١٤ ـ الزنابق (مسرحية مترجمة لطاغور)
١٥ ـ قطرة من يراع
١٦ ـ مقصورة ابن دريد
١٧ ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية
١٨ ـ الشيوعية والاسلام
١٩ ـ الفصحى والعامية
٢٠ ـ عشرون يوما في الصين

ب ـ الكتب المحققة التى نفدت :

٢١ ـ تهذيب الصحاح للزنجانى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع عبد السلام هارون)
٢٢ ـ الصحاح للجوهرى ٧ أجزاء ، منها جزء المقدمة
٢٣ ـ ليس في كلام العرب لابن خالويه
٢٤ ـ مقدمة تهذيب اللغة للأزهرى